تجليد صالح الدقر
تلفون ٢٢٩٧٧

331.51
H54sA

امبراطوريّة العبيد السّوفيتيّة

تأليف

البرت كونراد هيرلنج

مدير الأبحاث بلجنة التحقيق فى أعمال السخرة
ومستشار المجلس الاقتصادى والاجتماعى بالأمم المتحدة

١٩٥٣

دار المعارف بمصر

مقـــدمة

تتجاذب العالم اليوم كتلتان يختلف النظام الاقتصادى السياسى فى كل منهما تمام الاختلاف عنه فى الأخرى .

والشيوعية فى الشرق قد أسدلت على نفسها ستاراً حديدياً قبعت خلفه وأخذت تتهم الغرب بالرأسمالية والاستعمارية والاستغلال . . .

والديمقراطية فى الغرب تتهم الشيوعية بأنها مظهر جديد من مظاهر العبودية ، حيث تحرم الشعوب من حرياتها ومبادئها التى كافحت الإنسانية أجيالا طويلة فى سبيل تحقيقها .

وفى وسط تيارات الحرب الباردة التى وقع العالم اليوم فريسة لها ، وبين سيول الدعاية التى تنهال من الشرق والغرب . جلس الناس فى العالم الحر لا يستطيعون تصديق هذه الاتهامات المروعة التى تقذف بها الدول الغربية فى وجه الاتحاد السوفيتى والدول التى تدور فى فلكه . أيمكن لعقلية النصف الثانى من القرن العشرين أن تقبل وجود هذه الأحوال الرجعية الاستبدادية التى تسود الدول الشيوعية ؟ أيمكن للرجل المتمدين أن يصدق أن زملاءه فى الإنسانية مستعبدون يرسفون فى القيود والأغلال وأن

الإجرام قد وصل ببعض القادة حد تنفيذ سياسة اغتيالات جماعية للقضاء على أجناس كاملة بأسرها ؟

ولأول مرة فى المكتبة الدولية ، عرض مستر البرت هيرلنج فى هذا الكتاب حقيقة نظام السخرة فى الاتحاد السوفيتى وتوابعه معززاً أقواله بوثائق لا تقبل الشك من واقع سجلات البوليس السرى السوفيتى — كما ألقى ضوءاً قوياً على ما غمض من السياسة الاقتصادية التى تتبعها روسيا فى « الديمقراطيات الشعبية » .

ولم يقتصر هيرلنج فى كتابه على الموضوعات الاقتصادية أو المجادلات السياسية الجافة . بل كان حريصاً على أن يورد قصصاً إنسانية من واقع الحياة فى العالم الشيوعى يرويها أصحابها بأنفسهم .

ولقد تمكن المؤلف بطبيعة عمله فى الأمم المتحدة وفى لجنة التحقيق فى أعمال السخرة من أن يستقى المعلومات والوثائق من مصادرها . فجاء كتابه عرضاً واقعياً شائقاً للحياة فى « إمبراطورية العبيد السوفيتية » .

الجزء الأول

الفصل الأول

الخيوط الأولى للعبودية تتجمع

. . . هذه الملايين من سكان روسيا وأستونيا ولاتفيا ولتوانيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا وألبانيا وبلغاريا وهنغاريا ورومانيا تعيش اليوم فى ظل نظام من الرق والسخرة لم يسبق له مثيل فى التاريخ ... نظام لم يعرفه العالم إلا على يد الاتحاد السوفيتى .

وإذا أردنا أن نلم بنشأة نظام السخرة فى الجمهورية الاتحادية السوفيتية ، فإن علينا أن نعود بالتاريخ القهقرى إلى الأيام الأولى من الحكم الشيوعى فى تلك الدولة .

لقد أعلن الحزب الشيوعى السوفيتى ديكتاتورية البروليتاريا (الطبقة العاملة) ، مقرراً أن الحزب البلشفى وحده هو الذى يضم أكثر أعضاء الطبقة العاملة حظًّا من التقدمية . . . وعند ما أخذ الشيوعيون يعالجون المشاكل العمالية أقاموا سياستهم على أساس مؤلفات كارل ماركس . . . فانصرفوا أو هكذا يبدو إلى النقطة الثامنة من برنامج النقاط العشر التى وردت فى

« الميثاق الشيوعى » الذى وضعه ماركس وانجلز . . . وقد جاءت هذه النقطة الثامنة تحت عنوان « المساواة بين الجميع فى الالتزام بالعمل وإنشاء جيوش صناعية وخاصة فى ميدان الزراعة » . . .

وكان من الطبيعى إذن أن يقوم أول قانون للعمل يصدره حكام روسيا الشيوعيون على أساس هذا الميثاق . . . فصدر قانون العمل السوفيتى فى ١٩ ديسمبر عام ١٩١٨ وقد نص فيه على « العمل الإجبارى » .

وأصدر مكتب الحكومة السوفيتية فى الولايات المتحدة كتيباً رسمياً لخص فيه الفكرة التى وضعت لتطبيقها قوانين العمل السوفيتية قائلا : « إن المبدأ الأساسى الذى تقوم عليه قوانين العمل فى روسيا السوفيتية هو أن لكل فرد على المجتمع أن يوفر له سبل العيش ، والمجتمع فى هذا كأسرة واحدة تعول من دخلها أفرادها جميعاً » . . . وتتحدث قوانين العمل عن المواطنين ، ولكن الواقع أنه ليس هناك فرق بين المواطنين والأجانب ، إذ يستطيع من يشاء أن يكون مواطناً بمجرد إبداء رغبته أن يكون كذلك . . .

بديهى إذن ، أنه ما دام لكل فرد أن يجد مكانه على مائدة المجتمع ، فعلى كل شخص قادر بدنياً أن يقوم بنصيبه من العمل اللازم حتى يستطيع المجتمع أن يعول أفراده . . . وهذا

هو ما يوصف بالعمل الإجبارى » .

وجاءت المادة الأولى فى قانون العمل الأول تحت عنوان «العمل الإجبارى» ، وهى تنص على أن « كل مواطنى الجمهورية الاشتراكية الاتحادية السوفيتية — باستثناء المذكورين فى القسمين الثانى والثالث — يخضعون لنظام العمل الإجبارى » . . . أما الذين استثناهم القانون فهم الذين تقل أعمارهم عن ستة عشر عاماً أو تزيد على خمسين عاماً ، والمرضى أو الجرحى .

وقد نص القانون أيضاً على استثناء بعض الأشخاص من العمل الإجبارى بصفة مؤقتة ، وهم الذين يعوقهم عن العمل مرض أو ضرر مؤقت وذلك حتى يتم شفاؤهم ، والسيدات « لمدة ثمانية أسابيع قبل الوضع وثمانية أسابيع بعده » .

ولا يزال السوفييت يحترمون هذا المبدأ القائل إن العمل واجب على الفرد . . . وقد جاء فى المادة الثانية عشرة من الدستور السوفيتى الحالى أن « العمل فى الاتحاد السوفيتى واجب وموضوع يتعلق بالشرف بالنسبة لكل قادر عليه ، وذلك تطبيقاً للمبدأ القائل « من لا يعمل لا يأكل » . . . والنظرية المطبقة الآن فى الاتحاد السوفيتى مأخوذة عن النظرية الاشتراكية القائلة : « من كل حسب قدرته ولكل حسب عمله » . . .

هذا هو أحد المبادئ الماركسية التى تستخدم — وربما على غير وجهها الصحيح — فى تعليل اتخاذ هذا الموقف الصارم

من العمل ، ولكنه مع ذلك ليس كافياً كأساس لنظام السخرة فى الاتحاد السوفيتى . . .

وثمة اتجاه آخر يعتبر حلقة أخرى فى سلسلة السخرة . . . هذا الاتجاه يبدو واضحاً فى النظرية الخاصة بالجريمة . . . وموقف الشيوعيين من الجريمة يقوم بالطبع على أساس من فكرة ماركس المادية عن المجتمع . . . ويقول ماركس « ان طبيعة كل مجتمع تحددها العلاقات الاقتصادية القائمة فيه ، ومن رأيه أن السبب فى انتشار الجرائم فى المجتمعات غير الاشتراكية مثل المجتمعات الرأسمالية والإقطاعية هو أن الرأسماليين والإقطاعيين ، لا العمال ، هم الذين يملكون وسائل الإنتاج . . . ولما كانت الجريمة تمحى حيث تمحى أسبابها ، فإن الجرائم والأمراض الاجتماعية تختفى بداهة فى المجتمعات التى تسودها علاقات اقتصادية سليمة ، كالمجتمعات الاشتراكية ، حيث يمتلك العمال وسائل الإنتاج . . . »

وقد لخص دافيد ناللين وبوريس نيكولافسكى ، هذه النظرية حيث قالا . . . « يكفى — بل يجب — كى نتخلص من الجريمة أن نتخلص من الرأسمالية . . . فإذا انهار الاقتصاد الرأسمالى انهارت معه أسباب الجريمة وبدأت الجريمة فى الاختفاء . . . والمجتمعات السليمة لا تعرف الجريمة على الإطلاق ، وفيها تنقلب السجون إلى مدارس أو متاحف . . . والسبب الأول

لحدوث الجرائم هو كراهية المجتمع واختفاء الشعور الاجتماعى ، وهو ما يشجع عليه المجتمع الرأسمالى . . . إن منبع الجريمة هو الفقر والجوع والبطالة الاختيارية التى يتمتع بها الأغنياء ، والبطالة الإجبارية التى يشكو منها الفقراء — فالانهيار الأخلاقى هو النتيجة الحتمية للتناحر الاجتماعى » .

وهذه هى الحلقة الثانية فى السلسلة ولكنها أيضاً ليست كافية. ولا تستند الحلقات التالية فى السلسلة إلى النظرية المادية الماركسية فحسب بل تستند أيضاً إلى طبيعة النظام الديكتاتورى فى الاتحاد السوفيتى والدول التابعة له ، حيث تربط بين الأمور الاقتصادية والقانونية والسياسية علاقة أوثق كثيراً جداً منها فى أى مجتمع ديمقراطى . . . .

والاتحاد السوفيتى منذ نشأته ينظر إلى أولئك الذين لا يعضدون آراءه السياسية والاقتصادية على أنهم مجرمون لا فرق بينهم وبين أولئك الذين يحاربونه فعلا . . . ومن هنا قامت هناك طبقة من المعتقلين السياسيين ، بالإضافة إلى طائفة من المسجونين نتيجة لخرق القوانين والأوامر الاقتصادية . . . وهناك طبقة ثالثة من المسجونين الذين يطلق عليهم اسم « المجرمين العاديين » ، وهى الطبقة التى يقول السوفييت إنها ستنقرض حتماً بقيام المجتمع الجديد . . . غير أن المشكلة العويصة التى كانت تواجه الشيوعيين هى مشكلة « المعتقلين السياسيين » ،

وخاصة أولئك الذين قاوموا الثورة . . . ولكن الاتحاد السوفيتى استطاع أن يجد حلا بسيطاً لهذه المشكلة ، فأنشأ لهم معسكرات اعتقال وضعهم فيها تحت نظام يشبه النفى الذى كانت روسيا القيصرية تعاقب به الثوريين .

وإلى جانب أولئك الذين اشتركوا فعلا فى محاربة الثورة الروسية وقت اشتعالها ، تكونت طبقة من خصوم النظام السوفيتى تضم المنشقين على الحزب البلشفى وأعضاء الأحزاب العمالية الأخرى . . . وكان قد سمح لهذه الأحزاب الأخيرة بالبقاء مدة قصيرة ، ثم رأت السلطات فى عام ١٩٢٢ أن تحد من نشاطها ، وأخيراً قررت القضاء عليها نهائياً . . . ومنذ عام ١٩٢٢ ، امتلأت أعمدة الصحف بأنباء اعتقال وسجن ونفى كثير من هؤلاء المعارضين للشيوعية — رغم أنهم كانوا من أعداء الرأسمالية — والذين كانوا أعضاء فى الأحزاب العمالية الأخرى . . .

وكان القبض قد ألقى على بعض هؤلاء فى عام ١٩٢٠ ، ولكن حركة التطهير لم تبدأ إلا فى عام ١٩٢٢ حين وصل عدد المعتقلين إلى أرقام خيالية . . . وعهد الطبع وكل إلى إدارة التشيكا وإدارة البوليس السرى السوفيتى الإشراف على هؤلاء الذين غيبتهم السجون دون محاكمة ، أن يسمح لهم حتى بالدفاع عن أنفسهم ، بل كانت تحيطهم علماً بأنهم قد خرقوا القانون

رقم كذا ولهذا فقد حكم عليهم طبقاً لهذه المادة أو تلك من قانون الجنايات . . . . وتطورت هذه الطريقة الغريبة فى معاملة المقبوض عليهم لتصبح هى الوضع الطبيعى لعدالة الاتحاد السوفيتى . . .

وهكذا حفل الاتحاد السوفيتى — منذ السنوات الأولى لتولى الشيوعيين مقاليد الأمور — بعدد ضخم من المسجونين الذين ربما تكون ظروف الحياة فى ظل القياصرة هى التى أرغمتهم إرغاماً على أن يناصبوا المجتمع العداء . . .

وكان المفروض أن يتضاءل عدد المجرمين العاديين كثيراً بعد نجاح الثورة وقيام المجتمع الجديد ، فضلا عن وجود نظام جديد للتأهيل فى قوانين العمل الجديدة .

وكان المفروض أيضاً أن يؤدى تطبيق النظام الجديد القائم على أساس من الثقافة والعمل إلى تقديم هؤلاء الخارجين على المجتمع وتعليمهم وتهذيبهم ، وخلق عناصر نافعة منهم فى بناء المجتمع الجديد ، حتى وهم لا يزالون فى مرحلة التثقيف والإعداد . . .

وفى مبدأ الأمر ، طبق نظام العقوبات هذا على المجرمين العاديين الذين أنشئت لهم سجون نموذجية ، ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان . . . فإن نسبة الجريمة لم تنخفض نتيجة لتطور ونمو النظام السوفيتى ، كما تقول النظرية الشيوعية ، بل على العكس

ازدادت نسبة الجرائم إلى حد لم يسبق له مثيل من قبل ، حتى استحال على القضاة تنفيذ أحكامهم من جراء ازدحام السجون . وفى الفترة المحصورة بين عامى ١٩٢٥ — ١٩٢٦ لم ينفذ فعلا إلا ٣٦ فى المائة مما حكم به من عقوبات .

ونظر العالم الخارجى إلى عدم الزج بالمحكوم عليهم فى السجون على أنه مثل على التحرر السوفيتى فى معالجة الجريمة وهو تحرر لم يكن قائماً بالفعل . وعلى الرغم من أن هذا قد أثبت بصورة قاطعة خطأ النظرية الشيوعية ، إلا أن الروس ظلوا لمدة ٢٥ عاماً يؤمنون بأن السجون ومعسكرات الاعتقال ليست إلا مركزاً للتأهيل والتثقيف حيث يندر استخدام العقوبات وحيث يجد المسجونون أسرّة نظيفة وطعاماً جيداً . . بل لقد كانت زيارة هذه السجون من أهم برامج السياح فى تلك الأيام !

ولقد حدث بالفعل أن تسربت بعض أنباء المعاملة الخشنة والقسوة البالغة التى تسود تلك السجون ، ولكن السلطات الروسية نفت هذا وزعمت أنه دعاية رأسمالية قصد بها الإضرار بالنظام الشيوعى . . . ومع ذلك فإن الدلائل أثبتت أن هذه الأنباء كانت صحيحة .

ولم تطبق فكرة العقاب الجديدة هذه على المسجونين السياسيين . . . إذ كان كثيرون من الشيوعيين قد نفوا بأمر حكومة القيصر حيث دأبوا فى المنفى على كتابة الكتب والنشرات

الثورية ، وتعلموا كيف يكونون من قادة الثورة . . . وحرصت الحكومة البلشفية على ألا تقع فى نفس الخطأ فحالت دون منح المسجونين السياسيين فرصة كتابة المنشورات ودراسة سبل إحداث الانقلابات .

ولهذا السبب نصت القوانين السوفيتية الجديدة على أن يعاقب أعداء الدولة السياسيون بالحبس الانفرادى لمدة لا تقل عن ثلاث سنوات على الرغم من أنه جاء فى المادة الثالثة والسبعين من الفقرة الخاصة بالجزء الأول من قانون العقوبات السوفيتى الجديد أن كل من لفق أو أذاع ، بقصد قلب نظام الحكم الثورى ، إشاعات أو معلومات خاطئة قد تثير حالة من القلق العام وتؤدى إلى عدم الثقة فى الهيئة الحاكمة أو الإقلال من هيبتها ، يعاقب بحرمانه من حريته لمدة « لا تقل عن ستة شهور » . . . وإذا لم يثبت أن هذه الإشاعات أو المعلومات الخاطئة كان القصد منها قلب نظام الحكم ، تخفض مدة العقوبة إلى « ثلاثة شهور من العمل الإجبارى » .

ومن هذا التباين فى العقوبتين المختلفتين لنفس التهمة ، يتضح أن فكرة « السخرة » أصبحت فى بداية الحكم الشيوعى جزءاً من نظام العقوبات السوفيتى . . . وهذا الذى أوردناه هو الخطوط العريضة لما كان يحدث حتى عامى ١٩٢٧ — ١٩٢٨ ولكنه تطور ونما حتى أصبح برنامجاً كاملا مخيفاً للسخرة

ولسنا نعرف على وجه التحديد عدد الذين ضمتهم السجون والمعتقلات والإصلاحيات الحديثة فى الحقبة الأولى للثورة ، غير أن عدد هؤلاء قد وصل فى الفترة الأخيرة إلى حد أدنى قدره ٨,٠٠٠,٠٠٠ عامل ووصل فى بعض الأحيان إلى حدأقصى قدره ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ .

ويستخدم هؤلاء المعتقلون فى أنواع كثيرة من الأعمال ، تتراوح بين مد السكك الحديدية واستخراج الذهب من المناجم إلى الزراعة وصيد الأسماك . . . ويشرف البوليس السرى السوفيتى على معسكرات السخرة التى يعمل معتقلوها الآن فى بناء ست محطات لتوليد الكهرباء من مساقط المياه وشق ثلاث ترع ضخمة . . . ويقدر عدد العمال اللازمين لهذه المشروعات بعشرة ملايين عامل مسخر على الأقل .

ومن هذا يبدو أن أعمال السخرة والبوليس السرى ليست ظاهرة قديمة وإنما هى حقيقة واقعة فى روسيا الآن .

الفصل الثانى

هكذا موطن السخرة . . .

١

انتهينا فى الفصل الأول إلى أن البوليس السرى السوفيتى سيحتاج على الأقل إلى عشرة ملايين من العمال المسخرين لبناء ست محطات جديدة لتوليد الكهرباء من مساقط المياه وحفر ثلاث ترع كبيرة . . . ولكن كيف نبرهن على هذه الحقيقة التى يصعب على العقل قبولها ؟ . . .

دعنا نستعرض ما أدلى به أحد الموظفين السابقين بالإدارة المركزية لمشروعات السنوات الخمس . . . ولن نستطيع أن ندلى هنا باسم هذا الرجل مخافة على أسرته التى خلفها وراءه فى الاتحاد السوفيتى وهرب فى الآونة الأخيرة . . .

ولقد استخدمت ما قاله هذا الرجل فى التقرير الذى قدمته فى ربيع عام ١٩٥٠ إلى المجلس الاقتصادى والاجتماعى التابع للأمم المتحدة نيابة عن هيئة التحقيق فى أعمال السخرة . . .

يقول الموظف الروسى السابق : حين كنت أعمل فى

مشروعات السنوات الخمس قبيل الغزو الألمانى ، كنا نعتمد على البوليس السرى ووكالاته بصفته أداة التعمير الرئيسية فى الاتحاد السوفيتى . . . ففى ذلك العام ، عهد إلى البوليس السرى وإداراته بتنفيذ ١٤ فى المائة من مجموع المنشئات اللازمة للمشروعات . . . وكانت هذه النسبة أكبر كثيراً من النسب التى عهد بها إلى الوزارات الأخرى .

ولم يكن نشاط البوليس السرى السوفيتى يقتصر على إنشاء المبانى والمعسكرات ، بل تعدى ذلك إلى إنشاء المعدات اللازمة للتعدين ، وقطع الأخشاب ، ووسائل الدفاع فضلا عن إنشاء دور الحضانة وبعض المستشفيات . . . والبوليس السرى مكلف كذلك بإنشاء كل الطرق الممهدة ذات الأهمية وصيانتها إلى جانب شبكات الخطوط الحديدية فى المناطق النائية .

وإلى جانب هذا الدور الكبير الذى يلعبه البوليس السرى كأداة تعمير ، عهد إليه بمهام اقتصادية أخرى كقطع الأخشاب واستخراج الذهب والفحم والكروم والمنجنيز والبترول ، وإنتاج بعض سلع الاستهلاك . . .

ومنذ الحرب الأخيرة ، أصبح البوليس السرى السوفيتى هو المسئول الوحيد عن إنشاء وإدارة جميع مراكز الأبحاث الذرية .

وقد أدت مشروعات السخرة التى أشرف عليها البوليس

السرى إلى إنتاج ثمن ($\frac{1}{8}$) مجموع ما أنتج الاتحاد السوفيتى كله من الأخشاب ، و ١٠ فى المائة مما أنتج من الأثاث وأدوات المطبخ ، و ٢٥ فى المائة من أعمال الشحن فى المناطق القطبية ، وأكثر من ٤٠ فى المائة من مجموع إنتاج الكروم فى الاتحاد السوفيتى .

وتدل التقديرات على أن المسخرين وحدهم أنتجوا ٧٥ فى المائة من مجموع إنتاج الذهب فى الاتحاد السوفيتى منذ عام ١٩٣٨ . . . وكلف البوليس السرى أيضاً — طبقاً لمشروعات ١٩٤١ — بإنتاج نسب معينة من الآلات والأسمنت وإدارة حقول البترول فى جمهورية « كومى » السوفيتية . . .

وقد حولت جمهورية « كومى » من منطقة لإنتاج الأخشاب إلى منطقة تعد مصدراً هاماً جديداً يزود لننجراد والجزء الشمالى من روسيا الأوروبية بالوقود . . .

وحين هاجم الألمان الاتحاد السوفيتى ، أراد بيريا — رئيس البوليس السرى السوفيتى السابق — أن يسد العجز فى إنتاج الفحم فى منطقة « دونباز » ، فحول نشاط المسخرين إلى مد خط حديدى عبر مئات الأميال من الثلوج حتى حوض نهر بكورا ، ليسهل استخراج الفحم من مناجم تلك المنطقة . . . وعند ما مدت هذه الخطوط الحديدية ، ازداد استخراج الفحم زيادة كبيرة وتحول نشاط المسخرين إلى الغابات وحقول البترول

الموجودة فى تلك المنطقة . . .

ويقبض البوليس السرى السوفيتى بيده على كافة أوجه الحياة فى جمهورية كومى — التى يعيش سكانها فى قرى صغيرة على ضفاف نهر بكورا وفروعه العديدة ، ويعتمدون فى معاشهم على القنص وصيد الأسماك وتربية الرنة . . . أما المزارع الجماعية فقوامها غالباً العائلات التى كانت تعيش فى الجنوب ثم نفيت إلى هذه المنطقة لمقاومتها مبدأ الجماعية فى أوائل عام ١٩٣٠ . . .

ومعظم السجناء فى جمهورية كومى من المعتقلين السياسيين الذين قدموا عند نهاية الحرب من لاتفيا ولتوانيا وبولندا . . . ولا يتوقع بعض هؤلاء السجناء أن يستردوا حريتهم أبداً ، كما أنه لا يسمح لكثير من الذين يفرج عنهم بالنزوح إلى المدن الرئيسية . . .

ولا يستخدم البوليس السرى النقود أو العنف فى إغراء المسجونين على العمل ، بل يستخدم غريزة الجوع . . . فمقدار ما ينتجه كل مسجون فى معسكرات السخرة هو الذى يحدد كمية الطعام التى يحصل عليها . . . أما أولئك الذين يرفضون العمل ، فيوضعون فى الحبس الانفرادى ويعطون من الغذاء الحد الأدنى . . . وقد يحصل بعض المسخرين على أجور ضئيلة لا يتسلمونها فى الغالب إلا عند ما يفرج عنهم .

ويؤدى عامل الإرغام الذى يسود مشروعات البوليس السرى

السوفيتى إلى الإقلال من جودة العمل، على أن فى ضخامة الكميات المنتجة ما يعوض عن رداءة إنتاج السخرة . . . ومن هنا يعمل البوليس السرى دائماً على زيادة الأيدى العاملة المسخرة باستخدام اللاجئين والمرحلين . . . . فى يونيه عام ١٩٤٩ مثلا ، رحل ثلاثون ألف شخص من أصل تركى ويونانى ويهودى من مناطق ساحل البحر الأسود ، للعمل فى آسيا الوسطى بعد أن تسلموا إنذاراً مدته ثلاث ساعات فقط .

وتمتاز منتجات البوليس السرى الصناعية بأنها رخيصة التكاليف جداً ، فالبوليس لا يدفع إلا أجراً ضئيلا ولا يلتزم بتقديم أية خدمات اجتماعية للملايين من المسخرين .. ولهذا أصبحت وزارة الداخلية أضخم أداة اقتصادية فى الاتحاد السوفيتى . . .

وهناك نوع آخر من السخرة حيث يحكم على بعض الأشخاص بالاستمرار فى أعمالهم العادية ولكن تحت حراسة البوليس ، وبأجور مخفضة .

ولعل سلطة التنفيذ التى يتمتع بها البوليس السرى هى الأساس الذى يقوم عليه نظام « التحكم فى العمل » فى الإتحاد السوفيتى . . . فليس من حق العامل السوفيتى أن يغير عمله أو أن يتركه كلية — كما يفعل أى عامل فى أى مكان من هذه الأرض — ولو فعل ذلك لاعتبرته الحكومة متهرباً ووقع البوليس

السرى أقصى العقاب عليه . . . وعلى هذا الأساس ، فإن العامل السوفيتى مثقل بالقيود سواء أكان سجيناً فى معسكرات السخرة الضخمة ، أو مقيداً بالمصنع الذى يعمل فيه طبقاً لقانون « تجميد الوظائف » السوفيتى . . . »

وقال هذا المصدر أيضاً إن الجزء الأكبر من إنتاج البوليس السرى مخصص لإدارات « جلافز هلدورسترورى » التى تتولى بناء السكك الحديدية ، و « جوشوسدور » التى تتولى شئون الطرق ، و « جولاج » التى تتولى أمر إصلاحات العمل . . . إذ تستخدم هذه الإدارات الثلاث الأيدى العاملة المسخرة فى مشروعاتها . . .

وتتضمن اختصاصات إدارة « جولا ج » ، بناء منشئات المناجم والمعسكرات وبعض المنازل ودور الحضانة فضلا عن إنتاج معدات الدفاع .

وتتولى إدارة « جلافز هلدورسترورى » مد الخطوط الحديدية فى المناطق المنعزلة . كما تقوم إدارة « جوشوسدور » بتمهيد وصيانة الطرق الرئيسية ، إذ أن الطرق الأقل أهمية ، من اختصاص إدارات الطرق التابعة لمجالس وزراء الجمهورية . . .

ولقد علمنا من عدة مصادر مؤكدة أن البوليس السرى السوفيتى يقوم — باستثناء أعماله فى ولايات البلطيق — بإدارة المنشئات التالية :

٧٥ من معسكرات قطع الأخشاب ومصانع الورق ... إلخ
١٦٠ منجماً للذهب والفضة والبلاتين والفحم وخام الحديد واليورانيوم والرصاص والنحاس والألومنيوم والزنك والصفيح والنيكل . . . إلخ .
٤٣ مركزاً زراعيًّا لإنتاج القطن والحبوب والخضروات والمنتجات الحيوانية .
٨٤ معسكراً ضخماً لإنشاء السكك الحديدية والموانئ والترع والطرق .
١٢ محطة لتوليد الكهرباء من المصادر المائية .
٤١ مصنعاً للمواد الكيمياوية والمنسوجات والطوب وما إلى ذلك .
١٦ محجراً .
٥ مسابك لتنقية المعادن .
١٠ مصائد ومصانع للأسماك .
٨ حقول للبترول .
٨ (على الأقل) مطارات تحت التأثيث .
— جميع عمليات الإنتاج الذرى السوفيتى .

ولا تتضمن هذه القائمة بالطبع كل الأعمال التى يشرف عليها البوليس السرى السوفيتى ، ولكنها تكفى لإعطائنا فكرة عن الدور الرئيسى الذى يقوم به فى الاقتصاد السوفيتى .

ومن الطبيعى أنه لولا أساس السخرة الذى يقوم عليه الاقتصاد السوفيتى لتقوضت أركانه تماماً ، لا لأن نظام السخرة يحمل بين طياته طاقة إنتاجية هائلة فحسب ، بل لأن هذا النظام يقضى على العناصر المعارضة فى الإتحاد السوفيتى فى نفس الوقت الذى يعمل فيه على بناء القوى الاقتصادية لهذا البلد . . .

ومن الواضح أن ملايين الأيدى العاملة المسخرة اللازمة لهذه المشروعات يجب أن تكون فى متناول اليد ، ويمكننا أن نعرف السبيل إلى ذلك إذا ما عدنا قليلا إلى الوراء لنستعرض تاريخ الاقتصاد السوفيتى .

٢

فى عام ١٩٢٨ ، بدأت السلسلة الأولى لمشروعات السنوات الخمس فى الإتحاد السوفيتى . . . وكان أول مشروع للسنوات الخمس يتضمن فرض نظام المزارع الجماعية . . . ولم يكن هذا مجرد نزوة طارئة فقد كان هذا المشروع يهدف إلى زيادة الأيدى العاملة فى ميدان الصناعة ، وشعر المسئولون بأن مشروع المزارع الجماعية سيقيم الزراعة على أساس اقتصادى سليم ، وفى الوقت نفسه سيحرر الرجال والنساء من العمل فى مساحات الأرض الصغيرة ، وبذلك يمكنهم النزوح إلى المراكز الصناعية

للعمل فيها .

ولم تكن الوسائل التى استخدمت فى فرض نظام المزارع الجماعية خالية من العيوب . . . فلقد وجد كبار الملاك ، الذين ليس من مصلحتهم بالطبع أن ينضموا إلى المزارع الجماعية ، أنفسهم يواجهون من الضرائب عبئاً كبيراً كان من المستحيل عليهم عملياً أن يحملوه . . . كما كان من المستحيل عليهم مادياً أن يؤدوا إلى الحكومة تلك النسبة الكبيرة التى تطلبها من الحبوب . وكان فشل المالك فى أداء هذه الضرائب وتسليم كمية الحبوب المفروضة عليه ، معناه أنه « عدو للدولة » ، وبالتالى يحكم عليه بالنفى .

ولم تستطع الحكومة أن تجد الكفاية من الحبوب لإطعام سكان المدن الصناعية بالرغم من الإجراءات الصارمة التى اتخذتها ضد المزارعين . . . فلقد فرضت الضرائب على قرى بأكملها ، وأرغم الفلاحون على أن يوردوا للحكومة نسبة بلغت من الارتفاع حد الاستحالة . . . وحينئذ ، بدأت حركة من المقاومة السلبية ضد الحكومة ومطالبها ، وامتنع الفلاحون عن زراعة أكثر مما يكفى لإطعامهم وحدهم . . . وجنت الحكومة لهذا الإجراء من جانب المزارعين ، فأرسلت عملاءها إلى القرى والمزارع فصادروا كميات الحبوب البسيطة التى زرعها الفلاحون لاستهلاكهم الخاص .

وكانت نتيجة ذلك ، القحط والمجاعة الشديدة التى لم يسبق لها مثيل ، مما أدى إلى وفاة مليون ونصف مليون من الأشخاص على أقل تقدير . . . وكان رد فعل الحكومة السوفيتية هو القيام بسلسلة من الاعتقالات الجماعية اجتاحت قرى بأسرها . . . وعلى هذا ، فقد كان سكان الاتحاد السوفيتى فى الحقيقة أول ضحايا نظام العمل الإجبارى فى بلادهم .

وفى مبدأ الأمر ، حشر الفلاحون فى القطارات ونقلوا إلى المناطق النائية حيث تركوا للعناية بأنفسهم بقدر ما يستطيعون . . ولم يمض وقت طويل حتى ظهر للمسئولين عقم هذا الإجراء

وكانت صناعة الأخشاب من أهم الصناعات ، إذ كانت الأخشاب هى السلعة الوحيدة المتاحة للتصدير إلى الخارج ، وكانت مشروعات السنوات الخمس فى حاجة إلى الدولارات والأسترلينى لشراء الآلات اللازمة للتصنيع من الغرب . . . ولكن إنتاج الأخشاب كان أقل كثيراً من الحد الأدنى الذى وضعه المجلس المركزى لمشروعات السنوات الخمس . . . وكانت منطقة « ارشانجيل » — التى لا تزال المركز الرئيسى للأخشاب فى الإتحاد السوفيتى — تعانى نقصاً خطيراً فى الأيدى العاملة وخاصة فيما يتعلق بقطع الأخشاب وتعويمها ، إلى جانب نقص العمال اللازمين لشق القنوات ومد السكك الحديدية . . .

وبدأت أنباء تسخير الحكومة السوفيتية للمسجونين فى

صناعة الأخشاب تتسرب إلى الخارج ، مما كاد يؤدى إلى انهيار هذا البرنامج انهياراً تاماً نتيجة لاحتجاجات الغرب . . . وفى ٨ مارس عام ١٩٣١ ، أدلى مسيو مولوتوف فى الدورة السادسة لمؤتمر مجالس السوفييت ببيان قال فيه : « علينا أن نواجه الحقائق المتعلقة بالحالة فى الأقاليم الشمالية . وعلينا أولا أن نذكر أن ١,٣١٤,٠٠٠ عامل يعملون هذا الموسم فى صناعة قطع الأخشاب وأن الظروف العادية للعمل الاختيارى تسود تلك المنطقة . . . ولم يستخدم أى نوع من السجناء فى صناعة الأخشاب ، وإن كنا لم ننف أبداً أن السجناء ذوى الصحة الجيدة التى تمكنهم من أداء الأعمال العادية يستخدمون فى بناء الطرق والمنشئات العامة الأخرى . . . وقد كنا نستخدم مثل هؤلاء السجناء فى الماضى ، ولا نزال نستخدمهم الآن ، وسنظل نستخدمهم فى المستقبل . . .

« إن استخدام السجناء على هذا النحو من صالح المجتمع عامة ، ومن صالح المسجونين أنفسهم إذ أنهم بهذا يتعودون على العمل العادى المنتظم فيخرجون من السجن أعضاء نافعين فى المجتمع .

« وأحب أن أكرر مرة أخرى أن أعمال السخرة واستخدام المسجونين لا علاقة لها على الإطلاق بصناعة الأخشاب أو بأية سلعة أخرى تعد للتصدير إلى الخارج » .

ولم يدل الرفيق مولوتوف بالحقيقة كاملة حين صرح فى بيانه هذا بأن السجناء والأيدى العاملة المسخرة لم تستخدم فى أعمال تتعلق بالصادرات ، والدليل على ذلك هو ما جاء فى تقرير « لوكالة التجارة السوفيتية » فى فبراير عام ١٩٣٠ ، بخصوص العمل فى توسيع أحواض ميناء لننيجراد كى تتسع لإيواء ١٥٠ باخرة .

قال التقرير : « وعلى كل حال لن يكون هناك أى نقص فى الأيدى العاملة ، إذ قد تعاقدنا فعلا مع ٢٥٠٠ عامل ابتداء من أول يناير . . . وقد وقعنا عقداً مع مجلس « أوسلون » (مجلس إدارة معتقلات سولوتفسكى للمهام الخاصة) على تزويدنا بأربعمائة من العمال ، فضلا عن أنه من المؤكد أننا سوف نحصل فى هذا الموسم على عدد إضافى آخر يتراوح بين ٥٠٠٠ و ٦٠٠٠ عامل » .

لقد كان مولوتوف فى ذلك الوقت ينكر استخدام العمال المسخرين فى مناطق إنتاج الأخشاب — تلك المناطق التى كانت فى الحقيقة معتقلا واحداً ضخماً . . .

وأرادت الحكومة السوفيتية أن تخمد الأصوات التى ارتفعت طالبة مقاطعة الأخشاب الروسية التى يقوم بإنتاجها العمال المسخرون ، فاتخذت إجراءات شاذة . . .

يقول جورج كتشن ، وهو بريطانى كان معتقلا حينئذ

فى منطقة إنتاج الأخشاب ، ان المشرفين على المعسكرات فى تلك المنطقة قدتلقوا تعليمات بإزالة كل أثر لمعسكرات السخرة .. ولم تمض ثلاثة أيام حتى أخليت المعسكرات ، وأزيلت الأسلاك الشائكة ، ونقل المعتقلون إلى مراكز أخرى . أما المعسكرات التى بقيت ، فقد ارتدى حراسها الملابس المدنية ، ووضعت على الثكنات الخاوية لافتات كتب عليها أنها مدارس .

لقد رحل ٣٠,٠٠٠ مسجون عن منطقة « أرشانجيل » ، وتم إخراج هذه الخدعة الكبرى فى أيام ثلاثة طبقاً للتعليمات المشددة التى أصدرها المسئولون السوفييت ، وبعدها دعى قناصل الدول ومراسلو الصحف إلى تفقد المنطقة فوجدوها آمنة وادعة يسودها السلام ، ولم يعلموا أن الغابات القريبة كانت تضم فى باطنها جثث الآلاف من المسخرين الذين أرهقهم التعب وقتلتهم الأمراض وسوء التغذية .

٣

ويتضمن التقرير الذى أصدرته « الجمعية البريطانية لمكافحة الرق» أقوال عدد من الذين هربوا من منطقة الأخشاب عام ١٩٣٠ ، وكان هؤلاء المعتقلون السابقون من أهالى أوكرانيا الذين عارضوا صراحة برنامج المزارع الجماعية . . .

وقد يقول البعض إن هذه الأقوال لا قيمة لها لأنها صادرة عن مجرمين . . . ولكن الواقع أنها – إذا غضضنا النظر عما قد تتسم به من مبالغة طفيفة – لا تخرج عن كونها الحقيقة كاملة ، إذ أن هؤلاء المعتقلين السابقين قد أتوا من معسكرات مختلفة ولم تتح لأحد منهم فرصة الاتصال بآخر قبل الإدلاء بأقواله . . . ومع ذلك جاءت أقوالهم متشابهة .

يقول أحد هؤلاء الفارين من معسكرات السخرة ، ونرمز لاسمه بحرف « ج » ، ما يأتى : « كان عملى ينحصر فى قطع الأشجار ، وعند ما وصلنا فى مبدأ الأمر إلى السكة الحديدية لم يكن العمل قد بدأ بعد . . . ولم تكن المنطقة أكثر من غابة واسعة يغطى أرضها الجليد الكثيف ، وكان المسجونون يعيشون فى الخيام فبدأوا فى بناء ثكنات ليسكنوها ، فكان على كل رجل أن يزيل الأشجار عن مائة متر مربع كل يوم . . . وكان على المعتقلين أن يقطعوا الأشجار وأن يحرقوا أغصانها . . . وكانوا يعملون فى جماعات يتراوح عدد أفرادها بين خمسة أو ثمانية تبعاً لنوع الأشجار التى تقطع .

وفى مبدأ الأمر ، حين كنت لا أزال قوياً ، كان فى استطاعتى إتمام العمل الموكول إلىّ وإن كان يستغرق منى ١٢ ساعة متوالية ، أما أولئك الذين كانوا يعجزون عن ذلك فلم يكن أمامهم إلا أن يعملوا وقتاً إضافياً أو تنقص حصة كل منهم

من الطعام — وهى تبلغ كيلوجراماً واحداً من الخبز ، فى أحسن الأحوال ، وقليل من البليلة فى الصباح ، وقليل من حساء السمك فى المساء ، لا يستساغ طعمها على الإطلاق . وكنت أؤدى عملى على الوجه الأكمل حتى أصيبت قدماى ، وعندئذ نقصت حصتى من الخبز إلى سبعمائة جرام . ووقع عدد من المعتقلين فريسة للمرض ، ولم يكن بالمعتقل طبيب أو أى نوع من أنواع الأدوية — . . وكان الذين يعانون مرضاً خطيراً ينقلون إلى بلدة « بنوجا » حيث يوجد الطبيب .

وكان الهرب مستحيلا ، فآثار الأقدام تظهر واضحة جلية على الجليد ، فضلا عن أن الحراس كانوا مزودين بالزحافات . . .

كنا ٢٥,٠٠٠ معتقلا نعمل فى مد السكك الحديدية ونسكن اثنى عشر معسكراً فى مناطق متفرقة يقوم على مراقبتها حراس مسلحون .

وكان الذين يعملون دون تذمر يتركون وشأنهم فى أغلب الأحيان حتى ولو لم يتموا الأعمال الموكولة إليهم ، أما الذين يشكون لأى سبب فقد كانوا عرضة لأن يقتلهم الحراس فى الغابة متذرعين بأنهم حاولوا الهرب . . . والحقيقة أننى لم أشهد الحراس بنفسى يقتلون أحد المعتقلين على هذا النحو ، ولكننى كنت أعرف جماعة أشد سخطاً من المعتقلين الآخرين ، أرسلت لقطع الأخشاب فى منطقة نائية وقيل إن الرصاص قد أطلق على أفرادها جميعاً . . . ولم يعد منهم أحد على كل حال .

وكان الحراس جميعاً من الروس ، كما كان من بينهم بعض المسجونين العاديين السابقين الذين يعتنقون الشيوعية .

وعند ما وصل المسجونون إلى المعتقل ، وضع من كانوا منهم أعضاء فى الحزب الشيوعى فى أماكن خاصة وعهد إليهم بوظائف إدارية أو بحراسة المعتقلين الآخرين ، كما زودوا بالملبس والمأكل واسكنوا فى أماكن خاصة ، وإن كانوا قد ظلوا معتقلين من درجة خاصة .

ولم يكن ينال الذين يؤدون أعمالهم على الوجه الأكمل شىء من العقاب ، وإن كان قد حكم على بعضهم بالحبس الانفرادى أو بالضرب ولو أننى لم أشهد ذلك بنفسى . . .

وكان المعتقلون يخشون الحبس الانفرادى كثيراً ، إذ كانت تنزع عنهم كل ملابسهم الثقيلة ويتركون دون طعام مدة يومين أو ثلاثة . . . ولقد روى لى عدد من زملائى المعتقلين كيف كانوا يعاملون أسوأ المعاملة حين حكم عليهم بالحبس الانفرادى .

ولم تكن حوادث الوفاة كثيرة الوقوع فى المنطقة التى كنت أعمل فيها ، إذ كان معدلها ثلاث وفيات فى الأسبوع ، فى حين كانت تقع بمعدل مرة فى اليوم فى منطقة بنوجا حيث كان المعتقلون أضعف بنياناً . . . وقد شهدت بنفسى الظروف السيئة التى تسود تلك المنطقة حين أرسلت إلى هناك لمد سلك تليفونى .

وبعد مضى ثلاثة شهور ، وصل إلى أرشانجيل عدد كبير من البواخر جاءت لشحن الخشب ، فجمع كل القادرين على طول الخط الحديدى وأرسلوا لشحن هذه البواخر . . .

وبلغ عدد الذين جمعوا فى المنطقة التى أعمل بها ٥٥٠ معتقلا وأرسلوا إلى أرشانجيل بالقطار . . . »

ويقول شاهد آخر ، ونرمز إليه بحرف « ف » ، إنه أمضى ثمانية عشر شهراً فى مزرعة للسخرة وشهوراً أخرى فى أحد سجون أوكرانيا الجنوبية ثم أرسل إلى أحد معسكرات الشمال . . . وكان المعتقل يضم ٣٠٠ شخص يعيشون فى ثكنات خشبية ، وكان على القادمين الجدد أن يعيشوا فى الخيام حتى يبنوا ثكناتهم بأنفسهم .

يقول الشاهد « ف » : لم تصرف لنا أغطية . وكنا مضطرين إلى النوم على ألواح من الخشب ، وقد تسلم بعضنا معاطف كتلك التى يلبسها الجنود ، غير أن الغالبية كانت ترتدى ملابسها الخاصة . . . وعهد إلينا بتقطيع الأشجار ونشرها إلى شرائح من الخشب ، وقسمنا إلى جماعات تتكون كل منها من أربعة أفراد . . وكان على كل جماعة أن تقطع الأشجار ، وتزيل عنها الأغصان والفروع ، ثم تقطعها إلى ألواح طويلة من الخشب وتكدس هذه الألواح فى أكوام . . . وكان العمل اليومى ينحصر فى تكوين كومة من الخشب حجمها ٤٥٠ قدماً

مكعبة . . .

وكان نصيب كل منا من الغذاء ثلاثة أرطال من الخبز فى اليوم إذا أتم العمل على الوجه الأكمل ، وإلا خفض مقدار الخبز إلى رطلين فقط .

وكان العمل يبدأ منذ شروق الشمس وينتهى عند ما يتم إنتاج الكمية المطلوبة ، أو إذا حال الظلام دون الاستمرار فيه... ولم تكن تتخلل وقت العمل فترات للراحة أو للغذاء... وكنا نعطى فى الصباح حوالى أربع أوقيات من البليلة ونعطى عند عودتنا نصيبنا من الخبز ونصف لتر من الحساء .

وكانت ظروف المعيشة غاية فى السوء ، وكنا ننام على ألواح من الخشب ولم يكن لدينا ما نتدثر به وكان المعسكر يضم حوالى ثلاثمائة معتقل يشرف عليهم طبيب واحد له مساعد واحد ، وكانت الأدوية غاية فى الندرة مما أدى إلى إصابة الكثير منا بالاضطرابات الداخلية وبمرض الأسقربوط ، وتوفى بعض الرجال وإن كنت لا أعرف عددهم . . . ولقد وصل معى إلى المعسكر خمسة وعشرون شخصاً لم يبق منهم على قيد الحياة حين غادرتهم إلا ستة عشر ، ومات التسعة نتيجة للبرد والجوع .

وأثناء وجودى فى المعتقل ، أطلق الحراس الرصاص على ثلاثة أشخاص كانوا يرتدون ملابس ثقيلة ، وزعموا أنهم حاولوا

الهرب وسلبوهم ملابسهم . . . وكان على زملاء كل من هؤلاء القتلى أن يؤيدوا فى التحقيق أقوال الحراس وإلا قتلوا بنفس الطريقة . . . وكان الحراس جميعاً ينتمون إلى فرقة التشيكا .

ومرضت بالأسقربوط بعد أن قضيت سنتين فى المعتقل ، وكنت عاجزاً عن السير فأرسلت إلى سولوفكى بالباخرة حيث نقلت إلى مستشفى مؤقت كان يضم ثلاثين آخرين . . . وانقضت ستة أيام دون أن نجد أى نوع من الرعاية الطبية . . . وكان نصيب كل منا من الغذاء فى هذه المدة خمسة أرطال من الخبز وطبق من الحساء كل يوم . . . وفى اليوم السابع ، جاء الطبيب ووضع علامة أمام اسمى وأسماء خمسة آخرين قائلا إنه يجب نقلنا إلى « الياما » (الحفرة) لأنه لا سبيل إلى شفائنا . . . وكنا جميعاً نعرف أن من يذهب إلى « الياما » سيكون مصيره التخلص منه ودفنه . . . وحاولت أن أقنع الطبيب بأنى لم أكن احتضر وأننى سأشفى ولكنه لم ينصت إلى . . . . وفى ظهر اليوم نفسه ، أتى أحد المسجونين ممن عهد إليهم بنقل الحالات الميئوس منها إلى « الياما » ، ليخبرنى أن طرداً قد وصل باسمى يحتوى على طعام وملابس وأغطية . . . وسألنى الطبيب ما إذا كنت أرغب فى أن أبيعه الأغطية التى سأتسلمها ، فمنحته إياها مجاناً إلى جانب بعض الأغذية ، إذ لم تكن بذات فائدة لى وأنا ذاهب إلى الموت . . .

وسر الطبيب بهديتى غاية السرور وأخبرنى أنه سيبعث بى إلى مستشفى فى « كيم » ، فإذا سألنى أحد كيف وصلت إلى هناك أجبته بأننى ابن عم الطبيب . . . ونقلت فى الليلة نفسها بالباخرة إلى مستشفى كيم حيث قضيت أسبوعين . . . وكان الغذاء فى المستشفى طيباً فلم ألبث حتى تماثلت للشفاء . . . »

ويقول نفس المعتقل السابق « ف » ، إنه تسلم أثناء إقامته فى المعتقل طردين سمح له بالاحتفاظ بمعظم محتوياتهما ، غير أن الحراس كانوا يصادرون النقود ويستولون على نصف ما يحتويه الطرد من الزبد . . .

أما المعتقل « ج » ، الذى أوردنا شهادته قبلا ، فكان قد بعث به إلى أرشانجيل ليعمل فى شحن السفن الأجنبية بالأخشاب وهو يروى لنا مشاهداته قبل هربه فيقول :

« عند ما وصلنا إلى محطة السكة الحديدية بأرشانجيل ، نقلنا إلى النقطة رقم ٢ — وهى مركز عام لتوزيع المسجونين — ومنها إلى النقطة رقم ٢١ التى تتكون من أربعة « صنادل » مربوطة إلى إحدى الجزر . . . وكان الطعام يماثل ذلك الذى كنا نحصل عليه قبلا من حيث الكمية والنوع . . . وكنت أحاول دائماً أن أعمل بالقرب من البواخر إذا كنت أنتوى الهرب . . .

وكان العمل يتوقف على حجم الأخشاب والمسافة التى يجب نقلها عبرها . . . وكان هناك سجل لقيد ما ينقل من جذوع

الأشجار ، فإذا لاحظ الحراس أن أحد المسجونين يستطيع أن ينجز من العمل أكثر مما يوكل إليه أداؤه فى ١٢ ساعة ، زيد عمله حتى لا يجد وقتاً للفراغ . . . وكان الحراس يحوطون الجزيرة وكانت أوامرهم تقضى بإطلاق الرصاص على كل من يحاول الهرب أو يبدو منه أنه يزمع أن يهرب . وكان على كل منا أن يعمل اثنتى عشرة ساعة متوالية لا تتخللها فترة واحدة للراحة ، كما لم يكن مسموحاً بأية عطلة باستثناء يوم أول مايو حين يصرف لكل سجين نصف رطل من الخبز الأبيض . . .

وحتى بعد انتهاء ساعات العمل ، كان علينا أن نقف فى صفوف طويلة للحصول على جراياتنا ، وكان بين السجناء كثير من رجال الكنيسة الذين لم يكن يسمح لهم بالصعود إلى السفن الأجنبية ، وكان يوكل إليهم تنظيف الخشب . . .

وكان بعض السجناء يعجزون عن إتمام العمل المعهود به إليهم ويسقطون تحت ثقل الأخشاب التى يحملونها ، فيضربهم الحراس كما حدث لى مراراً . . . أما إذا عجز السجين عجزاً تاماً عن العمل وضع غالباً فى الحبس الانفرادى حيث مات كثيرون . . . وكان السجناء عامة يعتقدون أنهم معتقلون إلى أجل معلوم وأن السلطات لا تنوى أن تدعهم فى غياهب الاعتقال حتى تنقضى مدة العقوبة . . .

وكان فى منطقة بنوجا معسكر للمسنين والعاجزين من

الرجال ، لكننى لست أعرف الأساس الذى يقوم عليه هذا المعسكر . . . وأعتقد أنه كان فى النقطة رقم ١٩ فى أرشانجيل معسكر من نفس النوع يرسل إليه ضعاف البنية . . .

ولم أر بنفسى سجيناً يطلق عليه الرصاص ، كما لم أصب بمرض فعلى باستثناء التواء قدمى التى لم أكن أقوى على الوقوف عليها ، على أنه كان لزاماً على أن أستمر فى عملى على رغم هذا ، فلما قل إنتاجى قل معه نصيبى من الخبز إلى سبعمائة جرام .

ومبلغ علمى أن العمل الوحيد غير المسخر ، كان ذلك الذى يقوم به قليل من خبراء فرز الأخشاب ، وكان منهم فى المنطقة التى كنت أعمل فيها اثنان أعرف أنهما يمارسان عملا حراً لكننى لم أعرف مقدار الأجر الذى كانا يحصلان عليه . . . ولم يكن أحد غيرهما يحصل على أجر ما .

وينص القانون السوفيتى على أن المدة التى يقضيها السجين فى معسكرات السخرة يجب ألا تقل عن ثلاث سنوات وألا تزيد على عشر . . . ولا تصدر أحكام تزيد مدتها على عشر سنوات كما أن أقصى العقوبة هو الإعدام رمياً بالرصاص .

ولم يكن معنا كثير من الشيوعيين ، ولكن الموجودين منهم كانوا سجناء عاديين أى مجرمين فعلا ، ولم يكونوا يقومون بنفس الأعمال التى يقوم بها المسجونون السياسيون ، إذا كان يعهد إليهم إما بالحراسة أو بأعمال إدارية .

ولم يحدث طوال الوقت الذى قضيته معتقلا ، أن أفرج عن أحد المعتقلين لانتهاء مدة عقوبته ، بل على العكس كان السجناء الجدد يفدون إلينا بين آونة وأخرى . . .

إننى أعتقد أن السبب الحقيقى لاعتقالى ومن هم على شاكلتى ، هو أن الدولة كانت فى حاجة إلى مزيد من الأيدى العاملة بغية دفع عجلة مشروعات السنوات الخمس » . . .

ولعل الملاحظة الأخيرة هى أدق الملاحظات التى أدلى بها الشهود الفارون من معسكرات السخرة وأقربها إلى الحقيقة . . . وسنبين فى الفصول القادمة ماهية الدور الرئيسى الذى تقوم به وكالات البوليس السرى السوفيتى المختلفة فى تنفيذ مشروعات السنوات الخمس . . . ولذا فلنستعرض هنا بعض نواحى قانون الجنايات السوفيتى وقانون « العمل الإصلاحى » فى الاتحاد السوفيتى .

٤

جاء فى دائرة المعارف السوفيتية التى صدرت فى عام ١٩٣٥ ما يأتى :

« لقد حلت مؤسسات العمل الإصلاحى السوفيتى — منذ الأيام الأولى لديكتاتورية البروليتاريا — مشكلة إصلاح المجرمين

إصلاحاً حقيقياً طبقاً لمبادئ لينين الخاصة بإصلاح من يرجى صلاحه . . . وقد أصبح حل هذه المشكلة حقيقة واقعة بدخول الاتحاد السوفيتى فى حظيرة الاشتراكية ، وقد أصبح من المستطاع ، عند نهاية مشروع السنوات الخمس الأول ، زيادة إجراءات « العمل الإصلاحى » إلى حد كبير بفضل القضاء نهائياً على البطالة فى الاتحاد السوفيتى ، وبفضل بناء هيكل صرح الاشتراكية الذى يتطلب دائماً مزيداً من الأيدى العاملة »

وتدلنا هذه الفقرة بوضوح على مدى الدور الذى يلعبه العمل المسخر فى اقتصاديات الاتحاد السوفيتى . . . وجدير بالملاحظة أن هذا الفصل فى دائرة المعارف قد كتب عام ١٩٣٥ ، أى قبل حدوث حركات التطهير الواسعة النطاق . وكان الرفيق دورمانوف ، كاتب المقال ، صريحاً حين قال : « إن الانتصارات الباهرة التى أحرزتها الاشتراكية فى سائر الجبهات ، جعلت فى الإمكان زيادة الانتفاع بعمل المجرمين فى بناء الاشتراكية حتى يصبحوا آخر الأمر عمالا كادحين فى سبيل المجتمع الاشتراكى. وقد أصبح فى الإمكان أيضاً ، فى المرحلة الحالية ، البدء فى إعادة تثقيف العناصر المنحرفة من الطبقات المعادية وذلك بصهرها فى « بوتقة الاختبار » التى تنحصر فى انتزاع هذه العناصر من طبقتها وعزلها ثم إرغامها على العمل ! ! !

ولعل أبلغ دليل على نجاح سياسة العمل الإصلاحى

السوفيتية ، هو حفر قناة « ستالين » التى تربط بين البحر الأبيض (الشمالى) وبحر البلطيق ، حيث درب عشرات الألوف من السجناء على العمل وعاداته ، فبرهن كثيرون على بطولتهم ، ومنحت الحكومة السوفيتية أوسمة لبعضهم .

وكان نتيجة لهذا الإصلاح الذى أشرف عليه رجال البوليس السرى السوفيتى ، أن أطلق سراح ١٢,٥٠٠ من المجرمين بعد إتمام حفر القناة على أساس أنهم قد أصلحوا تماماً وأصبحوا أعضاء نافعين فى المجتمع . . . وصدر العفو عن ٥,٥٠٠ مجرم بذلوا نشاطاً فائقاً فى إتمام القناة ، كما صدر مرسوم من اللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفيتى ، يقضى بإعادة الحقوق المدنية إلى ٥٠٠ مجرم مكافأة لهم على إنكار الذات فى عملهم . »

والظاهر أن الرفيق دورمانوف قد نسى أن يقرر أن المسجونين الذين إستخدموا فى حفر قناة ستالين قد بلغ عددهم مائة وسبعة وعشرين ألفاً .

وكتب دورمانوف فى فصل آخر من دائرة المعارف السوفيتية يقول إن قانون العمل الإصلاحى « الذى صدر فى السنوات الأولى لفترة التعمير ، قد أصبح غير سار فى السنوات التالية . . فقد ثبت أنه لا يتناسب وسياسة العمل الإصلاحى فى الوقت الذى اتسع فيه المجال لاستخدام هذا العمل الإصلاحى اتساعاً

عير محدود ، وذلك بدخول الاتحاد السوفيتى إلى مرحلة الاشتراكية»

وهكذا يصرح لنا مصدر موثوق به أن معسكرات العمل « الإصلاحى » على صلة وثيقة بالأهداف الاقتصادية لمختلف مشروعات السنوات الخمس .

وإذن ، فمن أين وكيف تحصل إدارات البوليس السرى السوفيتى على القوى العاملة الكافية لتمكنها من القيام بدورها فى مشروعات السنوات الخمس ؟ ؟ إننا قد نجد على الأقل بعض الجواب فى كل من قانون الجنايات وقانون « العمل الإصلاحى » . . . وليس من الصعب فى الاتحاد السوفيتى أن يصبح المرء مجرماً أو عدواً للدولة أو على الأقل من ضحايا البوليس السرى .

تنص المادة الثامنة والخمسين من قانون الجنايات ، وهى الخاصة « بجرائم الثورة » على ما يلى : « يعتبر عملا عدائياً ضد الثورة كل عمل قصد منه قلب ، أو إضعاف ، أو تحقير سلطات مجالس سوفييت العمال والفلاحين ، أو حكومات العمال والفلاحين التابعة لإتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية للجمهوريات الاتحادية والمستقلة ، المنتخبة بواسطة مجالس السوفييت طبقاً لدستور الإتحاد السوفيتى ودساتير جمهوريات الاتحاد — أو قصد منه تهديد الأمن الخارجى للاتحاد السوفيتى وتحقير ما حققته ثورة الطبقة العاملة من أهداف أساسية

فى الميادين الاقتصادية والسياسية والقومية »

وهكذا ، إذا انتقد أحد العمال أى عمل اقتصادى وكل إليه ، أمكن بسهولة أن يفسر انتقاده هذا بأنه نشاط معاد للثورة . . . كما أن أى نقد يوجه إلى الحزب الشيوعى يمكن تفسيره على أنه « محاولة لإضعاف الأهداف السياسية التى حققتها ثورة الطبقة العاملة أو تحقيرها » وهو كذلك نشاط معاد للثورة .

وبما أن الحزب الشيوعى هو الحزب الشرعى الوحيد فى الاتحاد السوفيتى ، فإن أية محاولة لإنشاء حزب آخر تعد من النشاط المعادى للثورة . وهذا واضح فى المادة ١٢٦ من الدستور السوفيتى التى تقول . . . : « رعاية لمصالح الكادحين ، ورغبة فى تنمية حاسة التنظيم والنشاط السياسى بين جماهير الشعب ، تؤكد حق مواطنى الاتحاد السوفيتى فى الاشتراك فى منظمات عامة — كنقابات العمال (تلك التى تنظمها الدولة فقط) والمنظمات التعاونية ومنظمات الشباب ومنظمات الدفاع والرياضة ، والجمعيات العلمية والفنية والثقافية (وكل منها تنظمها الدولة) كما أن من حق أكثر المواطنين نشاطاً وأكثرهم وعياً سياسياً فى صفوف الطبقة العاملة والطوائف الأخرى من الشعب الكادح ، الانضمام إلى الحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى (البلشفى) ، الذى يعد طليعة الكادحين فى الكفاح فى سبيل تقوية وتنمية

النظام الاشتراكى الذى يعد القلب الأساسى لكل منظمات الشعب الكادح سواء كانت عامة أو خاصة » .

وهكذا يحدد الدستور السوفيتى الوضع المركزى للحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى ، وبما أن هذه المادة تصف الحزب الشيوعى بأنه « القلب الأساسى لكل منظمات الشعب الكادح سواء كانت عامة أو خاصة » ، فإن النقد إذا وجه للحزب الشيوعى يعتبر خرقاً للقانون بحق ، وقد ورد هذا فى الجزء الأول من المادة ٥٨ من قانون الجنايات .

وتعرض المادة نفسها لحالات هرب أفراد القوات المسلحة إلى الخارج . . . ومن الغريب أنها تقضى بعقوبات على أفراد أبرياء تماماً فتنص على أنه : « فى حالة هرب أحد أفراد القوات المسلحة إلى الخارج ، سواء عن طريق البر أو الجو ، يعاقب أفراد عائلته البالغين إذا ساعدوه بأية وسيلة كانت على ارتكاب هذه الخيانة ، أو الاستعداد لها ، أو حتى إذا كانوا يعلمون بانتوائه ارتكابها ولم يبلغوا السلطات بذلك — يعاقبون بحرمانهم من حرياتهم لفترة أقلها خمس سنوات وأقصاها عشر ، وبمصادرة جميع ممتلكاتهم . . . أما بقية البالغين من أعضاء أسرة الخائن وأولئك الذين كانوا يعيشون معه أو كان يعولهم وقت ارتكاب هذه الجريمة ، فهم معرضون للحرمان من حقوقهم الإنتخابية ولنفيهم « إلى مناطق سيبريا النائية لمدة خمس سنوات » .

وأدلى مستر كورلى سميث ، مندوب المملكة المتحدة ، فى المجلس الاقتصادى والاجتماعى لدى انعقاده فى جنيف فى صيف عام ١٩٥٠ ، ببيان جاء فيه : « المعروف منذ وقت طويل أن العقوبات الصارمة توقع على الأبرياء من أقارب الهاربين من الاتحاد السوفيتى ، ولكن المرء بالرغم من ذلك لا يسعه إلا أن يصدم إذ يرى هذه الحقيقة مكتوبة ببساطة فى بيان رسمى تصدره وزارة العدل السوفيتية فى نفس الوقت الذى يقوم فيه مستر بافلوف ، السفير السوفيتى ، بالخطابة يومياً فى موضوع حقوق الإنسان فى الجمعية العامة للأمم المتحدة المنعقدة فى باريس » . . .

وتبدأ المادة ٥٩ من قانون الجنايات بعبارة غامضة أخرى تعالج موضوع الجريمة وهذا هو نص المادة :

« أى عمل — وإن لم يكن يهدف بطريق مباشر إلى قلب نظام الحكم السوفيتى وخلع حكومة الفلاحين والعمال — يؤدى إلى تعكير صفو الاقتصاد القومى أو أعمال مصالح الحكومة وتصحبه مقاومة مصالح الحكومة أو عرقلة نشاطها بالامتناع عن طاعة القوانين أو بأى نشاط آخر مما يؤدى إلى إضعاف قوة الحكومة وساطانها ، يعتبر جريمة ضد نظام الحكم . . . أما الجرائم الموجهة ضد نظام الحكم والتى لم يقصد منها قلب حكومة الثورة والتى تهز أركان إدارة الدولة والقوى الاقتصادية

للاتحاد السوفيتى والجمهوريات الاتحادية تعتبر جرائم ذات خطر خاص على الاتحاد السوفيتى » وينص جزء آخر من نفس المادة على أنه :

« إذا نقض أحد عمال النقل نظام العمل (مخالفة قواعد المرور وعدم إصلاح القطارات والخطوط كما يجب . . . إلخ) بطريقة أدت ، أو كان من الممكن أن تؤدى ، إلى تخريب أو تحطيم وسائل النقل والخطوط الحديدية أو إلى حوادث تودى بالأرواح أو تأخير القطارات أو البواخر عن مواعيدها المقررة أو تجميع عربات النقل الفارغة فى مناطق شحنها أو منع سيارات النقل أو السفن من الشحن أو عمل آخر يؤدى إلى عرقلة خطط نقل البضائع التى وضعتها الحكومة أو إلى تهديد نظام المرور وسلامته ، عوقب بحرمانه من حريته لمدة لا تزيد على عشر سنوات . فإذا كانت هذه الأعمال ذات صفة تخريبية واضحة تصادر الدولة كل أمواله مع تطبيق أقصى إجراء للدفاع الاجتماعى (وهو الإعدام رمياً بالرصاص) » .

وتوضح لنا هذه المقتطفات من قانون الجنايات السوفيتى ، مدى العلاقة بين التدابير السياسية والاقتصادية كما توضح لنا السهولة فى إمكان تأويل السلوك البرىء أو السهو الإنسانى على أنه عمل غير مشروع . وليس هذا كل ما فى الأمر . . .

فقد أصدر مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفيتى فى

٢٦ يونية عام ١٩٤٠ مرسوماً ينص على إدانة العامل السوفيتى للامتناع عن العمل ، إذا تسبب فى ضياع أكثر من عشرين دقيقة من وقت العمل بالتأخير فى الوصول أو التبكير فى الخروج أو إطالة الفترة المخصصة لتناول الغذاء ، أو إذا ارتكب أيا من هذه المخالفات ثلاث مرات فى شهر واحد أو أربع مرات فى شهرين متتاليين ، حتى ولو كانت فترة الوقت المفقود فى كل حالة تقل عن عشرين دقيقة . . . والامتناع عن العمل فى الاتحاد السوفيتى جريمة يعاقب عليها بمدة أقصاها ستة شهور من « العمل الإصلاحى » فى محل عمل المذنب ، كما تتضمن العقوبة فى العادة تخفيض الأجر بمقدار يزيد على ٢٥ ٪ من قيمته الأصلية .

وإذا اعتقد أحدهم أن نظام القضاء السوفيتى يشبه نظام القضاء فى الغرب حيث توجه التهمة ويحاكم المتهم أمام هيئة من المحلفين بعد أن يستخدم حقه فى الدفاع عن نفسه ، فليقرأ الدستور السوفيتى وقانون العقوبات وقانون العمل الإصلاحى ليتبين مدى خطئه .

إن المادة الثالثة من الدستور السوفيتى تنص على أن : « تنظر القضايا المعروضة على كل المحاكم فى الاتحاد السوفيتى فى جلسات علنية إلا إذا نص القانون على غير ذلك ، كما أن من حق المتهم أن يوكل من يدافع عنه » . . . ولا تطبق عبارة

« إلا إذا نص القانون على ذلك » على المحاكمات العلنية فقط ، بل تطبق أيضاً على حق المتهم فى توكيل محام للدفاع عنه . . .

ولم تهيأ لأى المتهمين فى قضايا الترحيل التى تحدثنا عنها فى الفصول السابقة ، الفرصة للدفاع عن نفسه بتوكيل محام ، أو حتى لنظر قضيته فى جلسة علنية . . . بل على العكس من ذلك ، فى أغلب الحالات لم يكونوا يعلمون شيئاً عن التهم التى قبض عليهم من أجلها حتى يطلعهم رجال البوليس السرى على الأحكام التى صدرت عليهم .

والغريب أن هذا كله يعتبر من الأمور القانونية المشروعة فى القضاء السوفيتى ، إذ تنص القوانين على تشكيل مجلس خاص له سلطة النظر فى هذه الحالات ، فى حين لا تذكر ما يتعلق بحقوق المتهم فى معرفة التهمة الموجهة إليه أو فى توكيل محام للدفاع عنه .

وأهم ما يمكن أن نستنتجه من كل هذا هو أن حقوق الفرد فى ظل الديكتاتورية السوفيتية تحدد طبقاً لرغبات الدولة وسياستها فى وقت معين . . . فالقوانين تتغير بل ويتغير تطبيقها بتغير موقف الحكومة السوفيتية السياسى ومشروعاتها الاقتصادية . وبهذا أصبح لعبارة « فلتكن كل القوى مجمعة فى أيدى مجالس السوفييت » . معنى آخر غير الذى كان لها عام ١٩١٧ أيام الثورة .

٥

تنظم معسكرات السخرة تنظيما دقيقاً طبقاً لقانون العمل الإصلاحى الذى يخيل للمرء من اسمه أنه قانون تقدمى متحرر .. وقد كرر كثير من المتحدثين بلسان الحكومة السوفيتية نفى أن العمل الإصلاحى معناه السخرة فى العمل ، ومع ذلك فقد نشرت دائرة المعارف السوفيتية فصلا بعنوان « السخرة فى العمل » جاء فيه : « أن السخرة فى العمل هى إحدى العقوبات الرئيسية التى نص عليها قانون الجنايات الاشتراكى السوفيتى . وتتلخص السخرة فى العمل فى أن يرغم المحكوم عليه على أداء عمل ما تعهد إليه به إحدى وكالات العمل الإصلاحى ، أو يستمر المحكوم عليه فى أداء عمله العادى الذى كان يمارسه قبلا — وفى كلتا الحالتين يخفض أجره بنسبة لا تزيد على ٢٥ فى المائة . . . وليست هناك أية قيود مفروضة على المحكوم عليه فى الوقت الذى يتبقى بعد أدائه عمله » .

وليس هناك شك فى أن ما عناه السوفييت هو عقاب المحكوم عليهم وليس إصلاحهم وتعليمهم ، كما أنه لا شك هناك فى أن العمل « سخرة » وليس « عملا إصلاحياً » . . .

ولنعد مرة أخرى إلى « قانون العمل الإصلاحى » الذى سنسميه منذ الآن ، وبحق ، « قانون السخرة » ، لنجد أنه ينص بجلاء على أن هناك وسيلتين للحكم على الأفراد بالعمل الإصلاحى — حكم تصدره إحدى المحاكم ، أو مرسوم تصدره هيئة إدارية .

وتنص الفقرة ١٢٩ على أن « مهمة الإشراف العام على العمل الإصلاحى وإدارته من اختصاص « القوميسارية السوفيتية للعدل » . . . وفى ٢٧ أكتوبر عام ١٩٣٤ ، وافقت اللجنة التنفيذية المركزية ومجلس مندوبى الشعب بالاتحاد السوفيتى ، على نقل اختصاص شئون العمل الإصلاحى من وزارات العدل الجمهورية إلى البوليس السرى السوفيتى .

وهكذا ، أصبح البوليس السرى يسيطر تماماً على نظام السخرة ، فما هى إذن السياسة التى يتبعها هذا البوليس للقيام بمهامه فى هذا الخصوص ؟ إن الفقرة الثانية من قانون السخرة تقول ان هذه السياسة هى « إعادة تثقيف المحكوم عليهم وتكييفهم طبقاً لظروف المجتمع العامل ، بواسطة توجيه أعمالهم إلى غايات اجتماعية مفيدة ، وبتنظيم هذه الأعمال على أساس التقارب التدريجى بين السخرة والعمل الاختيارى الذى يقوم على أساس التنافس الاشتراكى » .

ويلاحظ أن كلمة « السخرة » قد استخدمت فى هذه

الفقرة بدلا من « العمل الإصلاحى » .

وتنص الفقرة ١٠١ من القانون على أن هناك أربعة طرق لتوجيه السخرة نحو « غايات اجتماعية مفيدة » ، هى :

« الأشخاص المحكوم عليهم بالنفى والعمل الإصلاحى يقومون بالأعمال التالية :

(ا) تأجيرهم للعمل فى المؤسسات والمنشئات الحكومية والتعاونية والاجتماعية على أساس عقد بين المؤسسة أو المنشأه كطرف أول وبين منظمات السخرة كطرف ثان .

(ب) تشغيلهم فى منشئات أنشأتها منظمات السخرة خصيصاً لهذا الغرض .

(ج) تشغيلهم فى أعمال جماعية ينظمها عقد بين منظمات السخرة وبين الدولة أو الجمعيات التعاونية .

(ء) تشغيلهم فى مستعمرات الأعمال الجماعية .

وهذا معناه فى كلمات أخرى أن البوليس السرى السوفيتى يستطيع ، بل ويقوم فعلا ، بالتعاقد على تزويد مختلف الصناعات والجمعيات التعاونية والمنظمات الأخرى بالعمال المسخرين .

والواقع أن البوليس السوفيتى فى كثير من المناطق هو المصدر الوحيد للأيدى العاملة لبعض الصناعات والمنشئات . . . ويتسلم البوليس السرى بالطبع أجراً من هذه الصناعات التى يتعاقد

على توريد العمال إليها ، وليس هذا معناه أن يطلق سراح العمال حينئذ لمباشرة أعمالهم التى حددت لهم ، بل إن معناه أن البوليس السرى يتعاقد ، نظير أجر معين ، على إتمام العمل مستخدماً فى ذلك عماله المسخرين . . . وتدل على هذا الفقرتان (ا ، ج) أما الفقرتان (ب ، ء) فتدلان على أن البوليس السرى يقوم بنفسه بتنفيذ بعض المشروعات لحسابه بدلا من تنفيذها لحساب الصناعات أو المنشئات الأخرى .

وفى خلال مشروعى السنوات الخمس الأولين ، كانت السلطات السوفيتية تتباهى بأن « الرواد » يقومون ببناء مدن بأكملها فى المناطق القاحلة النائية فى شمال الاتحاد السوفيتى وصحاريه ... وقد حاول السوفييت بهذا إقناع العالم بأن هناك حركة تدفق اختيارية نحو هذه المناطق غير المأهولة ، تماماً كما كان يفعل الرواد الأمريكيون ، ولكن الواقع غير ذلك ، فقد تكونت هذه القرى والمدن الجديدة نتيجة للاعتقالات الجماعية ونفى آلاف المقبوض عليهم إلى هذه المناطق النائية التى أرغموا على تعميرها تحت إشراف إدارات البوليس السرى السوفيتى .

الفصل الثالث

كنت عبداً ! !

ويحسن بنا بعد هذا العرض القصير لقوانين الاتحاد السوفيتى ولبيان أهمية الدور الذى يلعبه البوليس السرى فى الاتحاد السوفيتى أن نستعرض معنى هذا فى ميدان القيم الإنسانية . . .

وسنقتطف فيما يلى جزءاً من الشهادة التى تقدم بها الدكتور جرس جليكزمان إلى اللجنة الخاصة بالتحقيق فى أعمال السخرة فى فبراير عام ١٩٤٩ .

وكان الدكتور جليكزمان أخاً غير شقيق لمسيو فيكتور ألتر ، الزعيم الاشتراكى اليهودى البولندى ، وقد ذهب ألتر إلى الاتحاد السوفيتى آملا فى أن يحصل على بعض العون لاشتراكى بولندا فى كفاحهم ضد الغزاة النازيين ، ولكن السلطات السوفيتية أمرت بإعدامه هو وزميله هنريخ أرليخ بحجة تعاونهما مع النازى . ولم يكن جليكزمان يعرف شيئاً عن مصير أخيه ، وحسب أيضاً أن الشيوعيين سينظرون بعين التقدير إلى الاشتراكيين البولنديين الذين كانوا مشتبكين فى صراع مع الفاشيين ،

فذهب إلى الاتحاد السوفيتى حيث حكم عليه بالعمل فى أحد معسكرات السخرة .

« كان الظلام حالكاً . فظللت حيث ألقى بى ، وقد تكدس حولى خمسون غريباً من مختلف الأعمار والأجناس . لقد كنت واحداً من آلاف السجناء الذين كدسوا فى قطار طويل أخذ ينهب الأرض نهباً نحو معسكرات « العمل الإصلاحى » الغامضة .

« وكنت فى شبابى أسمع كثيراً عن الثوار الروس الذين نفتهم الحكومة القيصرية إلى سيبيريا . . . وكان منزلنا فى وارسو يضم ذكريات حية لإرهاب القياصرة . . . وكثيراً ما كان أخى فيكتور يروى لى قصة نفيه إلى ناريم فى مجاهل سيبيريا عام ١٩١٣ . . . وكانت هذه الذكريات تبدو لى كأنما هى جزء من الماضى السحيق الذى ذهب إلى غير رجعة بذهاب النظام القيصرى . . . أما الآن . فقد أصبحت أنا نفسى سجيناً وفى طريقى إلى معسكر للسخرة . . . أن كل الذى تغير فى روسيا هو السجناء وليس طريقة السجن . . .

وكانت عربة القطار الذى أقلنى مخصصة فى الأصل لنقل الحيوانات ولكنها عدلت لتفى بالغرض الجديد المطلوب منها وهو نقل السجناء لمدد تستغرق كل منها ثلاثة أسابيع . وكان التعديل الذى أدخل على هذه العربات هو إضافة صفين من

الأسرة الخشبية ، وفرن حديدى صغير ، وثقب مستدير فى حجم الطبق وضع فى منتصف أرضية العربة لاستعماله كمرحاض .

وسافرنا بهذه الكيفية مدة ثلاثة أسابيع كاملة . . . فقد نقلنا من سجن الترحيل فى ٢٥ أكتوبر عام ١٩٤٠ . وكانت هذه الأسابيع الثلاثة التى قضيناها فى السفر أشد وطأة علينا من الشهور الطويلة التى سبق أن قضيناها فى السجن . . . كنا نشقى بالازدحام والقذارة والرائحة الفظيعة التى كانت تنبعث من ثقب المرحاض ، ومن إجراءات التفتيش الوحشية ، ومن الخوف والمرض ومن رفقة المجرمين . . .

ولم تكن متاعبنا تنتهى عند هذا . فقد جعل الجوع والعطش من حياتنا جحيماً لا يطاق ، إذ كانت مخصصاتنا اليومية من الطعام تتكون من رطل خبز أسود كالطين ومن قطعة صغيرة من السمك النيئ المجفف .

وحدث فى إحدى المرات أن تركنا الحراس يومين كاملين دون نقطة واحدة من الماء فعانينا من جراء ذلك آلاماً هائلة . . وتحول لسانى إلى قطعة من الجلد ، وامتلأ فمى بطبقة صمغية واحترق رأسى ودارت الدنيا أمام عينى . . .

وحين توقف القطار لبرهة قصيرة ، سمعنا السجناء فى العربات الأخرى يدقون على جدران العربات صائحين (نريد ماء ! ! نريد ماء ! !) .

وفي مدينة أورشا ، توقف القطار على مبعدة أميال عديدة من البلدة ومن محطات السكك الحديدية . . .وفجأة، انفتح باب عربتنا وأمرنا بالنزول منها فى الحال . . . وحملنا معنا الذين الذين صرعهم المرض ، وقفزنا إلى الأرض بأسرع ما كان يمكننا وما أن خرجنا من القطار حتى أمرنا فى الحال بالركوع إلى جانب العربات فوق الثلوج الكثيفة . . . وهددنا الحراس بقتل من يجرؤ على الوقوف أو التحدث مع الآخرين .

وكنا فى حالة ذهول وإرهاق شديدين فلم نتمكن من إدراك ما يدور حولنا . . . وقد أعمانا خروجنا من ظلام القطار الحالك إلى ضياء الشمس القوى المنعكس على الثلج الأبيض الذى كان يغطى كل شىء . . .

ولما استجمعت حواسى قليلا ، رأيت منظراً لن أنساه ما حييت . . . كنا فى منطقة واسعة جداً يمر بها اثنى عشر على الأقل من الخطوط الحديدية ، وقفت عليها قطارات لا نهاية لها تشبه القطار الذى كنا نستقله . . . وبجانب كل عربة استطعت أن أرى جماعات من السجناء متكأكئين سوياً ، والحراس المسلحون يحيطون بهم من كل جانب .

وكان منظراً مخيفاً . . . آلاف الأشباح الحية ليس بينها وبين بنى البشر من شبه ، وجوهها زرقاء نحيلة شعثة الشعر ، وكانت هذه الأشباح الآدمية ترتعد من البرد القارس الذى وصل

إلى درجة التجمد ، محاولة تغطية أجسادها بما تبقى من شرائح ملابسها الممزقة .

وفى وسط هذا المثل الحى للتعاسة البشرية ، كان ضباط البوليس السرى بأجسادهم الفارعة الرشيقة يمرون مختالين بمعاطفهم النظيفة الطويلة ، وقبعاتهم الزرقاء الحمراء ، وأحذيتهم الطويلة السوداء اللامعة . وكان هؤلاء جميعاً من الضباط العظام الذين تدل وجوههم على النظام والأنفة والذكاء . . . وكان منظرهم الدال على حسن التغذية والثقة فى النفس يتناقض تماماً مع هؤلاء المنهكين المغبرين المكدسين فى جماعات — تلك الحثالة الإنسانية التى وضع مصيرها فى يد هؤلاء الضباط العظام !

وكان هؤلاء الضباط فى شغل دائم : يحملون أكداساً من المظاريف الكبيرة البنية اللون ، كانت تحوى ملفات السجناء الذين كانوا يتجولون بينهم ... وكان الضباط يتفقدون العربات ، ويتسلمون التقارير من مرؤوسيهم ، ويصدرون الأوامر ، ويحصون جماعات السجناء وما إلى ذلك . . .

وظللنا فى أماكننا نقاسى لذعات البرد . حتى انتهى ذلك التفتيش العام الذى استمر حتى أسدل الظلام أستاره . .

لم يكن غريباً أن يستمر التفتيش طوال هذه المدة ، فقد اجتمع آلاف السجناء بالقرب من أورشا فى ذلك اليوم ، وكنت أرى جماعاتهم ترقد أمام العربات على مدى البصر .

وعدنا مرة أخرى إلى القطار الذى اتجه نحو الشمال الشرقى ، ومررنا ببلدة فيازما . وقال لنا ستروفسكى ، أحد السجناء ، إننا لم نكن على مبعدة من موسكو .

وأضاف ستروفسكى أن فى موسكو أيضاً معسكرات للاعتقال تسودها أحوال حسنة جداً . . .

وقال جنسبورج ، وهو سجين آخر ، بحماس : «معتقلات نموذجية بالقرب من موسكو ؟ ؟ . . . كم أتمنى أن يرسلونا إليها ! » .

وشارك الموجودين جميعاً جنسبورج فى تمنياته. لكن ستروفسكى هز رأسه بحزم قائلا « لا يا زملائى الأعزاء . . . إن هذه المعتقلات لم تقام من أجلنا » .

ويستطرد الدكتور جليكسمان فيصف معسكر الترحيل ببلدة كوتلاس فيقول : « كانت المنطقة « البولندية » تتكون من حوالى اثنتى عشرة ثكنة خشبية تشبه الثكنة التى أمضينا فيها ليلتنا الأولى فى المعسكر . وكانت كل ثكنة تضم حوالى ٤٠٠ سجين . . . وحين وصلنا إلى هناك تسلمنا ثكنات أخليت حديثاً بعد أن نقل من كانوا فيها إلى معتقلهم الدائم .

وكانت الثكنات قذرة بدرجة تفوق الوصف ، تمرح فيها الملايين من البق الضخم . . . وحملنا على هذه الحشرات المخيفة حملة استخدمنا فيها الأحذية والأخشاب الملتهبة . وامتلأ المكان

بدماء الضحايا ، ولكننا لم نشعر بأى نوع من الراحة بعد انتهاء المعمعة ، فقد استمرت أسراب الحشرات فى مهاجمتنا ، فحرمتنا النوم وتركت على أجسادنا آثاراً حمراء . . . وكان البرد قارساً ، وكنا ننام على ألواح خشبية عارية عن القش والأغطية .

وكان نصيبنا اليومى من الغذاء فى كوتلاس يتكون من أقل من رطل من الخبز الأسود العفن وقدحين من الحساء القذر الذى يبعث طعمه على الغثيان . . .

ومنذ غادرنا كوتلاس ، كنا نرى من نافذة القطار منظراً واحداً متكرراً — معسكراً بعد آخر من تلك المئات المنتشرة فى غابات تايجا . . . وقطعنا فى السفر عشرة أيام لم نر خلالها إلا شبكة ضخمة واحدة من الأسوار المصنوعة من الأسلاك الشائكة وسلسلة واحدة هائلة من الأبراج. فقد كانت المعسكرات تملأ كل مكان ! ! !

وكان فى استطاعتنا أحياناً أن نرى بعض السجناء الذين فرضت عليهم الحراسة المشددة وهم يسيرون إلى أماكن أعمالهم أو يعودون منها إلى ثكناتهم ، كما كنا أحياناً نرى بعض جماعات العمال المسخرين وهم يصلحون الخطوط الحديدية . . . وكان هؤلاء السجناء ينظرون بأعين كليلة بليدة إلى القطار أثناء مروره فلقد أنشأوا بأيديهم الخطوط الحديدية التى يرحل عليها مزيد من السجناء إلى الأراضى البور القارصة البرد الواقعة فى أقصى

الشمال .

وكان كل السجناء فى عربة القطار من السوفييت ، ما عداى ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يتاح لى فيها الاتصال عن كثب بمثل هذا العدد الكبير من المثقفين السوفييت .

ووصلنا إلى مدينة تشيبيو الواقعة فى جمهورية كومى السوفيتية المستقلة بعد أن مضى أكثر الليل ، ووقف القطار بعيداً عن محطة السكة الحديدية بعدة أميال . . . وبعد أن غادرنا القطار ، قادنا الحراس سيراً على الأقدام خلال الغابة الكثيفة . . . وكان الثلج الكثيف يغطى الأرض والهواء البارد يلذع صدورنا ونحن نتنفسه . . .

وكان معسكر أوخيتيزم مقسما إلى أقسام عديدة مبعثرة حول مدينة تشيبيو . وكان القسم الذى أخذت إليه يبعد عشرة أميال عن المدينة ويعرف باسم « النقطة رقم ٢ » .

وبعد التفتيش الدقيق والإجراءات المعتادة اقتدنا إلى الحمامات . . . وكان فرحنا بهذا لا يوصف فقد كنا فى حاجة ماسة إلى الاغتسال بعد رحلتنا التى استغرقت عشرة أيام وبعد الشهرين اللذين قضيناهما فى المعتقل القذر فى « كوتلاس » .

وكنا نأمل أن تصرف لنا بعض الملابس الأميرية وهى أردية خاصة بالمعتقل مصنوعة من اللباد المحشو وتنص لوائح المعسكرات على صرفها لكل سجين . . . ولم يتحقق شىء من

هذه الآمال لسوء الحظ . . . وأخبرنا مدير العهدة ، وكان هو نفسه مجرماً عادياً من نزلاء المعتقل ، أن المخزن لم يعد فيه شيء من الملابس . . . أما أولئك الذين لم يكن لديهم ما يرتدونه على الإطلاق ، وكانوا يستترون أجسادهم بالخرق الممزقة ، فقد استطاعوا بعد لأى الحصول على بعض الملابس المستهلكة « المبقعة » من مدير العهدة الذى هنأهم على حسن حظهم لأن بعض السجناء قد توفوا فى الحال فلم يعودوا بحاجة إلى تلك الملابس التى صرفت ! ! .

وكان البرد القارس وظروف العمل والآلات البدائية وسوء التغذية تجعل من المستحيل على أى سجين أن ينتج الكمية المطلوبة منه فى المعسكر . . . وأصبح العمل عقوبة صارمة ولعنة بالغة .. وبلغت ظروف المعيشة من الصعوبة درجة صرفت معها الجهود نحو الكفاح فى سبيل الاحتفاظ بالحياة . . . فقد كان العمل المفروض على كل نزيل بالمعسكر يفوق طاقته بمراحل عديدة مما كان يحطم الروح المعنوية بدلا من أن يرفعها ويجعل من السجين حيواناً بائساً يائساً تعيساً .

وكان كل من قواد المعسكر وضباطه مسئولا عن الوفاء بكمية العمل الإنتاجى الموكولة إليه ، فكانوا يضغطون على عبيدهم ، ويختلسون ويلفقون تقاريرهم وسجلاتهم ويرشون رؤسائهم ويرتشون من مرؤوسيهم . . .

وكان تأثير معسكرات السخرة على الإجرام فى الدولة مروعاً وأنا لا أعنى المسجونين السياسيين الذين تضم المعسكرات الملايين منهم ، بل أعنى المجرمين الحقيقيين العاديين الذين لم تكن معسكرات العمل وسيلة لإصلاحهم بل كانت أمكنة يصل فيها الانحلال الخلقى أقصاه .

وضممت للعمل مع فريق من الحطابين ، وكان العمل شاقاً علىّ وخاصة فى بدايته .

وتنص لوائح المعسكرات على ألا يخرج السجناء للعمل فى الغابات إذا انخفضت درجة البرودة عن ٣٥ درجة فهرنهيت تحت درجة التجمد ، ولكن مثل هذه التعليمات المعقولة لم يكن يلقى إليها بال للأسف . وكثيراً ما أرغمنا على العمل حتى فى درجات البرودة التى تنخفض عن ٥٠ درجة فهرنهيت تحت درجة التجمد .

وكانت تعليمات المعسكر أيضاً تنص صراحة على أنه يجب أن يصرف لكل من المعتقلين فى المناطق الشمالية الباردة ، بالإضافة إلى الملابس الداخلية الصوفية والأردية المحشوة ، زوج من الأحذية السميكة ذات الرقبة ، وجوارب ثقيلة ، وزوج من القفازات الدافئة . . . أما فى الواقع ، فلم يكن لدى أغلبنا شىء نحمى به أيدينا وأقدامنا من البرد البالغ . . . وكانت أحذيتنا الجلدية الخفيفة لا تناسب هذا المناخ القارس فضلا

عن أنها قد أصبحت فى حالة يرثى لها.

وبالرغم من أن العمل كان فوق طاقتنا ، إلا أننا بذلنا ما فى وسعنا لأدائه على أحسن وجه لا لنتفادى عقاب رؤسائنا وسخريتهم بنا فحسب بل ولنحصل على مزيد من الطعام أيضاً. فقد كانت كمية الغذاء اليومى لكل منا تتوقف مباشرة على مقدار ما يؤديه من إنتاج فى يوم معين . . . وكانت السياسة العامة للمعتقل هى إبقاء السجناء فى حالة تقرب من الجوع ، وتهيئة الفرصة لبعض الأفراد كى يحصلوا على كمية أكبر من الغذاء كمكافأة لهم على إنتاج أكثر مما أنتجه الآخرون . . . وهكذا استخدم الجوع حافزاً لزيادة مستوى الإنتاج.

وكانت هناك لوائح وجداول تحدد بدقة مقدار كل عمل يقوم به السجناء مهما كان هذا العمل صغيراً أو تافهاً . . . فكانت هذه الجداول تحدد عدد الأشجار التى يجب أن يقطعها كل معتقل فى اليوم ، ومساحة الأرض التى يجب أن يخليها ، وعدد المسامير التى يجب أن يدقها ، بل وعدد أطنان الأخشاب التى يجب أن يحملها ! . . . وكانت كميات الإنتاج المحددة فى هذه الجداول أكثر كثيراً مما يستطيع عامل قوى أن يقوم به ، فما بالك بنا نحن المسخرين الجوعى ذوى البنيات الضعيفة ؟ .

وكان أسوأنا حظاً هم الذين ينتجون أقل من عشرة فى المائة من نسبة الإنتاج اليومية المحددة ، فقد كانوا يعتبرون ممتنعين

عن العمل على الإطلاق فيعاقبون بالحبس الإنفرادى حيث لا يصرف لهم فى اليوم إلا بعض الماء وأقل من ٣٠٠ جم من الخبز ، كما كانوا أحياناً يحاكمون وتصدر عليهم أحكام جديدة تضاف إلى عقوباتهم .

ولم يكن الذين ينتجون نسبة تتراوح بين عشرة وثلاثين فى المائة من نسبة الإنتاج المحددة بأسعد حظاً ، فقد كانوا أيضاً يتسلمون أقل من ٣٠٠ جم من الخبز فى اليوم بالإضافة إلى بعض الحساء الخفيف ، وكنت حريصاً جداً على ألا أكون ضمن هذه الطائفة ، فلم يكن لذلك من معنى إلا اقتراب النهاية... فبعد عدة أيام من تطبيق نظام الغذاء هذا يضعف المرء شيئاً فشيئاً ، وبالتالى تنقص قدرته على الإنتاج شيئاً فشيئاً ولا يستطيع إنتاج القدر الذى يسمح له بالحصول على قطعة أخرى من الخبز . لقد كانت السخرة فى هذه المعسكرات دائرة مفرغة ، وكنا نرى بأعيننا زملاءنا وهم ينكمشون وتتقلص أجسادهم أمامنا !

وأخيراً أفرج عن جيلكسمان والذين ظلوا أحياء من المليون ونصف المليون من البولنديين المعتقلين الذين لاقوا نفس المعاملة . وكان هذا الإفراج نتيجة لعقد اتفاقية بين ستالين وسيكورسكى بعد انهيار المعاهدة السوفيتية النازية . . .

وفيما يلى بعض ما جاء فى التقرير الذى قدمه القس الأستونى جوليوس جوكنتال إلى المجلس الدولى للكنائس .

« كان ذلك فى صيف عام ١٩٤١ . . . وكان الجيش السوفيتى قد غزا أستونيا فى عام ١٩٣٩ واستطاع أن يحتلها بالقوة ودون حق مشروع فى عام ١٩٤٠ . وهكذا كانت أستونيا قد قاست كثيراً حتى ذلك الوقت فمركزها كجمهورية مستقلة لم يعد له وجود ، ولكن سلسلة الضربات القاصمة لم يكن لها نهاية وظلت تتابع فى سرعة . . . وكان الجو مشبعاً بالقلق . وكان التغيير السريع الذى يحدث فى العالم ينذر بالسوء حتى للاتحاد السوفيتى . . . وهكذا وجد السوفييت أنفسهم مضطرين للقيام بعمل أسرع . .

وشهدت ليلة ١٣ يوليو عام ١٩٤١ عملا من أفظع الأعمال الإجرامية التى ارتكبها الشيوعيون حين اعتقلوا مئات الآلاف من الأبرياء ورحلوهم فى الحال . ولكن عندما هاجم الألمانُ الروس فى ٢٢ يونيو عام ١٩٤١ اتضح للسوفييت أن أيامهم فى أستونيا قد باتت معدودة وأنه يجب عليهم أن يعملوا كل ما فى وسعهم لحرمانها من أخطر عناصرها وهى الأيدى العاملة ، ولذلك أعلنوا التعبئة العامة فى الحال .

وكنت فى ذلك الوقت أعمل راعياً لكنيسة القديس شارل ببلدة تللين . ومنذ ١٣ يوليو أخذ عددنا نحن رجال الدين يتناقص تناقصاً محسوساً ، وكان من حسن الحظ أنه لم يعتقل ويرحل منا إلا عدد ضئيل فى حين انضمت الأغلبية إلى حركة المقاومة

السرية ، بعد أن ظلت حملات الاعتقال تستمر دون انقطاع وأصبح كل فرد يخشى أن يكون هو الضحية التالية .

وقد كانت هذه الأيام فعلا مليئة بالأهوال إلى حد لا يتصوره العقل ، بيد أنني لاحظت كيف ازداد القلق فى صفوف الشعب وكيف كان الناس يتحرقون للتشجيع والعون الروحى ، ولهذا ألح على إحساسى بأن الشعب فى حاجة شديدة الىّ وكان هذا هو السبب الوحيد الذى منعنى من الانضمام إلى حركات المقاومة السرية ، فكنت أقوم بعملى أثناء النهار وأذهب للمبيت عند أقاربى العديدين أثناء الليل متنقلا من مكان إلى آخر باستمرار .

وفى ٢٥ يوليو عام ١٩٤١ أعلنت السلطات السوفيتية التعبئة العامة إبتداء من ٢٧ يوليو ، لكل الرجال الذين لا تزيد أعمارهم عن سبعة وثلاثين عاماً . وكنت من الذين تتناولهم هذه التعبئة وكان علينا أن نسافر إلى روسيا . ولم نكن وقتها نعرف أن هذا معناه مغادرة البلاد ، ربما إلى الأبد ، كما لم أكن أنا نفسى أتصور أننى لن أستطيع رؤية عائلتى قبل مضى خمس سنوات .

وصدرت إلينا الأوامر بأن نرتدى أقوى أحذيتنا احتمالا . وأن نحمل معنا طعاماً يكفينا خمسة أيام ، ولم تتعرض الأوامر لما يجب أن نحمله معنا من الملابس .

وتم إعداد كل شىء فى عجل وتركت منزلى يوم الأحد

السابع والعشرين من يوليو عام ١٩٤١ . وقضينا ليلتنا الأولى فى العراء فى فناء إحدى المدارس ببلدة تللين ، إذ كان بناء المدرسة قد ازدحم بالوافدين إليها قبلنا . وفى حوالى الساعة الرابعة من صباح اليوم التالى أخذنا إلى استاد تللين حيث انضممنا إلى آلاف القادمين من مراكز التعبئة المختلفة . وقضينا اليوم بأكمله هناك ولم نكن نعرف إلى أين نحن مسوقون ، وهل نسافر بالبر أو بالبحر . . . وبعد الظهر صدرت إلينا الأوامر بالاستعداد للرحيل وتوجهنا إلى محطة قريبة من تللين حيث كان فى انتظارنا قطار طويل يتألف من عربات لنقل الماشية ، ولم يكن فى هذه العربات إلا ألواح خشبية عارية للجلوس ، وهذا هو كل شىء.

ولما كان المفروض أن تضم كل عربة خمسة وسبعين شاباً فقد كان مجرد التفكير فى النوم مستحيلا ، وكان عدد الذين نقلوا إلى روسيا حتى ذلك الحين قد بلغ ثلاثة آلاف شاب .

وعندما تحرك بنا القطار شهدت منظراً من أعنف المناظر المؤثرة ... كانت الزوجات والأمهات والأخوات والآباء والأطفال يبكون فى صمت فى حين كان المرحلون يتظاهرون بالهدوء مع أن قلوبهم كانت تنفطر حزناً وأسى . . . وكان ذلك أمراً طبيعياً والقطار يحملهم إلى مستقبل مخيف مجهول . ولم يكونوا يعرفون ما إذا كانوا ذاهبين إلى الجبهة ليتدربوا على القتال أم لغرض خاص غامض آخر .

وعبرنا الحدود الواقعة بين أستونيا وروسيا فى وقت مبكر من صباح ٢٩ يوليو ولم يكن أغلب من فى القطار يعرفون أنهم لن يروا هذه الحدود مرة أخرى إذ كانت هذه رحلتهم الأخيرة إلى الموت .

وقبل أن يعبر القطار الحدود، فكر الكثيرون منا فى الهرب والانضمام إلى رجال العصابات الأستونيين الذين كانوا يختبئون ويقاتلون فى الغابات . . . ومع ذلك كان عدد الذين حاولوا الهرب قليلا ونجح منهم فى المحاولة عدد أقل لأن الحراس المسلحون كانوا يقفون على جانبى خط السكك الحديدية مزودين بأوامر تقضى بإطلاق النار على كل من يحاول الهرب. أما أنا فلم تكن لدى نية مغادرة القطار خشية على عائلتى .

وكانت رحلتنا إلى لننجراد غاية فى الخطورة وكان الكثير من مناطق الجبهة قريباً منا جداً وكنا نسمع أصوات القتال ، وعجيج المعارك بوضوح تام . وكانت الطائرات المعادية كثيراً ما تغير على القطارات ومحطات السكك الحديدية .

وكان غريباً أن ترى المواطنين السوفييت العاديين .وقد ظهر عليهم المرض والهزال وسوء التغذية . . . وكانوا هم أيضاً ينظرون إلينا بدهشة إذ كنا عمالقة بالقياس إليهم ، ولم يكونوا يصدقون أننا من أستونيا ذلك أنه ألقى فى روعهم أن الشعوب تعانى المجاعة فى البلاد الرأسمالية كأستونيا .

وانحرف القطار متجها إلى الشرق بعد أن مر بلننجراد ، وكان كل ما شهدناه فى الطريق يثير الدهشة والاستنكار . . . كانت المحطات ممتلئة بالقطارات المكدسة بالآلاف من المعتقلين المرحلين ، وكثيراً ما كانت القطارات تقف لمدة أسابيع متوالية وهم محبوسون فى العربات دون ماء ولا طعام . وكان اشتداد الحرارة يزيد مما يعانى المعتقلون ، وكانت هناك قطارات أخرى مليئة بالجنود الجرحى والقوات الجديدة الذاهبة إلى جبهات القتال والذخيرة وجميع أنواع معدات الحرب .

وكانت حالتنا أحسن كثيراً من حالة الذين قبض عليهم بغية ترحيلهم فقد كان أملنا فى عودتنا إلى بلادنا هو العامل الرئيسى الذى يرفع من روحنا المعنوية ويشجعنا على الاستمرار فى المضى . وكان من بواعث حزننا أن نرى هذه المخلوقات التعيسة تحت رحمة الروس دون أن نستطيع مساعدتها على الإطلاق .

اننا لم نكن جوعى إذ كان مع كل منا طعامه الذى حمله معه من بلدته ، ولكن الجوع كان يقرص هؤلاء . . . وكان مسموحاً لنا أن نحصل على الماء لنشرب غير أن ذلك لم يكن فى استطاعة المرحلين الآخرين . . . ولم تكن السلطات السوفيتية بالطبع تهتم بنا على الإطلاق وكان علينا أن نرعى مصالحنا بأنفسنا . ولم نحصل طوال رحلتنا الطويلة التى استغرقت

أسبوعاً كاملا إلا على وجبتين أو ثلاث تتكون كل منها من بيضتين وكيلو جرامين من الخبز الجاف الردىء الذى اكتشفنا فيما بعد أنه أحسن ما نستطيع الحصول عليه فى روسيا .

وكان الضباط الذين يشرفون علينا ينتمون إلى الجيش الأستونى غير أنهم كانوا خاضعين لنفوذ ضباط البوليس السرى السوفييتى .

ومر القطار ببلدتى فولوجوا وكيروف ثم اتجه نحو الشمال وصعقنا إذ رأينا الأسوار المصنوعة من الأسلاك الشائكة تمتد على جانبى خطوط السكك الحديدية . ولم نكن نفهم السبب فى وجودها حتى عرفنا فيما بعد أنها معسكرات للعمل يعتقل فيها السجناء والمشبوهون السياسيون .

وهكذا بدأنا نعرف الاتحاد السوفييتى على حقيقته .

وصلنا إلى كوتلاس فى ٥ أغسطس سنة ١٩٤١ ، وكنا فى غاية التعب والإرهاق فتوقعنا أن ننال بعض الراحة ، ولكن آمالنا تبددت على الفور فقد عسكرنا فى مدارس مختلفة كان علينا أن ننام فيها على الأرض التى لم نر أقذر منها . فلم تكن قد اتخذت أية إجراءات لنومنا أو لإطعامنا . وفى الصباح التالى بدأ المشرفون علينا فى إعداد قوائم بأسماء الوافدين . وكان واضحاً أنهم لم يحملوا معهم القوائم والوثائق التى سجلتها مراكز التعبئة المختلفة . ولم نكن نعرف حتى ذلك الوقت ما الذى ينوون أن

يفعلوه بنا وكان علينا أن نستمر فى استهلاك الطعام الذى أحضرناه معنا والذى كان قد انتهى تقريباً . وكان من المستحيل أن نشترى طعاماً من المدينة . وفى اليوم الثالث أخذنا إلى قاعة عامة للطعام ، ربما بسبب الشكاوى العامة التى تقدمنا بها جميعاً وربما لأن الاستعدادات الرسمية كانت قد تمت .

وكانت هذه القاعة تشبه حظيرة قذرة للخيول . وأعطى كل منا بعض الخبز وطبقاً من الحساء أو سمكة عفنة ، وكان هذا الطعام الذى لا طعم له هو نصيب يوم كامل ، بيد أنه كان بداية متاعبنا الحقيقية .

وقسمنا إلى جماعات وكان علينا أن نبدأ تدريبنا الحربى . غير أنه كان من الواضح أن هذا التدريب لم يكن هو السبب الرئيسى الذى نقلنا من أجله إلى روسيا .

وبعد بضعة أيام قسمنا مرة أخرى إلى أربعة فرق أرسلت اثنتان منها نحو ضفاف النهر التى تقع عليها كوتلاس ، إلى منطقة ظلت سراً على كل المجندين .

وانتهينا من التدريب العسكرى بعد بضعة أيام وأرسلنا لنبدأ العمل فى توسيع مطار صغير كان يقع فى أحد أطراف المدينة . وكانت مهمتنا تتلخص فى إزالة الأشجار التى تحف بجانبى المطار وأن نمهد ونسوى أرضه التى كانت رخوة تملؤها المستنقعات وكان علينا أن نعمل طوال نهار كل يوم من أيام الأسبوع

مهما كانت حالة الطقس والطعام وما إلى ذلك .

ونقلنا بعد ذلك بمدة قصيرة لنعيش فى مزرعة جماعية قديمة على الجانب الآخر من النهر . وكانت المسافة بين هذه المزرعة وبين المكان الذى نعمل فيه طويلة جداً ، كثيراً ما كنا نقطعها « بالصنادل » . وكنا نخرج إلى العمل فى الساعة السابعة من الصباح ونعود فى الساعة الثامنة من المساء وكنا نعطى من الطعام ٨٨ جراماً من الخبز وطبقين من الحساء وبعض الثريد كل يوم .

ولم يكن الوقت الذى نقضيه فى الطريق أثناء انتقالنا « بالصنادل » يضيع عبثاً فقد كان يستخدم لتزويدنا بالثقافة السياسية والدعاية للاتحاد السوفييتى . وكنا خاضعين لرقابة البوليس السرى السوفييتى الصارمة سواء فى أوقات العمل أو الراحة . وكان هناك بعض السجناء السياسيين يعملون معنا فى نفس المطار ولكن كان محظوراً علينا أن نتحدث إليهم أو أن نتصل بهم بأى وسيلة كانت .

وبرغم هذه التعليمات الصارمة المشددة استطعت أن أتعرف إلى أحد أساتذة التاريخ السابقين بجامعة موسكو . وكان قد أمضى فى الاعتقال حتى ذلك الوقت مدة تزيد على اثنى عشر عاماً . وقال لى هذا الأستاذ إن السلطات قد اعتقلت زوجته الطبيبة وابنتيه وابنه بعد اعتقاله بوقت قصير وأنه لم يسمع عنهم شيئاً بعد ذلك . . وكان الظاهر أن أولئك المسجونين جميعهم من

المثقفين ثقافة عالية وأنهم قد اعتقلوا لأسباب سياسية بحتة .

ولم أكن لسوء الحظ أستطيع أن أتحدث معهم طويلا . وكان كل منهم يعد العدة للهرب إذا ما أتيحت له الفرصة . وفى أحد الأيام دهشت إذ رأيت عيونهم تلمع بالسرور دون أن أجد لذلك سبباً واضحاً حتى همس الأستاذ فى أذنى بأن ثلاثة من زملائه المسجونين قد هربوا أثناء الليل . . . وكان هذا الأستاذ أيضاً هو أول من أخبرنى بأن الاتحاد السوفييتى ليس إلا سجناً ضخماً . ولقد برهنت الأيام على صحة هذا القول . فلم يكن الخمسة عشر مليوناً من الذين كانت تضمهم السجون وقت ذاك هم كل الأسرى فى الاتحاد السوفييتى .

وكانت ظروفنا المعيشية فى المزرعة الجماعية غاية فى السوء . . وكان عشرون شخصاً تقريباً يعيشون فى غرفة لا تزيد مساحتها عن أربعين متراً مربعاً . وكنا ننام على أسرة بنيت حول الحائط فى صفين . . . وكانت الغرفة مليئة بالبق والبراغيث والصراصير . ولم يمض وقت طويل حتى امتلأت بالقمل أيضاً .

ولم تكن هناك أية استعدادات للاستحمام . بيد أننا كنا نغتسل فى قناة قريبة وكانت أمتعتنا الخاصة تفتش باستمرار فيصادر كل ما قد يكون معنا من الكتب والروايات . ولهذا فقد كنت حريصاً على اخفاء النسخة التى أحملها من الإنجيل سواء فى شقوق الحائط أو بين أخشاب السقف . . . وفى يوم

من الأيام أشيع أن كل الأشياء الثمينة التى نحملها ستصادر ، ولهذا أسرعت بإخفاء خاتم زواجى فى قطعة من الصابون وتركته فيها حتى غادرنا ذلك المكان . . . ولا يفوتنى أن أذكر أن هذه الإشاعة لم تتحقق لحسن الحظ .

وكان التوتر العقلى هو أشد الظروف التى نعيش فى ظلها وطأة علينا . واتضح لنا أننا ما نقلنا إلا لأن السلطات قد شكت فى عدم ولائنا للنظام الشيوعى . وكنا مهددين بألا نرى وطننا مرة أخرى فحاول بعضنا الهرب ولم ينجح منهم إلا عدد ضئيل جداً إذ كانت المنطقة مليئة بالمستنقعات وتتخللها شبكة من الأنهار وفروعها مما حدا بنا إلى الإنصراف عن التفكير فى الهرب لاستحالته .

وكانت ملابسنا متواضعة جداً . وكان بعضنا محظوظاً فاستطاع الحصول على بعض القمصان القطنية . . . أما عن الأحذية ، فلم يكن لدى أغلبيتنا إلا حذاء خفيف واحد . وكان المطار الذى نعمل فيه أشبه ببحيرة علينا أن نخوضها اليوم بعد الآخر . وهكذا كانت أقدامنا مبللة دائماً أبداً . كما لم يكن لدينا مكان لتجفيف الأحذية فى الثكنات . فكنا نرتديها فى صباح اليوم التالى والرطوبة تنبعث منها فتخترق عظامنا .

وظللنا نعمل فى هذه الظروف لمدة ثلاثة أسابيع . ثم توقف العمل فجأة دون أن يتم إعداد المطار وقيل لنا فى تفسير ذلك

إنه قد تقرر عدم صلاحية إنشاء مطار فى هذا المكان .

وأرسلنا للعمل فى إنشاء مطار آخر على الشاطئ الآخر من النهر ، وكان يبعد عن معسكرنا بثلاثة كيلومترات ، فى منطقة مليئة بالأحجار، وكان علينا طبعاً أن نزيل هذه الأحجار. وظللنا نعمل بأقصى سرعة لمدة ثلاثة أسابيع . وكم كانت دهشتنا عظيمة حين أمرنا مرة أخرى بالتوقف عن العمل قبل أن يتم المطار ! ! .

وصدرت إلينا الأوامر بالاستعداد للرحيل حتى نستقل الباخرة التى ستأتى لنقلنا فور وصولها وظللنا فى انتظار السفينة أسبوعين وقد سادنا الاعتقاد أننا سنقوم برحلة طويلة . . . وأخيراً وصلت السفينة ونقلنا إلى الشاطئ الآخر من النهر. بعد أن قطعنا مسافة كيلومتر ! . . . وكان من الغريب أن ننتظر السفينة طوال هذه المدة الطويلة لتقلنا عبر مثل هذه المسافة القصيرة ! ! وتركنا السفينة فاتجهنا سيراً على الأقدام إلى قرية تقع على بعد عشرة كيلو مترات تقريباً حيث كان المفروض أن نتناول غذاءنا . . . ولما لم تكن قد اتخذت أية ترتيبات لهذا الغرض ، فقد كان على كل منا أن يجد لنفسه طعاماً يأكله ومكاناً يستريح فيه وكان من الصعب على المرء أن يجد طعاماً . فقد كان القرويون أنفسهم لا يجدون ما يأكلونه . ولذا فقد كان علينا أن نقنع بثمرات قليلة من البطاطس ، ولا شيء غير ذلك .

وفى حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر ، حملنا حاجياتنا وارتحلنا مرة أخرى سيراً على الأقدام . . . وبعد مسيرة ٥٠ دقيقة استرحنا لمدة عشر دقائق ثم استأنفنا السير حتى منتصف الليل بعد أن قطعنا مسافة خمسين كيلو متراً أخرى . وكنا قد وعدنا بأن نجد الترتيبات اللازمة لإيوائنا لدى وصولنا . ولكن تبين لنا العكس ، وبذل ضابط البوليس السرى الذى كان يشرف علينا جهداً كبيراً حتى استطاع أن يحصل لنفسه على غرفة صغيرة . ثم استطاع أخيراً أن يحصل لنا على ثلاث غرف ضيقة كان المفروض أن نستريح فيها . . . ويتصور المرء أية راحة تلك التى قد يحصل عليها فى ثلاث غرف ضيقة مكدسة بحوالى ٥٢٠ شخصاً ! ! ولم يكن هناك أمكنة كافية لجلوسنا جميعاً . غير أننا كنا فى حالة إرهاق تام وقد ملأ « الكاللو » أقدامنا فاستغرقنا فى سبات عميق رغم كل هذه الظروف .

وكان علينا أن نستأنف السير فى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى . وكان معظمنا على وشك الانهيار ، ولكننا أرغمنا على السير . . . وبالرغم من التهديدات والصفعات والركلات ، اضطر بعضنا للتخلف عنا نتيجة لإصابتهم بانهيار عصبى أو جسدى دون أن يعنى أحد بأمرهم . . . ولم نعرف ماذا حدث لهم فلم نسمع بهم ولم نرهم بعد ذلك أبداً .

وظللنا نسير طوال ثلاثة أيام قطعنا خلالها مسافة قدرتها

بحوالى مائتى كيلومتر .

وأخيراً وصلنا إلى معسكر لقطع الأخشاب فى أقصى الشمال .. وكان أول ما شاهدناه هناك مجموعة من الصلبان الخشبية قيل لنا إنها تقوم على قبور الهولنديين الذين ماتوا أثناء عملهم فى تلك المنطقة . . . وبعدئذ رأينا بضعة أكواخ منتشرة فى منطقة موحلة جرداء . وخصص اثنان من هذه الأكواخ لإيواء جماعتنا التى كان عدد أفرادها ٢٥٠ رجلا . . . وأنفقنا يومنا الأول هناك فى صنع ألواح من الخشب لننام عليها .

وبدأنا العمل فى اليوم التالى ولم تكن لدينا أحذية مناسبة بالرغم من أننا كنا نخوض فى الماء طوال النهار . . . وكنا نعطى من الطعام فى اليوم ثمانمائة جرام من الخبز وطبقين من الحساء . أو بالأحرى من الماء المغلى أحدهما فى الصباح والآخر فى المساء .

وبالطبع لم تكن هذه الكمية من الطعام كافية لتعويض المجهود الذى نبذله فى عملنا الشاق الذى ينحصر فى قطع الأشجار . وبالرغم من الظروف القاسية التى كنا نعيش فى ظلها لم تكن هناك أية إجراءات أو تدابير صحية . . . ولم يكن يصحبنا طبيب بل ترك أمر رعاية مرضانا إلى ممرضة غير مدربة .

ولم يكن المشرفون علينا يعنون أو يهتمون على الإطلاق بالمحافظة على صحتنا . فقد كان كل همهم هو الحصول منا على أكبر كمية ممكنة من الإنتاج .

وكان المفروض على كل منا أن يقوم بإنتاج نسبة محددة أعلى بكثير مما فى طاقته . فإذا عجز عن ذلك خفضت كمية الطعام التى تصرف له . . . وكان من الواضح أننا لن نستطيع بمرور الوقت أن نجارى هذه الظروف الوحشية . فتدهورت صحتنا يوماً بعد يوم . وتناقصت إرادتنا وقوتنا المعنوية والجسدية حتى تداعينا وأخذ الموت طريقه إلينا بعد مرور شهرين من العمل القاسى وسوء التغذية .

وكان معدل الوفاة بيننا ست وفيات فى اليوم . وكانت الدوسنتاريا والنمونيا هما السببين الرئيسيين لهذه الوفيات .

وكنا نعمل اثنتى عشرة ساعة فى اليوم من السادسة صباحاً إلى السادسة مساء . . . وكان الشتاء بارداً إلى درجة غير عادية وكثيراً ما انخفضت درجة البرودة إلى ٥٠ فهرنهيت تحت درجة التجمد . . . وكانت الأوامر تنص على ألا نخرج إلى العمل فى الغابات إذا انخفضت الحرارة عن ٣٠ فهرنهيت تحت درجة التجمد غير أن المشرفين علينا كانوا يتجاهلون هذه التعليمات .

وكان أقصى ما نعانيه هو القلق على مستقبلنا وأرواحنا . وكان المشرفون علينا يجرون علينا اختبارات مرهقة لاختبار ميولنا السياسية وإعادة تثقيفنا لنصبح مخلصين للنظام السوفييتى . . . وكانت الاجتماعات السياسية تعقد الواحد تلو الآخر أثناء الليل

عادة حيث كنا نهدد بالقتل رميا بالرصاص إذا لم يصل إنتاجنا إلى الكمية المحددة له . كما كنا نهدد بعدم السماح لنا بالعودة إلى أوطاننا إذا لم نغير آراءنا السياسية فى الاتحاد السوفييتى والشيوعيين .

وإلى جانب هذه الاجتماعات المنتظمة ، كان المسئولون يمطروننا بوابل من الاستفسارات والتحقيقات الفردية — وكانوا يشكّون فى بوجه خاص لا لشىء إلا لأنهم علموا أنى من رجال الدين . وكانوا يستجوبون رفاقى بشأنى كى يعرفوا منهم آرائى السياسية وموقفى تجاه الشيوعيين .

وكان الشخص الذى يستجوب يرغم على التوقيع على ورقة يتعهد فيها بكتمان هذا التحقيق وعدم إفشاء سره لى على وجه الخصوص وإلا كان عقابه الإعدام رمياً بالرصاص ، ومع ذلك فقد خاطر جميعهم بأرواحهم ليطاعونى على ما دار بشأنى .

ويؤسفنى أن أذكر لكم هنا المناظر المحزنة التى كنت أشاهدها هناك — فى الصباح كان المرضى يرغمون بالضرب على الذهاب إلى العمل وكانوا يتداعون مغمى عليهم فى الطريق بعد انتهاء عمل النهار .

لقد قلت قبلا إننا لم نكن نحصل على طعام كاف فكنا نعانى من سوء التغذية . . . وكان بعض الفلاحين من المزارع الجماعية المجاورة يعملون معنا فكنا نقايضهم بكل ما نملكه فى

مقابل الحصول على بعض الطعام أو الطباق . ولما لم يتبق لدينا شيئاً نقايضهم به ، اضطررنا إلى السرقة منهم . كنا نسرق الشعير الذى يضعونه لماشيتهم فى الاصطبلات لنصنع منه نوعاً من الحساء . كما كنا نجمع بعناية مايلقونه من قشر بطاطس ونأكله.. هذا فضلا عن جثث الخيول التى كانت تموت نتيجة للإرهاق فى العمل .

ولم يكن باستطاعتنا حتى مجرد التفكير فى الهرب فقد كنا نعيش فى منطقة بعيدة عن العمران وطرق المواصلات . . . وكانت مختلف أنواع الحشرات بما فيها القمل تعيث فى أسرتنا وفينا فساداً ، إذ لم تكن هناك أية ترتيبات لاستحمامنا أو غسل ملابسنا . وحدث فى فبراير سنة ١٩٤٢ أن سئلنا فجأة عما إذا كان أحدنا يرغب فى الذهاب إلى جبهة القتال . . . وأبدينا رغبتنا فى الذهاب . . . فقد كنا نعتقد أن هذه فرصة رائعة للتخلص من الجحيم الذى كنا فيه ومن الموت البطىء الذى كان يطل علينا كل يوم .

والظاهر أن المسئولين لم يتوقعوا منا كل هذا الإقبال الشديد على الرحيل إلى الجبهة فبدأوا يقسموننا تبعاً لأرائنا السياسية . وقبلوا منا عشرين شخصاً فقط سائلين الآخرين أن يستمروا فى أداء أعمالهم كالمعتاد . .. وكانت نسبة الوفيات تزداد باستمرار وفى مارس استدعى خمسون آخرون إلى جبهة القتال ولم يبق إلا

خمسة وسبعون شخصاً كنت بينهم وكان علينا أن ننتظر منيتنا هناك . وكان القادرون منا على العمل خمسة عشر شخصاً فقط وكنت أعتبر من القادرين على العمل برغم آلام المعدة التى أعانيها والتى كانت علامة تنذر بالخطر دون شك .

وفى أبريل استدعينا جميعاً . . . وحاول المرضى أن يأتوا معنا إذ كانوا يخشون أن يتركوا هناك إلى الأبد . . . ورجعنا إلى كوتلاس سيراً على الأقدام واستغرقنا فى ذلك أكثر من أسبوع ، إذ كان هزالنا لا يمكننا من السير السريع . ومن كوتلاس استمرت رحلتنا فى عربات الماشية إلى جهة غير معلومة .

ومررنا ببلدة كيروف . وبيرم . وسفرلوفسك . وتشفيابينسك . ووصلنا إلى شبراكول حيث قيل لنا إن فريقاً من الجيش الأستونى يتدرب هناك . وقد استغرقت رحلتنا شهوراً طويلة ، فقد غادرنا الغابة فى منتصف أغسطس ووصلنا إلى معسكر الأستونيين فى أوائل يونيو وكنا طوال هذه المدة مسئولين عن طعامنا وكنا نعيش على السرقات فى معظم الأحوال . وكنا لدى وصولنا أشبه بالوحوش نرتدى ملابس قذرة ممزقة ونغطى أقدامنا بالخرق البالية . . . وكنت خجلا من نفسى . فلم أكن أود أن أظهر بحالتى هذه أمام أصدقائى الذين قابلتهم هناك .

وفى المعتقل أيضاً قابلت زملاءنا الذين سافروا قبلنا . . . وعلمنا أن الكرملين قد أصدر أوامره بجمع شتات الأستونيين

المبعثرين فى جميع أنحاء روسيا فى مركزين اثنين هما تشيباركول وكاموشلوف من مدن الشمال . . . وكانت الأوامر تقضى بتكوين فرقتين أستونيتين فى هذين المكانين . وكانت تشيباركول تضم حوالى ٢٠ ألف أستونى .

وللمرة الأولى منذ وصولنا إلى روسيا صرفت لنا ملابس لائقة من نوع الملابس التى يرتديها جنود الجيش الأحمر . وكان الطعام أيضاً جيداً نسبياً . بيد أنه لم يكن كافياً ... وكنا نعيش فى أكواخ بنى أسفلها تحت الأرض وكان التدريب العسكرى شاقاً . ولكن التطهير السياسى الذى استمر طوال الوقت كان أشق منه .

وبالرغم من تحسن الأحوال المعيشية كانت نسبة الوفيات مرتفعة . وظل القلق النفسى سائداً بيننا وكان الكثيرون منا يختفون إلى الأبد فى السجون المظلمة كل يوم .

ولم يكن الروس يثقون بنا فكانوا يعطوننا بنادق خشبية للتدرب عليها . ولم يكن هناك شك فى أنهم كانوا يعدوننا للذهاب إلى الجبهة بأسرع ما يمكن .

وكان كل منا يحاول أن يلزم الصمت خشية الجواسيس وحوادث التطهير السياسى . وكنا نأمل أن تتاح لنا فرصة الهرب إذا ما وصلنا إلى الجبهة . وكنت أنا أيضاً أحاول أن أكون حريصاً جداً فى تعبيراتى ، ولكن ذلك لم يساعدنى كثيراً إذ كان رجال

البوليس السرى يشكون فى أمرى فيستجوبونى المرة تلو الأخرى".

وحدث مرة أن تقرر تكوين محكمة أعضاؤها الثلاثة من جماعتنا ورشحت لأكون أحد القضاة الثلاثة فقد كان زملائى يحترمونى ويريدوننى أن أقضى بينهم . وكان على المرشحين الثلاثة أن يرووا قصص حياتهم فى اجتماع عام حضره ضباط البوليس السرى . وبعد أن انتهينا من ذلك استجوبنى ضباط البوليس السرى دون الآخرين . فسألونى ما إذا كنت سأستمر فى عملى كرجل دين لدى عودتى إلى أستونيا بعد نهاية الحرب . ملمحين إلى أن كل رجال الدين كذابون منافقون يسممون أفكار الشعوب .

وكان غرضهم واضحاً لى . فأصبح موقفى حرجاً لكنى تفاديت الإجابة الصريحة فقلت إننى سأعود للانضمام إلى رجال الدين إذا لم أجد عملا آخر .

وعند ما غادرت مكان الاجتماع كانت الدموع تملأ عينى . فقد أحسست بنفس الشعور الذى شعر به القديس بطرس حين أنكر المسيح وكنيسته .

وذهبت كل جهودى لإرضاء الشيوعيين هباء . وبعد أيام قلياة طلب إلى الاشتراك مع الآخرين فى التدريبات العسكرية . وعلمت أن هناك مائتين غيرى طلب إليهم ذلك . وانتزعت منا ملابس الجنود وأعطينا بعض الخرق بدلا منها . وصرفت لنا

القيادة العامة بطاقات شخصية خاصة .

وفى أول يوليو عام ١٩٤٢ — أى بعد مرور أقل من شهر على انضمامنا إلى فصيلتنا — أمرنا بأن نستقل القطار إلى وجهة غير معلومة مما كان له أثر نفسى سيىء علينا . . . وغادرنا القطار عند بلدة أورشومكا وكان معنى هذا أننا سنذهب مرة أخرى إلى معسكر للسخرة ، وهكذا بدأنا عهداً جديداً من العبودية ! !

وكان علينا أن نعيش فى أكواخ متداعية قذرة مكدسة بالرجال إلى حد لا يحتمل وكان طعامنا يشبه ذلك الذى كان يعطى لنا فى الغابة وإن كان وزن راتب الخبز اليومى المخصص لنا قد نقص إلى ٧٠٠ جم .

وكان المسئولون قد أنشأوا فى تلك المنطقة أثناء الحرب مصنعاً للذخيرة فعهد إلينا ببناء المساكن اللازمة لموظفى ذلك المصنع وعماله . وكان العمل شديد الوطأة . وكنا جوعى فاضطررنا إلى سرقة الحقول المجاورة وإلى قتل الكلاب لنتغذى على لحمها . وكان الشتاء يقترب مسرعاً . وكنا نعرف أننا لو ظللنا فى أماكننا لما عشنا لنرى الربيع . . . وكنا نسمع كل يوم بهرب بعضنا وبالرغم من أن المسئولين هددونا بإطلاق الرصاص علينا إذا استمرت تلك الحال فإن حوادث الهرب لم تنقطع .

وانضممت إلى أربعة آخرين من « المشبوهين » وبدأنا نعد العدة للهرب . . . وكنا مصممين على المخاطرة مهما كانت

النتيجة . فلم نكن نهتم بملاقاة الموت على أسوأ الأحوال .

وكنت قد اشتريت وأنا فى كوتلاس كتاباً لمبادئ الجغرافيا يضم خريطة غير دقيقة للاتحاد السوفييتى واحتفظت معى بالخريطة التى ساعدتنا كثيراً فيما بعد ، إذ لولاها لكان فرارنا مستحيلا . وكانت حيازة الخرائط أو بيعها أمراً محرماً تحريماً باتاً .

وقمنا بتزوير بعض الوثائق . ثم بعنا كل ما كنا نملك لنشترى بثمنه طعاماً . وفى اليوم الخامس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٤٢ ، كنا قد أتممنا استعداداتنا . فلما انقضى شطر من الليل . تسللنا نحن الخمسة من غرفتنا الواحد تلو الآخر وتقابلنا فى مكان حددناه لنواصل الهرب سوياً . . . وكنا ننتمى إلى مهن مختلفة . فكان إحدانا فلاحاً والثانى محاسباً والثالث بناء والرابع سمساراً للمنازل . وكنت أنا من رجال الدين . . .

ووصلنا إلى المحطة فى الوقت المناسب لنستقل قطاراً ذاهباً إلى شيليا بنسك . فأسرعنا إليه دون أى تأخير . وكان هدفنا أن نذهب إلى طشقند ومنها نهرب إلى تركيا أو إيران أو أفغانستان

ولن أحاول لضيق المكان أن أدخل فى تفاصيل مغامرتنا ، ولكن يكفى أن أقول إننا استطعنا السفر بسبب الفوضى التى كانت تسود روسيا فى تلك الأيام ولأننى وأحد زملائنا كنا نتكلم الروسية بطلاقة . لقد كنا خارجين على القانون بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ولم تكن معنا تذاكر سفر . فكلما واجهنا

المسئولين من رجال السكك الحديدية أو البوليس السرى أو الميلشيا استعنا بالأكاذيب على التخلص من المآزق . . . وكنا قد أخذنا معنا كماشة لنفتح بها أبواب عربة القطار ونهرب إلى العربات الأخرى إذا شعرنا برجال البوليس أو مفتش القطار فى الناحية الأخرى . . . وكنا نحاول الحصول على الطعام فى المحطات التى زودت بتسهيلات خاصة للجنود . وكان الناس كثيراً ما يحسبوننا جنوداً عائدين من الجبهة .

وبعد أربعة أيام وصلنا إلى بلدة تشكالوف حيث كان علينا أن نستقل قطاراً جديداً إلى طشقند . ولكن ذلك القطار كان قد تأخر موعده ستة أيام ! ! . وكنا ننام فى حديقة تواجه المحطة ولم يكن من الصعب علينا الاختفاء وسط المئات من المهاجرين الذين كانوا مكدسين هناك . . . ولما وصل القطار أخيراً كان من السهل جداً علينا أن نستقله بفضل قطعة من الخبز وزنها حوالى ٢٠٠ جم رشونا بها عاملا من عمال السكك الحديدية . فقادنا إلى عربة ضيقة مكدسة بالمسافرين .

وبعد ستة أيام وصلنا إلى طشقند حيث مكثنا أسبوعاً ثم قررنا أن نذهب إلى ستالينا بار . وكنا نعرف أن القطار الذاهب إلى هذه المدينة يسير أميالا عديدة بمحاذاة الحدود الأفغانية الروسية . وكنا نأمل أن نعبر الحدود فى الطريق وبذا نصبح آمنين ، غير أن أمانينا لم تتحقق فقد كانت الحراسة شديدة على

المحطات وعلى الحدود . فاضطررنا للذهاب فعلا إلى ستالينا بار .

وأصبحت حالتنا غاية فى السوء . ونمنا فى المحطة مدة يومين . وكنت مرهقاً لدرجة أنني لم ألحظ أن حذائى قد سرق منى أثناء نومى . ولم يكن قد تبقى معى إلا ساعتى فبعتها لأشترى زوجاً جديداً من الأحذية . . .

ولم نجد مخرجاً من هذا المأزق إلا أن نذهب إلى مكتب التجنيد المحلى ونقول للمسئولين فيه إننا أستونيين من الوحدة الأستونية ، كنا قد منحنا أجازة مرضية وأننا الآن قد شفينا تقريباً ولذا نحب أن نلحق بوحدتنا . ولما سئلنا عن أوراقنا قلنا إنها سرقت منا . فصدقنا المسئولون لأن حوادث السرقة كانت عادية ومنتشرة جداً فى تلك الأيام . . . وكان علينا أن نجتاز اختباراً طبياً مكثنا فى انتظاره أسبوعاً ، وارتاحت نفوسنا إذ لم نعد خاضعين على القانون . وصرف لكل منا ٥٥٠ جم من الخبز وطبقين من الحساء فى اليوم كما منحنا الأوراق اللازمة إلى جانب تصريح نستطيع أن نحصل بواسطته على الطعام طوال الطريق . واجتزنا الاختبار الطبى وغادرنا ستالينا بار فى الحال ووصلنا إلى ترميس بالقرب من الحدود الأفغانية . . . ولكننا للمرة الثانية لم نفلح فى عبور الحدود . . . وكانت تصاريحنا الخاصة بالسفر بالقطارات تدل على أننا متجهين إلى الشمال ولكننا اتجهنا نحو الغرب ووصلنا إلى اشكنابار محاولين التسلل

إلى إيران لكننا علمنا أن الجيش الأحمر كان يحتل الجزء الشمالى منها فرجعنا أدراجنا ووصلنا إلى مرى حيث أستقللنا قطاراً آخر متجهاً إلى كوشكا . وبعد أن قطع القطار حوالى ٢٠٠ كم لاحظنا أن كل المدنيين غادروه ولم يبق به إلا بعض رجال البوليس السرى والجيش الأحمر . وكان ذلك دليلا على أن القطار يقترب من منطقة الحدود . وغادرنا القطار فى الساعة الثانية من صباح اليوم التالى متسترين بالظلام — وأسرعنا إلى التلال المجاورة محاولين أن نبتعد قدر طاقتنا عن القرى المجاورة . وظللنا نسير حتى أشرق الفجر فتوقفنا طلبا للراحة إذ من الخطر البالغ أن نستمر فى السير أثناء النهار . ولم يكن معنا من الطعام غير بعض الخبز الجاف كان يكفينا ستة أيام فقط لو حصل كل منا على ١٠٠ جم فقط فى الصباح ومثلها فى المساء . . .

وفى تلك الأثناء ظهر ما فى خريطتى البدائية من منافع . إذ كلما اقتربنا من الحدود كلما زاد الخطر ولم نكن نجرؤ على أن نظهر أنفسنا للسكان . فقد حدث حوالى عام ١٩٣٥ أن استبدل سكان الحدود بغيرهم من أشد المتعصبين للشيوعية . وظللنا نسير طوال الوقت بالقرب من نهر يتجه إلى أفغانستان وانقضت أربع ليال قطعنا فى كل منها ما يقرب من ٤٠ كيلومتراً ثم بدأنا نقلق إذ لم نكن قد عبرنا الحدود ولم تكن هناك أية علامة على اقترابنا منها . وكنا نخشى أن نكون قد ابتعدنا عن الحدود

بدلا من الاقتراب منها . وأخيراً قررنا القيام بمحاولة خطيرة . فأرسلنا أحدنا إلى قرية قريبة ليحصل على المعلومات اللازمة وقد أوقعتنا هذه الجرأة فى كثير من المتاعب . لكننا استطعنا أن نحصل على المعلومات اللازمة وفى اليوم الثانى من نوفمبر سنة ١٩٤٢ عبرنا الحدود . وهكذا أصبحنا فى أفغانستان حيث سلمنا أنفسنا للمسئولين راجين إياهم ألا يعيدوننا إلى روسيا .

وهكذا استطعنا الهرب بعد رحلة دامت شهراً ونصف شهر قطعنا خلالها حوالى ٣٠٠٠ كم .

وقررت السلطات الأفغانية اعتقالنا فألقت بنا فى أحد سجون كابول لمدة عامين . وأخيراً أتت الحكومة البريطانية فى الهند لنجدتنا فأفرج عنا ووصلنا إلى الهند فى يوم ٢٢ مايو عام ١٩٤٤ . وفى الهند أحسسنا فعلا بزوال مخاوفنا وبأننا قد أصبحنا أحراراً .

وعملت مبشراً فى الهند . وهناك علمت أن عائلتى قد نجحت فى الهرب إلى ألمانيا كما نجح أقاربى فى الهرب إلى السويد قبل أن يحتل الجيش الأحمر أستونيا بمدة قصيرة . . . واستطعت أخيراً بعد جهود شاقة أن تلحق بى عائلتى فى الهند عام ١٩٤٦ بعد أن انقطعت صلتى بها لمدة خمسة أعوام .

إن هذا الذى رويته هو صورة حقيقية محايدة للحياة فى الاتحاد السوفييتى كما شاهدتها بنفسى ، كما أنه وصف قصير — ولكنه حقيقى — للأهوال التى لاقيتها أنا والآلاف ، بل الملايين ، ممن أوقعهم حظهم العاثر فى أيدى الشيوعيين » .

الفصل الرابع

قيود فى البلطيق

١

فى يوم ١٥ نوفمبر عام ١٩١٧ أعلن إليانوف لينين . رئيس مجلس مندوبى الشعب ، وجوزيف جوجاشفيلى ستالين ، مندوب الشعب للشئون القومية ، عن سياسة جديدة لتقرير المصير . فاديا بالعبارات الرنانة التالية :

« يجب أن نبطل السياسة القديمة لتحل محلها سياسة أمينة صريحة تؤدى إلى تبادل الثقة الكاملة بين الشعوب الروسية . وعلى هذا الأساس وحده يمكننا أن نحقق الوحدة الدائمة لسائر الشعوب الروسية ، وأن نجعل من الفلاحين والعمال قوة ثورية واحدة تستطيع أن تقاوم مكائد الرأسمالية والبرجوازية » .

وهكذا أقر المؤتمر الأول لمجالس السوفييت حق الشعوب الروسية فى تقرير مصيرها بحرية تامة ، كما أكد المؤتمر الثانى لمجالس السوفييت هذا الحق مرة أخرى فى أكتوبر .

وتنفيذاً لإرادة المؤتمر هذه ، قرر مجلس مندوبى الشعب الموافقة على تطبيق المبادئ التالية فى معاملة الجنسيات :

١ ــ الحرية والسيادة لشعوب روسيا .

٢ ــ حق الشعوب الروسية فى تقرير مُصيرها بحرية تامة حتى ولو أدى ذلك إلى انفصالها وتكوين ولايات مستقلة .

٣ ــ إلغاء كل نوع من أنواع القيود والامتيازات الدينية والقومية .

٤ ــ حرية تنمية الأقليات القومية والسلالات التى تعيش فى الأراضى الروسية .

ويجب الإسراع بوضع اللوائح التى تستلزمها المبادئ السابقة . حال تكوين لجنة للشئون القومية .

وفى ٢ فبراير عام ١٩٢٠ وقعت فى مدينة تارتو معاهدة بين روسيا وأستونيا . . وجاء فى المادة الثانية من المعاهدة أنه :

« على أساس حق الشعوب بجميعها فى تقرير مصائرها بحرية تامة ــ حتى لو أدى ذلك لانفصالها نهائياً عن الدولة التى تكون هذه الشعوب جزءاً منها ، وهو حق أقرته جمهورية روسيا السوفييتية الاتحادية ــ تعترف روسيا دون تحفظ باستقلال ولاية استونيا وسيادتها . وتتنازل روسيا باختيارها ، وإلى الأبد ، عن كل حقوق السيادة التى كانت لها سابقاً على الشعب الأستونى والأراضى الأستونية طبقاً للوضع القانونى السابق وبمقتضى المعاهدات الدولية التى ستصبح من الآن فصاعداً غير ذات موضوع ، إقراراً لهذه الحقوق » .

وقد استخدمت نفس العبارات السابقة فى المعاهدات التى

عقدتها روسيا مع لاتفيا ولتوانيا ... ومع ذلك، فبعد مضى تسعة عشر عاماً ، تآمر الاتحاد السوفييتى وغزا هذه الولايات المستقلة. ومع أن ولايات دول البلطيق لم تصبح نتيجة لهذا الغزو ولايات سوفييتية إلا فى عام ١٩٤٠ إلا أنه كان من جراء الاضطرابات التى سادت الاتحاد السوفييتى عام ١٩٤٠ أن تركت القيادة العامة للجيش الأحمر وراءها خريطة يرجع تاريخها إلى عام ١٩٣٩ ، كانت تعتبر هذه الدول جمهوريات سوفييتية .

ولما لم تكن الولايات المتحدة قد اعترفت بعد بضم هذه الولايات لروسيا طبقاً لحق الغزو ، كان من رحلوا من شعوب دول البلطيق إلى معسكرات السخرة فى الاتحاد السوفييتى أكبر فريق من الشعوب غير السوفييتية التى أرغمت على العمل فى ظل نظام السخرة الذى عرفته الشعوب السوفييتية واكتوت بناره وقتاً طويلا .

وحين وقف مسيو كاريل بوستا ، وزير خارجية أستونيا سابقاً ، ليدلى بشهادته أمام لجنة التحقيق فى أعمال السخرة يوم ٢٤ فبراير عام ١٩٤٩ ، صرح بقوله « فى يوم ٢٢ نوفمبر عام ١٩٤٧ ، قدم ممثلو أستونيا ولاتفيا ولتوانيا الدبلوماسيون المعترف بهم فى الولايات المتحدة التماساً إلى رئيس الجمعية العامة للأمم المتحدة يفضحون فيه مؤامرة وحشية مدبرة « للقتل الجماعى » فى دول البلطيق التى يحتلها السوفييت .

فى خلال أسبوع واحد (من ١٤ إلى ٢١ يونيو عام ١٩٤١) رحل ٣٤٢٦٠ من اللتوانيين فى عربات البضاعة بطريقة غير إنسانية أدت إلى وفاة الآلاف منهم فى القطارات وفى سجون الترحيل قبل وصولهم إلى وجهتهم .

لقد أرغم الرجال على ترك زوجاتهم وأرغمت الأمهات على الانفصال عن أطفالهن ، وأرسل من تبقى من الرجال حياً إلى معسكرات السخرة فى شمال سيبيريا وفى جبال ألتى وفى كازاخستان كما أرسلت النساء إلى المزارع الجماعية أو إلى مصايد الأسماك عند مصب نهر لينا ، أما الأطفال فلم يسمع أحد عنهم شيئاً .

وفى الوقت نفسه ، اعتقل ١٥,٠٠٠ من اللاتفيين ورحلوا . . كما اختفى ٦٠,٠٠٠ من الأستونيين فى مدة شهرين ونصف شهر (أبريل إلى يونيو ١٩٤١)

وفى شهر أكتوبر عام ١٩٤٦ ، كان معسكر فورتوكا للترحيل الذى يقع فى المنطقة القطبية من روسيا الشمالية يضم ١٠٠,٠٠٠ من اللتوانيين و ٦٠,٠٠٠ من اللاتفيين و ٥٠,٠٠٠ من الأستونيين . وبرغم أن نسبة الوفاة تتراوح بين ٣٠ فى المائة إلى ٢٥ فى المائة من المسخرين كل عام ، إلا أن الشيوعيين يملأون الفراغ الناتج بواسطة « واردات » شهرية منتظمة من كل من دول البلطيق الثلاث ، تضم عدداً يتراوح بين ١,٥٠٠

و ٣,٠٠٠ شخص .

وقد أذاع راديو تاللين السوفييتى فى ١٤ مايو عام ١٩٤٦ ، أن تعداد أستونيا — وكان مجموع أفراده ١,١٣٤,٠٠٠ نسمة فى أول يناير عام ١٩٣٩ — قد نقص بمقدار الربع نتيجة لظروف الحرب . . والآن يقول الكولونيل بولينيه ، أحد ضباط التوطين السوفييت فى ألمانيا ، إن تعداد أستونيا قد بلغ ١,٥٠٠,٠٠٠ نسمة فى ديسمبر عام ١٩٤٧ . والتفسير الوحيد لهذه الزيادة المفاجئة فى عدد السكان هو أن آلاف الروس قد أحضروا إلى أستونيا ودول البلطيق الأخرى ، فى حين نقل السكان الأصليون إلى المناطق النائية من روسيا القطبية وسيبيريا ، وكامتشاكا ، وساخالين ، وحتى إلى جزر كوريلى التى كانت سابقاً فى حوزة اليابان . . فبالقرب من هابارونفسك مثلا ، حجز حوالى مليونى فدان من الأراضى القاحلة ليستوطنها الفلاحون الأستونيين المرحلون .

وشهد بعض الذين هربوا إلى السويد أن هناك أيضاً كثير من معسكرات السخرة فى دول البلطيق . . . فهناك معتقل ضخم فى كوتلا — جارفى بأستونيا ، حيث يعمل الأستونيون واللتوانيون واللاتفيون وبعض الفنلنديين فى آبار البترول . كما أن فى بلدتى لافاسار وفاساليا بأستونيا معتقلات أكبر حجماً تضم الأيدى العاملة اللازمة لصناعة الوقود ولتقطيع الأحجار...

هذا فضلا عن أن الأيدى العاملة المسخرة وحدها هى التى قامت بإزالة الخرائب والأنقاض من المدن التى دمرتها الحرب .

لقد كان إنشاء مصانع الأسلحة الجديدة ، وتنفيذ مشروعات السنوات الخمس السوفييتية ، يحتاج إلى ملايين الأيدى العاملة الرخيصة. ولهذا فإن حوادث الترحيل والاعتقالات الجماعية فى الاتحاد السوفييتى ليست لها نهاية . . وتفادياً لتبديد القوى العاملة ألغيت عقوبة الإعدام فى عام ١٩٤٧ واستبدلت بعقوبة الأشغال الشاقة مدى الحياة أو لعدد كبير من السنوات. ومع ذلك فلم يحدث حتى الآن أن استطاع شخص يتمتع بقوة جسمانية عادية أن يتحمل هذه العقوبة لمدة تزيد على خمس سنوات !

ومعظم من تضمهم معسكرات السخرة من الفلاحين . والعمال ، غير أنها تضم أيضاً بعض أعضاء الحكومات الوطنية والدبلوماسيين ورجال القلم ورجال الدين الذين لم يستطيعوا الهرب إلى السويد أو إلى أوربا الغربية .

ومن الواضح أن المقصود بهذه الإجراءات السوفييتية هو القضاء على الأستونيين واللاتفيين واللتوانيين — وهذا العمل جريمة يطلق عليها اسم « إبادة الأجناس » .

والآن يتكون الجزء الأكبر من سكان دول البلطيق الحاليين من غرباء متطفلين ، إذ أن الروس قد استقروا هناك وامتهنوا الفلاحة والصناعة ، بل إن القحة قد بلغت بهم الحد الذى أطلقوا

فيه على أنفسهم أسماء من حلوا محلهم من الأستونيين واللاتفيين واللتوانيين المطرودين » .

وكتب الدكتور . ا . رى ، الرئيس السابق لجمهورية أستونيا الذى يستوطن ستوكهولم حالياً ، إلى لجنة التحقيق فى أعمال السخرة يقول :

« فى صيف عام ١٩٤١ ، طرد الجيش الألمانى جيش الاحتلال السوفييتى من أستونيا واحتلها بدوره . . ولم يكن الاحتلال الألمانى الذى استمر حتى خريف عام ١٩٤٤ يختلف كثيراً عن الاحتلال السوفييتى ، فتعرض الأستونيون لسلسلة جديدة من حوادث الاغتيالات والاعتقالات الألمانية .

وفى أكتوبر عام ١٩٤٤ احتل السوفييت أستونيا مرة أخرى ، وعادوا لمعاملة الأستونيين بنفس الوحشية والقسوة التى كانوا يعاملونهم بها من قبل . . .

ويستحيل علينا أن نحدد بدقة عدد الأستونيين الذين قتلوا أو اعتقلوا أو رحلوا إلى روسيا فى فترة الاحتلال السوفييتى الثانية ، ولكننا نستطيع أن نقرر أن الذين اعتقلوا ورحلوا فى المده من عام ١٩٤٤ إلى فبراير سنة ١٩٤٩ كان عددهم أكبر كثيراً من عدد أولئك الذين رحلوا أو اعتقلوا فى الفترة الأولى للاحتلال السوفييتى . وكان عدد من فقدتهم أستونيا فى الفترتين يزيد كثيراً على ١٠ ٪ من مجموع سكانها .

وكان الألمان قد جندوا بالقوة عدداً من الرجال ، فلما أتى السوفييت قبضوا عليهم ورحلوهم إلى معسكرات السخرة فى روسيا الشمالية والأقاليم المجاورة للينجراد فى عامى ١٩٤٤ و ١٩٤٥ .

وقبيل عيد الميلاد فى عام ١٩٤٥ وفى فبراير ١٩٤٦ قامت السلطات السوفييتية بحركتين ضخمتين للترحيل الجماعى تشبهان تلك التى حدثت أثناء الفترة الأولى للاحتلال ، من ١٤ إلى ١٦ يونيو عام ١٩٤١ ، كما كانت حوادث الاعتقالات الفردية تقع كل ليلة تقريباً .

وأصبحت تالين تضم أربعة سجون فى حين لم يكن فيها إلا سجن واحد حين كانت أستونيا مستقلة ، فإذا امتلأ أحدها أرسل السجناء فى قطارات الماشية القذرة إلى معسكرات السخرة فى روسيا . وأصبح الناس يعيشون فى فزع دائم ، فلا أحد منهم يعرف متى يأتى دوره أو دورها فيرحل أو يعتقل .

واختار السوفييت بعض الجزر الأستونية لاستخدامها كقواعد بحرية فقاموا بإخلائها من سكانها جميعاً ورحلوهم إما إلى بحر قزوين أو إلى الشرق الأقصى على سواحل المحيط الهادى .

ولم يكن الأستونيون الموجودون فى أستونيا هم وحدهم الذين يرحلون إلى روسيا ، بل كان السوفييت كذلك يرحلون الأستونيين الذين عثروا عليهم فى تشيكوسلوفاكيا وبولندا وألمانيا

الشرقية حيث كان الألمان قد أرغموهم على العمل فى الصناعات الحربية وجندوا بعضهم فى صفوف القوات الألمانية المسلحة . وكان آخر حوادث الترحيل هذه فى ربيع عام ١٩٤٩ حين استعان الروس بالبوليس الألمانى على تطويق القليلين من ذوى الأصل البلطيقى الذين كانوا فى ألمانيا الشرقية ، ورحلوهم إلى روسيا . . »

ولا نتعدى الحقائق حين نقول إن برنامج مدارس « العمل الاحتياطى » الذى يخضع له الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ١٤ عاماً و ١٧ عاماً ، ليس إلا برنامجاً مقنّعاً للعمل الإجبارى .

وفى ٢ أكتوبر عام ١٩٤٨ أصدر المجلس السوفييتى الأعلى للاتحاد السوفييتى مرسوماً بإنشاء مدارس العمل الاحتياطى (المصانع والسكك الحديدية والمدارس الصناعية والبحرية) وتعبئة الأطفال والقصر للانضمام إلى هذه المدارس .

ويقول مستر رى رئيس جمهورية أستونيا السابق ، ان المرسوم ينص على إلزام من تتراوح أعمارهم بين ١٤ عاماً و ١٧ عاماً بالالتحاق بمدارس العمل الاحتياطى بنسبة طفلين لكل مائة من السكان تقريباً .

وتقوم اللجنة التنفيذية المركزية باختيار هؤلاء الأطفال دون أن يكون للأطفال أنفسهم أو لآبائهم رأى فى الموضوع .

ورحل آلاف الصبيان الأستونيين إلى روسيا بهذه الطريقة

فى حين أرسل الصبيان الروس إلى أستونيا للالتحاق بمدارس العمل الاحتياطى ثم العمل فى الصناعات الأستونية بعد تخرجهم فيها .

وفى ٢٨ مايو عام ١٩٤٨ أعلن راديو تاللين أنه قد اقترح إلحاق ٤٠,٠٠٠ صبى أستونى بهذه المدارس وذلك حتى يتم مشروع السنوات الخمس الحالى (أى حتى عام ١٩٥٠) وكان هذا معناه أنه قد حكم بالعمل الإجبارى على ٤٠,٠٠٠ صبى .

٢

ويعتبر العائدون من أسرى الحرب الألمان ، وخاصة القادمون منهم من دول البلطيق ، مصدراً هاماً للمعلومات وقد روى بعض هؤلاء الأسرى القصة التالية :

فى يوليو عام ١٩٤٨ قام السوفييت بحركة ترحيل واسعة النطاق فى مدينة فينيس اللتوانية والمناطق المحيطة بها ، وحصل أسرى الحرب على يوم أجازة إذ كانت اللوريات التى تنقلهم إلى محل أعمالهم قد سحبها رجال البوليس السرى لإتمام عملية الترحيل التى اشتركت فيها حتى الجيوش النظامية .

وقامت وحدات الجيش الأحمر والبوليس السرى بتطويق

قرى وأحياء كاملة فى المدن واقتحمت الدوريات القرى والمنازل للقبض على المرحلين الذين اقتيدوا إلى محطات السكك الحديدية حيث كانت فى انتظارهم قطارات الماشية التى زودت نوافذها بقضبان من حديد .

وكان من بين هؤلاء المرحلين سائر الذين كانوا يشغلون مناصب عامة فى لتوانيا المستقلة وسائر من كانوا يعتبرون غير موثوق بهم سياسياً ، فضلا عن كل الفلاحين الذين رفضوا الانضمام إلى المزارع الجماعية أو الذين كانوا لا يزالون يملكون حصانين أو يملكون مزارع على حظ من العناية — لقد أطلق السوفييت على كل هؤلاء اسم « الكولاك » أى الرأسماليين ومنحوهم مهلة ١٥ دقيقة لإعداد متاعهم ، وحملوهم هم وعائلاتهم إلى المنفى .

وكانت عربات الماشية التى حملت هؤلاء المرحلين التعساء مصفحة مزودة بالأقفال وسدت نوافذها بالقضبان الحديدية الغليظة . وفضلا عن أن هذه العربات كانت ينقصها التسهيلات الهوائية اللازمة لنقل بنى الإنسان ، فقد كدس فى كل منها ثمانون شخصاً فى حين أنها لم تكد تسع أربعين شخصاً على أكثر تقدير . وكان عدد اللتوانيين الذين رحلوا فى صيف عام ١٩٤٨ يتراوح بين ٧٠,٠٠٠ و ٨٠,٠٠٠ نسمة .

ولم تكن لاتفيا بأسعد حظاً من لتوانيا إذ شهدت حركة

ترحيل مماثلة فى نفس الفترة .

ويقول أسرى الحرب الألمان العائدون من الاتحاد السوفييتى إنهم قد شاهدوا فى روسيا الوسطى بين كويبيشيف وسمولنسك ٢٥ قطار بضائع مكدس بالمرحلين من لاتفيا . وكان الرجال قد فصلوا عن النساء والأطفال . وكانت غالبية المرحلين من المزارعين الذين منحهم رجال البوليس السوفييتى مهلة ٣٠ دقيقة لإعداد حاجياتهم قبل إبعادهم عن وطنهم .

وكان مسموحاً لكل شخص بأن يحمل معه متاعاً زنته ٣٠ كيلوجراماً . . وكان السبب فى ترحيلهم بقدر ما يعرف المرحلون أنفسهم هو ما عرف عنهم من عداء للسوفييت عموماً ولرفضهم الانضمام طواعية إلى المزارع الجماعية .

ويؤكد عدد من المصادر أن دبابات الجيش الأحمر قد خرجت إلى شوارع لاتفيا لتساعد على إتمام عملية الترحيل ولتقمع ما قد يحدث من ثورات أو اضطرابات . كما قيل ان عدد المرحلين هذه المرة كان أكبر بكثير من عدد الذين رحلوا عام ١٩٤١ .

وبالإضافة إلى القطارات السابقة، شوهدت سبعة قطارات بضائع أخرى مكدسة بالمرحلين والسجناء من المدنيين من لاتجاليا ، كانت تسير على الخط الحديدى الموصل بين كالنين وبرست — لوفستك .

وكانت غالبية هؤلاء المرحلين من النساء والأطفال بالإضافة إلى عدد صغير من الرجال المسنين إذ كان الشبان قد رحلوا قبلا كما قالت هؤلاء النساء .

وقال أحد الألمان المفرج عنهم من سيبيريا انه قابل المرحلين اللاتفيين فى فبراير عام ١٩٤١ فى معسكر على نهور تورا . وكان أغلبهم من النساء والرجال المسنين الذين تتراوح أعمارهم بين ٦٠ و ٧٠ عاماً فضلا عن عدد ضئيل من الأطفال .

وكان هؤلاء المسخرون يعملون فى مصانع نشر الأخشاب ويحملون الألواح وجذوع الأشجار طوال النهار . وبالرغم من أن درجة البرودة كانت تصل إلى ٤٠ فهرنهيت تحت درجة التجمد فقد كان المرحلون يلبسون أحذية خشبية كما كانوا يعيشون فى الأسابيع الأولى لوصولهم على الأغذية التى حملوها هم أنفسهم معهم .

وتدل الخطابات التى هربت من لاتفيا فى شهرى أبريل ومايو عام ١٩٤٩ على أن حركة الترحيل قد استمرت طوال شهر أبريل مما أدى إلى تعطيل سفر المدنيين بالسكك الحديدية إذ خصصت كل القطارات لنقل المرحلين .

وكانت المناطق الواقعة على شاطئ البحر هى التى نالت حظاً أوفر من الوحشية . فمن ميناء ڤنتسبلز وحده (الذى يبلغ تعداده حوالى ١٥,٠٠٠ نسمة) خرجت ستون من عربات الماشية المكدسة

بالمرحلين فى طريقها إلى سيبيريا . . وقد انتشرت فى لاتفيا وقتئذ إشاعة مؤداها أن هؤلاء المرحلين لم يحكم عليهم بالسخرة لمدة معينة بل إنهم قد استوطنوا نهائياً فى المناطق الجرداء النائية من آسيا السوفييتية .

وفي ٢٨ أكتوبر عام ١٩٤٩ ، تسلمت لجنة التحقيق فى أعمال السخرة تقريراً مؤداه أن الصناعة فى لاتفيا تعتمد اعتماداً كلياً على الأيدى العاملة للسجناء وأسرى الحرب . ولكن الأحوال قد تغيرت فى الوقت الذى وصل فيه هذا التقرير ، وإن كانت المصانع لا تزال هناك . فهناك مثلا معتقلات ملحقة بمصنع الآلات الكهربائية ببلدة ريجا ، وذلك لتسهيل نقل المعتقلين الذين يسخرون للعمل فى هذا المصنع .

وتشير كل الدلائل إلى أن السلطات السوفييتية كانت تدخل السجناء وأسرى الحرب فى حسابها حين أعلنت أن عمالها يبلغ عددهم ١١٨,٠٠٠ عامل .

وكانت السلطات الروسية قد أذاعت هذا الرقم لتدلل على أن الأيدى العاملة قد زادت بمقدار ٢٠ ٪ عنها فى عام ١٩٣٨ . والحقيقة أن السلطات قد استطاعت أن تحقق هذه الزيادة فى الأيدى العاملة برغم الخسائر البالغة فى الأرواح التى عانتها تلك المنطقة نتيجة للحرب ، وبرغم هروب الكثيرين والآلاف ممن رحلتهم السلطات . وكانت حالة النقص الخطير فى الأيدى

العاملة فى المدن (إذ هاجر كثير من العمال إلى القرى) قد أدت إلى تعبئة « العمل المجانى » واستخدام المسجونين وأسرى الحرب واستيراد الأيدى العاملة من روسيا . إذ لولا ذلك لما استطاعت لاتفيا الاستمرار فى مواصلة صناعاتها .

ويعمل البوليس السوفييتى على الحصول على الأيدى العاملة اللازمة له بطرق أخرى إلى جانب تلك التى نص عليها قانون العقوبات السوفييتى والذى يطبق الآن فى دول البلطيق طبعاً .

ففيما بين عامى ١٩٣٩ و ١٩٤١ كان سجل عمليات البوليس السرى السوفييتى يحوى قوائم تسعة وعشرين نوعاً من الأشخاص الذين سجلت أسماؤهم بغية اعتقالهم وترحيلهم إلى روسيا فى المستقبل .

« وسجل عمليات » البوليس السرى كتاب سرى يستخدم بصفة خاصة فيما يتعلق بالاعتقالات المزمع تنفيذها فى الجمهوريات السوفييتية الجديدة وهى لاتفيا وأستونيا ولتوانيا .

وفيما يلى قائمة بأنواع الأشخاص المزمع ترحيلهم .

١ ــ الذين يدينون بمذهب تروتسكى .

٢ ــ الفوضويون من أعداء الحكومة

٣ ــ الإرهابيون .

٤ ــ الثوريون الاشتراكيون .

٥ ــ الأعضاء البارزون فى الأحزاب غير الشيوعية كالديمقراطيين والاشتراكيين والأحرار وصغار الملاك وصغار المزارعين إلخ .

٦ ــ العناصر الفاشية المعادية للثورة .

٧ ــ الأعضاء العاملون فى المنظمات المعادية للسوفييت

٨ ــ الأعضاء العاملون فى منظمات يهودية معادية للثورة كالمنظمات الصهيونية

٩ ــ الأعضاء العاملون فى منظمات المهاجرين من الروس البيض .

١٠ ــ العناصر المعادية للسوفييت على اختلاف أنواعها كالانحلاليين ودعاة الهزيمة ومروجى الإشاعات .

١١ ــ الذين يشتركون فى مظاهرات معادية للسوفييت والذين يضربون عن العمل والذين يعارضون نظام المزارع الجماعية إلخ .

١٢ ــ الصوفيون كالماسونيين الأحرار .

١٣ ــ الأشخاص الذين كانوا يشغلون مناصب هامة فى أستونيا المستقلة .

١٤ ــ الضباط والصولات فى الجيش العامل

١٥ ــ الأعضاء البارزون والعاملون فى الحرس الوطنى .

١٦ ــ رجال البوليس

١٧ – رجال الحدود من ذوى الميول غير السوفييتية .

١٨ – موظفو السجون وحراسها .

١٩ – المدعون العموميون ورجال النيابة والمحامون الذين حاربوا الثورة بالإضافة إلى كل المدعين فى القضايا السياسية .

٢٠ – رجال الصناعة وتجار الجملة وملاك العمارات الكبيرة وكبار ملاك الأراضى وأصحاب السفن وأصحاب المطاعم والفنادق .

٢١ – الأشخاص الذين ينحدرون من أصل أرستقراطى .

٢٢ – الأشخاص الذين عملوا فى السلك السياسى .

٢٣ – الوكلاء الدائمون للشركات التجارية الأجنبية .

٢٤ – أقارب الأشخاص الذين هربوا إلى الخارج .

٢٥ – أقارب الأشخاص الذين قاموا فى الخارج بدعاية ضد السوفييت .

٢٦ – الجواسيس .

٢٧ – الألمان

٢٨ – الأقارب الأقربون للأشخاص الذين أدانتهم الحكومة السوفييتية .

٢٩ – العناصر الإجرامية – كالبغايا والمراهنين ومهربى الأسلحة وأصحاب دور الرذيلة . .

ومما لا شك فيه أن البوليس السرى يستطيع بالقبض على

كل هؤلاء أن يحصل على آلاف الأيدى العاملة للمنشئات الصناعية الضخمة التى يديرها !!

٣

وإذا كانت المزارع الجماعية فى الاتحاد السوفييتى أحد الأسباب التى أدت إلى إنشاء معسكرات السخرة على النطاق الواسع الحالى ، فإن من الأهمية بمكان أن نرقب كيف حاول الاتحاد السوفييتى أن يطبق هذا النظام فى دول البلطيق .

لم يكن إقناع المزارعين فى دول البلطيق بالانضمام إلى المزارع الجماعية أمراً هيناً على الإطلاق وكانت الخطوة الأولى التى تتخذ نحو الإقناع هى حرمان الفلاح من أرضه وذلك عن طريق فرض ضرائب عينية مرهقة ، عليه أن يؤديها للدولة من محصول أرضه ومن معداته وماشيته أيضاً حتى يمكن تزويد المزارع الجماعية الجديدة فى دول البلطيق بالآلات اللازمة . . وكانت السلطات أيضاً تفرض على الفلاحين القيام بأعمال معينة ، سميت بأعمال السلطة ، يعاقبون عقاباً صارماً إذا لم يؤدوها على الوجه الأكمل . . وتشبه أعمال السلطة تلك الأعمال التى كان يفرض على الرقيق أداؤها لصالح الإقطاعيين .

وهناك نوعان من « أعمال السلطة » — أعمال السلطة الفردية وهى التى يقوم بها فرد واحد أو مزرعة واحدة ، وأعمال السلطة

الجماعية التى يقوم بها عدة أفراد أو عدة مزارع تتعاون سوياً .

وقد يحصل الذين يقومون بأعمال السلطة الفردية على مكافآت ضئيلة وذلك إذا كانوا يعملون فى الغابات ورصف الطرق، أو لا يحصلون على أية مكافأة على الإطلاق إذا كانوا يقومون بأعمال متفرقة . . أما الذين يقومون بأداء أعمال السلطة الجماعية فلا يحصلون على أية مكافأة على الإطلاق . وهناك بعض أنواع السلطة الإجبارية فى المناطق الريفية ، يقوم الموظفون ومنظمو الحزب بالإشراف على إتمامها .

فكل مزارع . رجلا كان أو امرأة يدير مزرعة ما عليه أن يقوم بعمل السلطة التالية :

١ ــ أن يقطع كمية معينة من الأشجار .

٢ ــ أن ينقل كمية معينة من الأشجار إلى محطات السكك الحديدية أو البحيرات أو مصانع نشر الأخشاب .

٣ ــ أن يصلح مساحة معينة من الطريق الزراعى بعد أن ينقل إليه المهمات اللازمة .

٤ ــ أن يقوم بنقل حاجيات الجمهور على عربة تجرها الخيول .

وبالإضافة إلى ما تقدم يكلف الفلاحون بالقيام بالأعمال التالية :

١ ــ إزاحة الجليد عن الطرق فى الشتاء .

٢ ــ الاشتراك فى بناء وإعداد التحصينات .

٣ ــ القيام بخدمات النقل المختلفة ، كنقل مواد البناء إلى المنافع العامة وإلى الطرق التى تقوم الحكومة بصيانتها .

وليس هذا هو كل شىء فهناك أعمال السلطة الجماعية إذ تفرض إدارات الحكومة ووكالاتها على كل حى من الأحياء كمية معينة من أعمال السلطة فتقوم اللجنة التنفيذية بهذا الحى بتوزيع هذه الكمية على المجتمعات والقرى الواقعة فى منطقتها . وبالتالى يقوم ممثلو الحزب واللجان التنفيذية المحلية فى هذه القرى والمجتمعات بتوزيع العمل على الأفراد والمزارع .

ولا يستثنى من أداء أعمال السلطة إلا موظفو اللجان التنفيذية ومندوبو الحزب وبعض الآخرين كمشوهى الحرب ومن شابههم .

وقد تختلف كمية عمل السلطة المنوط أداؤها بالمجتمعات والأحياء المختلفة باختلاف نوع هذا العمل كحجم الغابات وطول شبكة الطرق .

وليس معنى هذا أن يعفى الفلاحون من أعمال السلطة إذا لم تكن هناك غابات أو طرق فى المنطقة التى يعيشون فيها إذ أنهم مكلفون فى هذه الحالة بالقيام بنصيبهم من أعمال السلطة خارج مناطقهم .

وفى شتاء عام ١٩٤٩ كان على مئات الفلاحين أن يقطعوا

مسافة تتراوح بين ثمانية ومائة كيلومتر لأداء نصيبهم من أعمال السلطة وقطع الأشجار ونقلها وذلك فى مناطق غير مناطقهم .

ولكى ندلل على مدى المشاق التى يلاقيها الفلاحون فى مثل هذه الأحوال . نذكر أنه يتحتم عليهم أن يحملوا معهم طعاماً وشراباً يكفيهم أسابيع طويلة بالإضافة إلى المواد اللازمة لإصلاح الأدوات والعربات .

وليست لدينا معلومات دقيقة عن هذا النوع من أعمال السخرة ولكن يمكننا أن نقول إن متوسط ما فرض من أعمال السلطة فى الغابات على كل فرد فى شتاء عام ١٩٤٩ هو ما يأتى :

١ ــ قطع الأشجار : على كل امرأة أن تقطع ١٦ متراً مكعباً من جذوع الأشجار وعلى كل رجل أن يقطع ٣٠ متراً مكعباً منها .

٢ ــ نقل الأخشاب : على كل حصان أن ينقل ٦٠ متراً مكعباً إلى مكان معين .

وجدير بالذكر أن النساء اللاتى توفى أزواجهن أو فقدوا أثناء الحرب أو نفوا إلى روسيا لا يعفين من أعمال السلطة .

وحتى فى الحالات التى يبلغ فيها تنظيم أعمال السلطة ذروته ، يضطر عدد كبير من الفلاحين إلى بذل أقصى الجهد، بل والعمل أثناء الليل أحياناً، بغية الانتهاء من كمية

العمل المكلف بها كل منهم . والحقيقة أن تنظيم أعمال السلطة لم يكن مما يبعث على الرضا عموماً . وفيما يلى ما أوردته جريدة « سينا » الصادرة فى ريجا فى ١٥ فبراير عام ١٩٤٨ :—

« حدث مراراً أن وصل الحطابون إلى الغابة فلم يجدوا من يدلهم على المناطق الواجب على كل منهم قطع أشجارها . كما أن عمال النقل ينتظرون ساعات طويلة بعد شحن عرباتهم فى انتظار الحصول على الوثائق التى تخولهم إفراغ حمولة هذه العربات . . فضلا عن أن مراجعة العملية والإشراف عليها يتم ببطء شديد . . إلخ »

كما كان على كل فلاح عهد إليه بالعمل فى الطرق أن يصلح جزءاً من الطريق يتراوح طوله بين مائتين وثلاثمائة متر . كما كان عليه أن ينقل الأحجار والمواد الأخرى اللازمة لإتمام العمل ... ويعد إصلاح الطرق من أثقل أنواع أعمال السلطة خصوصاً إذا لم تكن المزارع تملك الخيول والقوى العاملة المطلوبة .

وقد أيدت صحيفة « سينا » الرسمية فى عددها الصادر فى ١٥ فبراير عام ١٩٤٨ هذه الحقيقة بقولها .. « لقد وزعت أعمال صيانة الطرق توزيعاً سيئاً فى كثير من الأحيان . فقد عهد مثلا إلى فلاحة عجوز تسمى بافارى بإصلاح ثلاثمائة متر من طريق بلغت حاله مبلغاً كبيراً من السوء . ومن الواضح أن مثل هذه

الفلاحة العجوز لن تستطيع أن تقوم بالعمل الموكول إليها » .

كما كان على كل مزرعة تمتلك حصاناً واحداً على الأقل أن تضع فى خدمة السلطات (لنقل الموظفين وما إلى ذلك) ، عربة « حنطور » يقودها سائق عدداً معيناً من الأيام كل عام . . ويختلف عدد الأيام اختلافاً كبيراً باختلاف المناطق .

وينفق الفلاحون إلى جانب كل ذلك وقتاً طويلا فى أداء بعض أعمال السلطة غير الدورية خصوصاً فى المناطق التى تجرى فيها أعمال البناء ووسائل الدفاع . وكثيراً ما يبدأ العمل فى هذا النوع من أعمال السلطة أثناء موسمى البذر والحصاد ، ومع ذلك فلا تصرف السلطات للفلاحين أى تعويض .

كما يجب على الفلاحين بالإضافة إلى أعمال السلطة الفردية أن ينفقوا أسابيع عديدة كل عام فى أداء أعمال السلطة الجماعية التى لا يمكن للأفراد القيام بها . ولعل أهم أنواع أعمال السلطة الجماعية هو إصلاح الطرق وبناء المصارف .

وقد أصدر مجلس وزراء جمهورية لاتفيا السوفييتية بالاشتراك مع اللجنة المركزية للحزب الشيوعى بلاتفيا قراراً يقضى بتخصيص شهر لإصلاح الطرق كل عام ويقع هذا الشهر بين ٢٥ مايو و ٢٥ يونيو وفى أثنائه يتم كل إصلاح الطرق والكبارى الهامة فى لاتفيا .

أما أعمال الصرف الإجبارية فهى تنظم عادة بين ٥ يونيو و ٥ يوليو من كل عام وقد أذاعت محطة رجا – مادون فى ٩ يونيو عام ١٩٤٨، أن ١٢,٨٨٦ عاملا يعملون طوال شهر يونيو فى تنظيم الصرف .

أما من يفشل فى أداء أعمال السلطة الموكولة إليه فإنه يتعرض لتوقيع العذاب الصارم عليه . وقد أوردت جريدة « سينا » فى عددها الصادر فى ١٠ فبراير عام ١٩٤٨ مثالا على هذا حين قالت :

« عهدت السلطات فى العام الماضى إلى السيدة الفين بورين – مالكة مزرعة أباس فى منطقة بروكنا مركز بارسكا – بقطع سبعين متراً مكعباً من أخشاب الوقود وبنقل هذه الكمية قبل مارس عام ١٩٤٨. ولم تقم السيدة بورين بالعمل الذى عهد إليها القيام به ، فأدانتها المحكمة بتهمة تخريب الغابات وحكمت عليها بالسجن لمدة عامين ومصادرة كل أملاكها الشخصية » .

ولم تقل الجريدة إن هذه السيدة قد نفيت إلى سيبيريا لأن المجرمين الذين يحكم عليهم بالسجن لمدة سنتين أو أكثر لا يسمح لهم بقضاء مدة عقوبتهم فى بلادهم الأصلية .

ويعجب المرء كيف ومتى يستطيع هؤلاء التعساء أداء كل هذه الأعمال الإجبارية المفروضة عليهم ويباشرون فى نفس الوقت مزارعهم الخاصة كى يتعيشوا ويستطيعوا أن يسددوا

للسلطات ما فرضته عليهم من محصولات مزارعهم . ولهذا يضطر الفلاحون بالطبع إلى العمل ١٨ أو ٢٠ ساعة يومياً دون أن يحصلوا على أجازة يوم واحد طوال العام . ولهذا فمن الشائع هذه الأيام أن نرى فى دول البلطيق المزارعين المنهكين الذين يبدو عليهم الإعياء وهم يقومون بقطع أشجار الغابات أثناء الليل .

وليست أعمال السلطة شيئاً جديداً على مزارعى دول البلطيق إذ كانوا يخضعون لمثل هذا النظام منذ قرن ونصف قرن ، حين كانت هذه الدول تعيش فى ظل الإقطاع . . ولكن الفرق الوحيد بين النظامين القديم والجديد هو فى نوع العقوبة . ففى حين كانت أقصى عقوبة يستطيع الإقطاعى فرضها على أحد عبيده هى طرده من المزرعة ، فإن عقوبة الفلاح فى النظام الجديد تتعدى ذلك إلى مصادرة كل أملاكه الشخصية ونفيه إلى سيبيريا .

ويجدر بنا فى هذا المقام أن نطلع على الخطب والأخبار التى أوردتها الصحافة فى أستونيا ، كى نحصل على صورة صحيحة لعملية فرض النظام الجماعى هناك .

ففى ٢٥ ديسمبر عام ١٩٤٩ عقد رؤساء المزارع الجماعية الأستونية اجتماعاً فى تاللين فتحدث إليهم مسيو كاروتام السكرتير الأول لحزب أستونيا الشيوعى قائلا :

« يجب أن يعرف رجال مزارعنا الجماعية ما الذى تتوقعه الدولة منهم وهو أن يبذل كل منهم ما فى وسعه لتحقيق رضاء الدولة وازدهارها . غير أن الرأسماليين وأتباعهم الأذلاء يعوقون تحقيق هذا الرخاء ولذا فعلينا أن نطهر أنفسنا من هذه النفاية . فليس فى المجتمعات الاشتراكية مكان للكسالى والمتمردين .

إن عشرين فى المائة من فلاحينا لم ينضموا إلى المزارع الجماعية بعد . فيجب أن يوضع حد لهذه الحالة الآن . ويجب على المثيرين (أعضاء قسمى الإثارة والدعاية بالحزب الشيوعى) أن يعملوا على إقناع هذه العناصر الرأسمالية بالانضمام باختيارها إلى المزارع الجماعية دون إبطاء . . لأن المزرعة الفردية فى وسط المزارع الجماعية تشبه جزيرة فى وسط محيط سيغرقها حتما .

إننا لا نستطيع أن نحتمل هذه الحال ويجب على المثيرين أن يوضحوا لأعداء النظام الجماعى هؤلاء أنهم إما أن ينضموا إلى المزارع الجماعية باختيارهم أو أن يحزموا أمتعتهم فسنجد لهم مكاناً فى منطقة أخرى . كما يجب على المثيرين ألا يتسرعوا ، إذ يجب منح هؤلاء الأشخاص مهلة للتفكير مدتها ٢٤ ساعة ! »

وبعدئذ أعلن كاروتام أن تسليم الضرائب العينية الإجبارية لعام ١٩٥٠ يجب أن يتم قبل ٢٠ يوليو فقال :

« سيشهد العام القادم نهاية السنة الرابعة لمشروع السنوات

الخمس فيجب علينا أن نفى بما وعدنا به ستالين من إتمام مشروع السنوات الخمس فى أربع سنوات فقط . .

وليست الأحوال فى المدن على قدر كبير من السوء ، فسيمكننا أن ننفذ المشروع هناك بطريقة ما ، غير أن القرى هى التى تعانى كثيراً من نواحى التقصير . ففى العام الماضى لم يسلم الفلاحون إلا ١٨ ٪ زيادة على الكميات المحددة . فيجب علينا أن نعمل هذا العام على تسليم ٤٦ ٪ زيادة على الكمية المحددة كى نستطيع أن نفى بالمشروع . وعلى هذا فعلينا فى العام القادم أن نبذل جهود الجبابرة كى لا نصبح « أغناماً سوداء فى قطيع من البيض » يجب علينا أن نزرع مساحات أكبر وأن نحصد كميات أكبر وأن نعمل بحمية زائدة وأن نواصل العمل بالليل إذا كان النهار لا يكفى .

إنكم جميعاً تعلمون كيف كان الرأسماليون يستغلون هؤلاء الأجراء البؤساء ، فلما تحرر الأجراء من عبودية الرأسماليين . أصبحوا لا يرغبون فى العمل مع أنهم يعلمون أن كل هذا يستهدف رخاءهم وخيرهم وحدهم .

قد تقولون إننا نبذل كل ما فى طاقتنا ولكن هذا ليس عذراً . إذ يجب علينا أن نبحث عن طاقات جديدة . إن قاموس النظام السوفييتى لا يضم عبارات مثل « لا أريد . ولا أستطيع . وهذا هو كل ما فى وسعى » .

لقد ازدادت رغبة العمال جميعاً فى العمل ولم يبق للتراخى والتذمر وجود إلا فى الريف فيجب أن تنتهى هذه الحالة وأن نضع حداً للكسل . فبهذا وحده تستطيعون أن توفوا للحزب وللحكومة ببعض دينكم لهما لتحريركم من عبودية الرأسمالية .

لقد كان النظام القيصرى يستغل العمال . ولكن هذا الاستغلال لا يعد شيئاً بالقياس إلى استغلال الرأسماليين إياكم... فى سبيل من كنتم تعملون؟ . . فى سبيل أولئك الذين كانوا يمتصون دماءكم ولكنكم الآن تعملون فى سبيل الدولة . . وما هى الدولة ؟ هى أنتم يا رفاق الأعزاء . . لقد قال بعضكم هنا إنكم قد عوقبتم عقاباً غير عادل حين فشلتم فى تسليم الحصص العينية المفروضة عليكم بسبب قلة الإنتاج . . إن هذا كذب فلا أحد يعاقبكم دون حق ، لأن العقوبات السوفييتية كما قلت سابقاً صارمة ولكنها عادلة . . لقد تخلصت بلادنا نهائياً من المحاكم البورجوازية والبوليس البورجوازى المتعطش للدماء . فحلت محلها المحاكم السوفييتية والبوليس السوفييتى . .

يجب أن تفهموا أننا نريد بل ويجب أن نفى بوعودنا لستالين وأن أية مؤامرة يحاول أعداء الجماعية القيام بها سيقضى عليها فى مهدها » .

ولسنا فى حاجة هنا إلى أن نبين مدى الفظاظة الظاهرة فى هذا الخطاب ، لكننا نحب أن نشير إلى مطلب واحد

يستحيل تحقيقه على الإطلاق .

لقد طالب كاروتام بتسليم كل الضرائب العينية على المحصولات قبل ٢٠ يوليو عام ١٩٥٠ فى حين أن المحصول الوحيد الذى يمكن تسليمه فى هذا الموعد هو « الدريس » لأن المحصولات الأخرى فى أستونيا تنضج فى وقت متأخر . فمثلا لا يتم حصاد الجويدار قبل نهاية يوليو كما يتم حصاد القمح والشعير والشوفان فى أغسطس . .

فإذا نفذ ما يطلبه كاروتام لن يتسلم السوفييت من أستونيا إلا قمحاً أخضر سيصيبه العفن فى أيام قليلة ولا يمكن استخدامه إلا كعلف للماشية .

وعلى كل حال فإن من المؤكد أن السلطات السوفييتية تنظر إلى عدم إجابة هذا المطلب على أنه تخريب ومؤامرة ضد الثورة . وبهذا تجد عذراً مقبولا للقبض على أولئك الذين يعارضون نظام المزارع الجماعية .

ولكن من المؤكد أن السلطات السوفييتية تهدف بهذا الطلب إلى تحقيق غرض آخر .

لقد أشرنا آنفاً إلى إجراءات الترحيل الجماعية لطرد سكان لاتفيا ولتوانيا وأستونيا من بلادهم فإذا درسنا المناطق التى رحل منها هؤلاء الأشخاص لوجدنا الدليل على أن هناك خطة منظمة لترحيل سكان المناطق التى تجاور الحدود القديمة للاتحاد

السوفييتى من خليج فنلندة إلى شواطئ البحر الأسود وإعادة تعمير هذه المناطق بمواطنين سوفييت استقدموا من شرق الاتحاد السوفييتى . . ولم يكن بالطبع فى استطاعة هؤلاء السكان الجدد الاتصال بسكان المناطق المجاورة والتفاهم معهم نظراً لاختلاف اللغة والثقافة . . لقد كانت السلطات السوفييتية تهدف بهذا الإجراء إلى تكوين « شريط صحى » يمنع الآراء غير المرغوب فيها منعاً باتاً من التسلل إلى الاتحاد السوفييتى نفسه .

ويجدر بنا هنا أن نورد صيغة الأوامر التى أصدرها البوليس السرى السوفييتى فيما يتعلق بترحيل العناصر المعادية للسوفييت من لتوانيا ولاتفيا وأستونيا . وفيما يلى النص الكامل لأحد الأوامر التى حصلنا عليها من ملفات البوليس السرى السوفييتى :

تعليمات

بخصوص طريقة إجراء ترحيل العناصر المعادية للسوفييت من لتوانيا ولاتفيا وأستونيا .

١ ــ الحالة العامة

إن ترحيل العناصر المعادية للسوفييت من دول البلطيق أمر فى غاية الأهمية السياسية . ويتوقف نجاح تنفيذ هذا الترحيل على مدى القدرة على وضع خطة محكمة لإجراء عمليات الترحيل مع الاحتياط التام لكل احتمال .

ومن الأهمية بمكان أن تنفذ هذه الإجراءات دون أن تثير ضجة أو ذعراً كما لا تسمع أنباء أية مظاهرات أو ما شابهها سواء أقام بها المرحلون أم قام بها بعض السكان المجاورين ممن يضمرون العداء للإدارة السوفييتية .

وفيما يلى التعليمات الخاصة بإجراء عمليات الترحيل . ويجب اتباع هذه التعليمات حرفياً . غير أنه فى بعض الحالات الفردية يستطيع القائمون على تنفيذ العملية بل ويجب عليهم اتخاذ ما يرون من الإجراءات تبعاً لكل حالة وذلك لتحقيق الهدف نفسه هو تنفيذ العملية دون إثارة ضجة أو ذعر .

٢ – طريقة إصدار التعليمات

يجب أن يقوم أعضاء المجالس الثلاثة بكل مقاطعة بإصدار التعليمات إلى القائمين على تنفيذ العملية قبل اليوم المحدد لتنفيذها بأقل وقت ممكن مدخلين فى حسابهم الوقت اللازم للانتقال إلى مكان التنفيذ .

كما يجب على أعضاء المجالس الثلاثة أن يقوموا مقدماً بإعداد وسائل الانتقال اللازمة لنقل جماعات القائمين على التنفيذ إلى القرى التى سيجرى فيها التنفيذ .

أما من حيث تخصيص العدد اللازم من السيارات والعربات فيحسن بأعضاء المجالس الثلاثة استشارة القادة المحليين لمنظمات الحزب السوفييتى .

ويجب أن تعد مقدماً الأماكن التى ستصدر فيها التعليمات . كما يجب دراسة سعتها ومخارجها واحتمال دخول الغرباء إليها .

ويجب على العمال الإداريين حراسة المبنى حراسة دقيقة وقت إصدار التعليمات .

وإذا حدث أن تخلف أحد المشتركين فى تنفيذ العملية عن الحضور وقت إصدار التعليمات وجب على أعضاء المجالس الثلاثة أن يتخذوا الإجراءات السريعة لاستبداله بغيره فى الحال عن طريق قوة احتياطية تعد مقدماً .

كما يجب على المجالس الثلاثة عن طريق ممثليها أن تطلع الضباط المجتمعين على قرار الحكومة بإبعاد المتفق عليهم من العناصر المعادية للسوفييت من الجمهورية أو المنطقة . كما يجب اتباع الأوامر بشرح قصير عن العناصر التى يمثلها هؤلاء المرحلون !

ويجب بصفة خاصة أن يلفت نظر عملاء الحزب السوفييتى المجتمعين لتلقى التعليمات إلى أن المرحلين من أعداء الشعب السوفييتى ولذا فمن المحتمل أن يقوموا بهجوم مسلح .

٣ — طريقة الحصول على الوثائق

بعد إصدار التعليمات العامة إلى القائمين على التنفيذ يجب حتماً توزيع الوثائق الخاصة بالمرحلين ، فيجب دراسة الملفات الشخصية الخاصة بهم مقدماً وإقرارها بواسطة لجان التنفيذ فى المدن والقرى حتى لا تحدث عقبات عند توزيعها .

وبعد تسلم الملفات الشخصية يجب على العضو المسئول فى الجماعات القائمة على التنفيذ أن يطلع على الملفات الشخصية للعائلة التى سيقوم بترحيلها ويجب عليه أن يراجع عدد أفراد العائلة وأن يعد الاستمارات الخاصة التى يجب على المرحلين ملؤها . كما يجب عليه أن يقوم بإعداد الوسائل اللازمة لنقل المرحل . وعليه أن يستفسر ويستفسر حتى يحصل على إجابات

لا تقبل الشك للمسائل التى يتعسر عليه فهمها .

وحين توزع الملفات يجب على المجلس الثلاثى للمنطقة أن يشرح للعضو المسئول فى الجماعات القائمة على التنفيذ المكان الذى ستوطّن فيه العائلة المرحلة والطريق إلى مكان الترحيل . كما يجب أيضاً تحديد الطرق التى ستمر فيها العائلات المرحلة حتى تصل إلى محطة السكك الحديدية . كما أنه من الضرورى أن تحدد الأماكن التى ستعسكر فيها القوات الاحتياطية حتى يسهل الاتصال بها فى حالة حدوث ثورات أو اضطرابات .

ويجب أيضاً على كل المشتركين فى تنفيذ عمليات الترحيل أن يختبروا ما معهم من ذخيرة وأسلحة كما يجب أن تعد الأسلحة للاستعمال فى الحال ، فتعبأ ولكن لا يوضع الرصاص فى الخزانة ولا تستعمل الأسلحة إلا كآخر وسيلة يلجأ إليها القائمون على التنفيذ إذا هوجموا أو هددوا بهجوم أو حدثت مقاومة .

٤ — طريقة تنفيذ الترحيل

إذا حدث ورحلت عائلات عديدة من منطقة واحدة يعين أحد القائمين على التنفيذ مشرفاً على الترحيل فى تلك المنطقة ويجب على كل القائمين بالتنفيذ هناك إطاعة أوامره .

ويجب على القائمين على التنفيذ لدى وصولهم إلى منطقة

الترحيل الاتصال بالسلطات المحلية، كرئيس وسكرتير وأعضاء مجلس السوفييت فى هذه القرية، مع مراعاة السرية الواجبة . . ويجب أن يتأكدوا منهم عن أماكن إقامة العائلات التى سترحل . وبعد هذا يقوم القائمون على التنفيذ ، بالاشتراك مع السلطات المحلية ، بالاتصال بهذه العائلات .

ويجب أن تبدأ العملية عند الفجر . . وعند دخول منزل شخص سيتم ترحيله ، يجب على الرئيس القائم على التنفيذ أن يجمع كافة أفراد العائلة فى غرفة واحدة مع اتخاذ كافة الاحتياطات خشية حدوث اضطرابات . وبعد مراجعة أسماء أفراد العائلة على القائمة التى يحملها ، وبعد معرفة أماكن الغائبين والتأكد من عدد المرضى ، يطلب إلى المرحلين تسليم أسلحتهم . وسواء تسلمت السلطات الأسلحة أم لا ، يجب تفتيش المرحل تفتيشاً دقيقاً ، كما يجب تفتيش المنزل بحثاً عن الأسلحة المخبأة .

٥ — طريقة عزل المرحلين عن عائلاتهم

بما أن الواجب يقضى بالقبض على عدد كبير جداً من المرحلين ووضعهم فى معسكرات خاصة ووضع عائلاتهم فى أماكن خاصة من مناطق نائية ، يجب أن يتم ترحيل المرحل وأفراد عائلته دون أن يعرف أحد منهم أنهم سيفترقون .

وبعد تفتيش منزل المرحل والاستيلاء على ما قد يكون

موجوداً به من أوراق تحقيق الشخصية . يقوم العمال الإداريون بكتابة وثائق خاصة به فى حين توضع الوثائق الخاصة بأفراد عائلته فى ملف آخر منفصل .

ويجب أن ينقل أفراد العائلة جميعاً إلى المحطة فى عربة واحدة وهناك فقط يفصل المرحل عن عائلته فيوضع فى عربة قطار منفصلة مخصصة لأرباب العائلات فقط .

وفى الوقت الذى تجمع فيه العائلة كلها فى منزل المرحل . يطلب إلى رب العائلة أن يجمع حاجياته فى حقيبة خاصة إذ أن الرجال سينفصلون عن النساء أثناء التفتيش الصحى .

وفى المحطة توضع حاجيات أرباب العائلات المرحلة فى العربات المخصصة لهم .

٦ — طريقة نقل المرحلين

ممنوع منعاً باتاً على الذين يشرفون على قوافل العربات التى تحمل المرحلين أن يجلسوا معهم فى هذه العربات بل يجب عليهم أن يتبعوا القافلة على الجانبين أو فى المؤخرة . كما يجب على الرئيس أن يتفقد القافلة كلها لضمان سلامة سير عملية الترحيل وانتظامها .

ويجب على المسئولين اتخاذ الحيطة الشديدة إذا مرت قافلة المرحلين فى مناطق مأهولة أو إذا قابلها بعض المارة .

وذلك لمنع محاولات الهرب أو اتصال المرحلين بالمارة .

(روجع ، إمضاء – ماشكين)

نائب مندوب الشعب لشئون أمن الدولة
فى الاتحاد السوفييتى
(إمضاء – سيروف)

لقد أوضحنا فى الفصول السابقة حين تحدثنا عن السخرة أن البوليس السرى السوفييتى يعمل على توريد الأيدى العاملة لا إلى منظماته ومنشآته هو فقط ، بل وإلى المنشآت الأخرى أيضاً . ويجب ألا يسودنا الاعتقاد أن المصانع الأخرى تزود بالأيدى العاملة لأنها فى حاجة إليها . بل لأن البوليس السرى يحصل على أرباح عدة من تأجير هذه الأيدى العاملة .

وفيما يلى نص إشارة تليفونية للبوليس السرى السوفييتى . ننشرها إذ قد توضح لنا كيف تتم هذه العملية التجارية فى دول البلطيق .

ريجا – الرفيق سيروف
الرفيق أفاكوموف
الدفعات القادمة من لاتفيا كالآتى :

من الجمهورية السوفييتية اللتوانية إلى منطقة ألتى !
من الجمهورية السوفييتية الأستونية .

٣٧	محطة كوتيلنيكى	سكة حديد جوركى	١٦٠٠ر١	شخص
٣٨	محطة شاكيونا	» » »	٣٠٠	»
٣٩	محطة كيروف	» » »	٥٠٠	»
٤٠	محطة سلوبودسكوى	» »	٤٠٠	»
٤١	محطة فيلونكى	» »	٣٠٠	»
٤٢	محطة فيكانسكايا	» »	٣٠٠	»
٤٣	محطة موراش	» »	١٠٠	»
٤٤	محطة أوريكى	» »	١٠٠	»
٤٥	محطة يوريا	» »	١٠٠	»
٤٦	محطة كوبارينو	» »	١٠٠	»
٤٧	محطة بنيور	» »	١٠٠	»
٤٨	محطة لوسا	» »	١٠٠	»
٤٩	محطة نوفوسيبريسك	» تومسك	٧٠٠	»
٥٠	محطة شانى	» »	١٠٠٠ر١	»
٥١	محطة كاراجات	» »	١٠٠٠ر١	»
٥٢	محطة برومبشلنايا	» »	١٠٠٠ر١	»
٥٣	محطة ستاروبيلسك	» موسكو—دونباس	١٩٣٠ر١	رجلا

فقط دون عائلاتهم

٥٤ محطة بابينينو	سكة موسكو – كييف	١٠٠٠ر١ رجل فقط دون عائلاتهم	
٥٥ محطة سوليكامسك	سكة موسكو – برم	٤٧٢	من مرتكبي الجرائم .

يجب أن تعد قوائم النزول تبعاً للوجهات الموضحة عاليه ، كما يجب على المشرفين على عمليات السفر أن يقدموا تقارير يومية إلى إدارة النقل بالبوليس السرى السوفييتى .

(إمضاء) شيرنيشيف

(أرسله) كوتليارف

(تسلمه) فوردبييف

نمرة ٣٠ / ٥٦٩٨ / ١٦ ١٣ يونيو

١٣ يونيو عام ١٩٤١

الجزء الثانى

الفصل الخامس

رومانيا فى الأغلال

« هناك شبح يهدد أوربا . . . وهذا الشبح هو الشيوعية » .

كارل ماركس وفردريك أنجلز
فى « الميثاق الشيوعى »

عندما كتب ماركس وأنجلز العبارة السابقة ، كانا حريصين على أن يبينا أنهما لا يعنيان أن الشيوعية ستقوم فى الحال بغزو أوربا بل ان الحكومات القائمة وقتئذ تلجأ إلى استخدام كلمة « الشيوعية » لتصرخ بها مهددة فى وجه كل التشريعات التقدمية .

أما اليوم ، فقد أصبح لهذه العبارة معنى واقعياً مروعاً إذ أصبحت تعنى شبح الشيوعية الستالينية مع زيادة الاضطهادات وإنشاء نوع جديد من أنواع الرق . . . فدعنا نرى ما حدث

لتلك الدول الأوربية التى خضعت لأتباع ستالين . . لقد أصبحت هذه الدول تعانى لا من الترحيل ومعسكرات السخرة فقط ، بل لقد أصبحت شعوبها « الحرة » كما يحب أن يسميها الشيوعيون ، تتعرض لنفس التجارب والمحن التى قاساها الشعب السوفييتى وقتاً طويلا .

وليس هذا من قبيل المصادفات ، إذ أن من المبادئ الأساسية للشيوعية الستالينية أن تمر الديمقراطيات الحديثة بنفس المراحل والخطوات التى مر بها الاتحاد السوفييتى ، خطوة خطوة ، ومرحلة إثر أخرى .

ولعل أوضح مثال على هذا هو ما حدث فى رومانيا .

١

كان الشعب الرومانى يرزح سنين طويلة تحت وطأة نظام قاس فرض عليه . . وكانت الفاشية الرومانية تتعاون مع النازية الهتلرية نظراً للمصالح المشتركة التى تربط بينهما . . . . وحين بدأت الدائرة فى الحرب العالمية الثانية تدور على المحور قام الجيش الأحمر باحتلال رومانيا التى تتاخم حدودها حدود الاتحاد السوفييتى . . .

وكانت الحكومة الفاشية فى رومانيا قد اعتقلت عدداً كبيراً من أعداء الدكتاتورية وألقت بهم فى السجون فأفرج

الروس عن هؤلاء الأشخاص واعتبروهم ديمقراطيين دون قيد ولا شرط . . وكان من ضمن هؤلاء الجنرال نيوكولاس رادسكو الذى كان قد اعتقل بأمر الفاشيين فأفرج عنه الكرملين وعينه رئيساً لوزراء رومانيا .

ولم يكن الجنرال رادسكو الذى قاوم الدكتاتورية النازية بالذى يخضع للدكتاتورية الشيوعية التى فرضها سادة الكرملين ، فقاومهم وكاد هذا يكلفه حياته . . . واستطاع رادسكو بمعجزة أن يهرب إلى الولايات المتحدة ، حيث قام بالشهادة أمام لجنة التحقيق فى أعمال السخرة . . . وكانت هذه الشهادة تبين بجلاء أهم التطورات التى حدثت فى الدول التى تسير فى فلك الاتحاد السوفييتى ، وها نحن هنا نوردها بنصها . . .

« لعل أكثر مظاهر السخرة فى القرن العشرين مجافاة للإنسانية هو القبض الجماعى على الآلاف من سكان الدول التى يحتلها السوفييت وترحيلهم إلى داخل روسيا .

وهكذا أصبح جزء كبير من سكان رومانيا وعمالها عبيداً يعملون فى الغابات والمناجم فيما وراء الأورال وفى الجولاج حيث تصبح حياة السجين كابوساً لا يخلصه منه إلا الموت . . وبالرغم من مرور أربعة أعوام ونصف عام على توقف القتال بين رومانيا والاتحاد السوفييتى ، فإن أكثر من ١٨٠٠,٠٠٠ رومانى من أسرى الحرب والسلم (إذ استمر الجيش الأحمر فى اعتقال

الرومانيين حتى بعد توقيع الهدنة الرومانية السوفيتية) لا يزالون فى انتظار إعادتهم إلى وطنهم . . . ومن المحتمل أن يكون عدد كبير من هؤلاء الأسرى قد لقى حتفه فعلا فى حين حكم على الباقين بملاقاة نفس المصير ولكن فى جحيم معسكرات عبودية القرن العشرين » .

وليست هذه الأرقام مغالى فيها ، إذ تبين من البلاغات الحربية التى أصدرها السوفييت أن الجيش الأحمر قد أسر أكثر من ٥٠٠,٠٠٠ رومانى فى حين تدل الأرقام الموجودة فى حيازة القيادة الرومانية العامة أن مجموع الأسرى الرومانيين الذين وقعوا فى أيدى الروس هو ٣٢٠,٠٠٠ تقريباً ، منهم ١٣٠,٠٠٠ مقبوض عليهم دون حق — أى بعد وقف القتال بين رومانيا والاتحاد السوفييتى فى ٢٣ أغسطس عام ١٩٤٤ ... وبالإضافة إلى الـ ٣٢٠,٠٠٠ هؤلاء ، هناك ١٠٠,٠٠٠ على الأقل من سكان ترانسلفانيا الشمالية أسرهم الروس أثناء قتالهم فى صفوف الجيش المجرى . . .

وحين أعيد ضم ترانسلفانيا الشمالية إلى رومانيا وحين بدأت إعادة أسرى الحرب الرومانيين اعتبر الأسرى من ترانسلفانيا الشمالية ضمن الأسرى الرومانيين الذين تقررت إعادتهم . . . وهكذا يصبح عدد الذين وجبت إعادتهم إلى الحدود الجديدة لرومانيا حوالى ٤٢٠,٠٠٠ أسير حرب . .

وتدل الإحصاءات الرسمية على أن الذين أعادتهم روسيا إلى أوطانهم كانوا ١٩٠,٠٠٠ أسير فقط (٣٠,٠٠٠ أسير فى عام ١٩٤٤ و ٦٨,٠٠٠ أسير فى عام ١٩٤٥ و ٣٩,٠٠٠ أسير فى عام ١٩٤٦ و ٣١,٠٠٠ فى عام ١٩٤٧ و ٢٢,٠٠٠ أسير فى عام ١٩٤٨) . .

وعلى هذا بقى فى الأسر ٢٣٠,٠٠٠ من أسرى الحرب أعلنت السلطات السوفييتية فى فبراير عام ١٩٤٥ بواسطة ممثلها السياسى لدى الحكومة الرومانية وفاة ٥٠,٠٠٠ منهم . . ولم تصرح السلطات السوفييتية بعد بأسماء هؤلاء الأسرى الذين توفوا . .

وبما أن مجموع الأسرى الذين تمت إعادتهم ١٩٠,٠٠٠ ، حتى لو استخدمنا الأرقام التى أدلت بها السلطات السوفييتية ، فإن من المحتم أن يصبح عدد الباقين فى الأسر ١٨٠,٠٠٠ على الأقل باستثناء ٥٠,٠٠٠ من الأسرى أعلنت وفاتهم . .

ولقد أدلى معظم الأسرى بنفس القصة عن حالة أسرى الحرب ومعسكراتهم فى الاتحاد السوفييتى . . لقد احتجز ربع الأسرى الذين أفرج عنهم فى معسكرات خاصة للتلقين السياسى ثم أعيدوا إلى رومانيا ليصبحوا نواة للبوليس السرى والجيش الشيوعى الجديد فيها . . . أما الباقون فقد قضوا مدداً تتراوح بين ثلاث وسبع سنوات يعملون بالأشغال الشاقة فى مناجم وغابات روسيا الأسيوية . . .

وكان هؤلاء الأسرى يرغمون على العمل فى ظروف أكثر ما تكون مجافاة للإنسانية ، أما إذا عجزوا عن إنتاج الكميات الكبيرة التى حددت لهم حرموا حتى من الطعام التافه الذى حاولوا أن يتعيشوا عليه .

وقد أرسلت السلطات السوفييتية أيضاً عدداً كبيراً من هؤلاء إلى المناطق القطبية دون أية عناية طبية ودون أن تزودهم بالملابس والأحذية المناسبة ، وأسكنتهم فى أكواخ متداعية . فلا غرو أن بلغت نسبة الوفيات بين أسرى الحرب الرومانيين هذا الحد المفجع .

ولا نكون مغالين إذا قلنا إن الجزء الأكبر من المائة وثمانين ألف أسير الذين لم يفرج عنهم قد توفوا فى أقاليم سيبيريا النائية وأن الباقين الذين لا يزالون على قيد الحياة قد كتب عليهم أن يلقوا نفس المصير . .

وفى ٣٠ نوفمبر عام ١٩٤٨ ، أصدرت رئاسة الجمهورية الرومانية الشعبية بياناً أعلنت فيه أن كل سكان رومانيا الذين اختفوا أثناء الحرب خارج الحدود الرومانية يعتبرون فى حكم المتوفين . . . وكان معنى هذا البيان أن برنامج الإفراج عن الأسرى قد انتهى وأن الحكومة الرومانية القائمة لن تطالب بالإفراج عن الذين لا يزالون أحياء من الأسرى البالغ عددهم ١٨٠,٠٠٠ .

وتدل الأنباء الوحيدة المؤكدة التى لدينا — وهى أنباء ليس مصدرها الاتحاد السوفييتى أو الحكومة الرومانية — أن ٢٠٠٠ ضابط كانوا لا يزالون أحياء عند نهاية عام ١٩٤٨ فى معسكر السخرة السوفييتى رقم ١١٧ ببلدة كاثونا جوركى فى مقاطعة أوبلبى جوركى . . .

ولم يكن أسرى الحرب هم وحدهم الذين قاسوا الأهوال ، كما لم يكونوا « الهدية » الوحيدة من الأيدى العاملة التى قدمتها رومانيا إلى الاتحاد السوفييتى ليفى بها مطالبه الاقتصادية المتزايدة . .

لقد قال الجنرال رادسكو :

« وفى مدة قصيرة ، ابتداء من ٥ يناير سنة ١٩٤٥ ، قامت القوات السوفييتية ورجال البوليس السرى بغارات فى منتصف الليل على منازل الرعايا الرومانيين الذين انحدروا من أصل ألمانى ورحلوا منهم إلى الاتحاد السوفييتى ٣٦,٥٩٠ رجلا و ٣٢,٧٤٨ امرأة . »

وقد اتخذ هذا الإجراء تنفيذاً لقرار أصدرته القيادة السوفييتية العليا فى رومانيا بالنيابة عن لجنة الرقابة المتحالفة .. فقد استخرجت قوائم تحوى أسماء كل الرومانيين الذين ينحدرون من أصل ألمانى (الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ عاماً و ٤٥ عاماً والنساء اللائى تتراوح أعمارهن بين ١٧ عاماً و ٣٥ عاماً) استعداداً لترحيلهم إلى معسكرات السخرة فى الاتحاد

السوفييتى ، ونفذ ذلك القرار فى الحال.. وما أن انتهى شهر يناير سنة ١٩٤٥ حتى كان مجموع من رحل من هؤلاء إلى الاتحاد السوفييتى ٦٩,٣٣٢ . . .

ومضى الجنرال رادسكو يقول :

« لقد نقل هؤلاء الأشخاص إلى روسيا فى عربات الماشية التى خلت من كل وسائل الراحة أو التدفئة ولم يصرف لهم غذاء طوال الرحلة بالرغم من أنه لم يسمح لهم بأخذ متاعهم معهم . . ولم تلق سلطات الاحتلال السوفييتية بالا إلى الاحتجاجات المتعددة التى وجهتها إليها بصفتى رئيساً للوزراء حينئذ . . وقد استطعت سراً أن أنهى إلى رؤساء الأقلية الألمانية أن السلطات السوفييتية تنوى ترحيلهم فاستطاعوا أن يحذروا زملاءهم وينصحوهم بالاختفاء ابتغاء السلامة . . ولربما كان هذا التحذير هو السبب فى أنه لم يرحل إلى الاتحاد السوفييتى إلا ٦٩٣٣٢ فقط مع أن المطلوب ترحيلهم كان عددهم ٩٥٠٠٠ .

وازداد عدد هؤلاء المرحلين إلى الاتحاد السوفييتى منذ ذلك الوقت إلى أكثر من ١٠٧,٠٠٠ ، توفى عدد كبير منهم — كما أدلت مصادر موثوق بها — أثناء الرحلة أو نتيجة للمعاملة البربرية التى لاقوها فى معسكرات السخرة فى منطقة ستالين (أوكرانيا سابقاً) حيث أرغمت النساء على جر عربات الثيران والعمل فى المناجم »

وكانت السيدة « م » إحدى النساء اللائى أرغمن على العمل

فى منطقة ستالين وقتذاك وفيما يلى نص الشهادة التى أدلت بها إلى لجنة التحقيق فى أعمال السخرة . .

« أقر أنا السيدة « م » أن هذا التقرير الخاص بأعمال السخرة فى أوكرانيا ، والمكون من صفحتين بدأتا بكلمة « ما إن احتل » وانتهتا بكلمة « قطار الأشباح » قد كتبته بخطى طبقاً لخبرتى . . وأنا لم أوقع على هذا التقرير إذ أن لى أقارب لا يزالون يعيشون فى المنطقة الشرقية . .

وعلى كل حال فأنا على استعداد لتقديم مزيد من المعلومات لأى شخص يتصل بى بشرط أن يحمل تصريحاً بذلك من الدكتور راينر هيلد براندت . (الدكتور راينر هيلد براندت هو مدير منظمة « جماعة المكافحين ضد الأعمال غير الإنسانية » التى تعمل فى المنطقة الغربية من برلين . . . وقد عملت هذه المنظمة بالإضافة إلى رعاية اللاجئين الذى يهربون من المنطقة الشرقية على الاهتمام بكتابة تقارير مزودة بالإحصاءات تعد من أوفى التقارير الخاصة بنظام السخرة ومعسكرات الاعتقال فيما وراء الستار الحديدى)

« ما إن احتل الجيش الأحمر رومانيا حتى كان على كل الذين ينحدرون من أصل ألمانى أن يتقدموا بأنفسهم إلى البوليس — وقيل إن الغرض من ذلك هو إعداد قوائم خاصة لم يعرف أحد ما وراءها .

وفى الساعة الخامسة من صباح أحد الأيام وصلت السيارات السوفييتية إلى جميع المنازل وأقفلت الشوارع وطلب إلى جميع الألمان إعداد أمتعتهم فى ظرف عشر دقائق . . . أما بعض الألمان الذين قابلهم الجيش الأحمر وهم فى الطريق فلم يتمكنوا حتى من إعداد حقائب صغيرة .

وفى خلال ساعات قليلة جمعت أول شحنة ضخمة من الألمان ولم يسمح بالبقاء إلا للسيدات اللواتى كان لديهن أطفال تقل أعمارهم عن سنة واحدة . وكان لأختى طفل عمره سنة وشهران وجدت بالكاد وقتاً كافياً لتسليمه إلى امرأة غريبة عنها وجدتها فى الشارع . . .

وكنا ثمانين رجلا وامرأة كدسنا فى عربة من عربات البضاعة أغلقت علينا من الخارج ولم يكن لدينا حتى دلو لحاجاتنا الضرورية . . .

وبدأنا الرحلة فى ١٣ يناير عام ١٩٤٥ ، ورغم ذلك لم يكن بالعربة فرن واحد للتدفئة غير أن بعض الحراس الروس كانوا من اللطف ، كما استطعنا أن نرشوا بعض الآخرين ، بحيث أحضروا لنا أخشاباً أوقدناها ولو أن ذلك كان ممنوعاً .

ومكثنا أربعة أيام فى محطة « ياسك » الواقعة على الحدود ، استأنفنا السفر بعدها إلى كرنورك حيث قيل إن معسكرنا هناك . . .

وأصدر السوفييت أوامرهم بأن يستعد الرجال للذهاب إلى المعسكر أولا وذلك لإعداده حتى تصل النساء، فأخذ عدد كبير من الرجال كل أمتعة عائلاتهم معهم. وفجأه، وكان الليل قد أقبل لاحظنا أن القطار يسير فصرخنا ونادينا الحراس السوفييت الذين طمأنونا ثم أخبرونا أن القطار سيتقدم داخل روسيا إلى بنروسيركنسك . .

ووصلنا آخر الأمر إلى معسكر ليست به أية استعدادات ولم يكن يحوى أسرة أو حتى قشاً لننام عليه... وفى ذلك المساء تسلمنا طعاماً للمرة الأولى منذ عبرنا الحدود . . .

وكان علينا فى هذا المعسكر أن نستيقظ فى الخامسة صباحاً لنسير مسافة ٨ كيلومترات حتى نصل إلى مكان العمل، وعهد إلينا بتفكيك مصنع مهدم وأن نشحن أحجاره . . . وتسلمنا أول وجبة لنا فى الساعة الحادية عشر صباحاً وكانت تتكون من ٨٠٠ جم من الخبز ، المفروض أن تكفينا طوال اليوم ، وطبق من حساء الكرنب ثم ثان صرف لنا فى فترة بعد الظهر .

وكنا لدى عودتنا فى المساء ، وقد أخذ منا التعب كل مأخذ ، نرغم على الاستماع إلى محاضرات يقال لنا فيها إننا لم ننتج مقداراً كافياً وأننا لم نعمل بما فيه الكفاية وخصوصاً وأن كثيرات منا مريضات فعلينا أن نعمل بدلا منهن ولذا فليس من الممكن أن يصرفوا لنا أجوراً . .

وكنا نذهب إلى السينما مرة فى الأسبوع فإذا تخلفت إحدانا عن مشاهدة فيلم الدعاية المعروض عوقبت بحرمانها من الطعام .. ولم يكن الحراس ليتورعون عن توقيع أقسى العقوبات علينا إذا لم يف إنتاجنا بالقدر المطلوب . . فكثيراً ما عوقبت النساء بالركوع على الثلج لمدة أربع أو خمس ساعات فإذا لم تأت هذه العقوبة بنتائج حاسمة طبقت العقوبات البدنية . .

وحدث أن تغيبت إحدى صديقاتى عن العمل ساعة ونصف ساعة ذهبت أثنائها لتستدفئ فحكم عليها ضابط المعسكر بالسجن فى المخزن حيث كانت تنام على الأرض العارية الباردة المصنوعة من الأسمنت دون أن يصرف لها غطاء حتى فى أشد الليالى برودة . . . وكانت تذهب فى الصباح — دون أن تحصل على نصيبها من الطعام — للعمل معنا ثم تعود لتنام فى المخزن . . وفى اليوم الثانى وجدها الحراس قد فارقت الحياة فانزعجوا كثيراً ولم يكرروا مثل هذه العقوبة الوحشية مرة أخرى . .

وكان المعسكر يضم ٣٨٦ امرأة أعيدت منهن ٣٨ لأنه لم يكن فى استطاعتهن العمل ، وهذا معناه أنهن كن أقرب ما يكن إلى الموت . . . لقد كان بعضنا قد توفى خلال الرحلة . . . وتوفيت ١٥ امرأة أخرى فى نفس الشتاء . . .

وكان أحد المعسكرات المجاورة يضم ٥٠٠٠ من الرجال المرحلين الذين تتراوح أعمارهم بين ١٦ و ٦٠ عاماً مات منهم

٢٨٠٠ فى نفس المدة مما استلزم إعداد قبور جماعية .

وقد استطعت أيضاً أن أتصل بأسرى الحرب الألمان وكان منظرهم بشعاً إذ انهار الكثيرون منهم تحت وطأة العمل فكان بعض الحراس يضربونهم بالأحذية دون أن يتبينوا أنه لم يعد فى استطاعتهم العمل . .

ومن الإنصاف أن أذكر أننا قابلنا بعض الروس الخيرين من المدنيين والعسكريين الذين كانوا يساعدوننا بقدر إمكانهم .. فمنحنا بعضهم كل مدخراتهم ، وكان بعض المدنيين المتقدمين فى السن ينتظروننا عند مفترق الطرق لدى عودتنا من العمل إلى المعسكر ليلقوا إلينا بالخبز والدهن والفواكه والأطعمة المشابهة ... وقد لاحظ بعضهم أحذيتنا الممزقة فخلعوا أحذيتهم رغم البرد القارس وأعطوها لنا لأننا كنا فى أشد الحاجة إليها .

وبعد أن انتهى العمل فى فك المصنع قسمنا إلى جماعات مختلفة . أما أنا فقد أرسلت للعمل فى نقل الفحم مع ثلاث أخريات . . . وكان علينا نحن الأربع أن نفرغ حمولة عربة كاملة من الفحم فى ظرف خمسة عشر دقيقة . . وحدث أن وجدنا فى الفحم طفلا ميتاً عمره سبع سنوات ومرة أخرى وجدنا رجلا ميتاً . . . ولما اتصلنا بضابط المعسكر ليتسلم جثة ذلك الرجل انتزع الجنود الروس حذاءه قبل وصول ضابطهم . .

وعهد إلينا فى إحدى المرات بشحن الكبريت ، وكان الذين

يقومون بمثل هذا العمل ولو لمدة قصيرة يصابون بالرمد وأمراض الجلد فضلا عن السل الكربونى . . . . كما أصيب الذين كانوا ينزلون إلى المناجم لقطع الفحم بذات الرئة ولا أكون مبالغة إذا قلت إننا جميعاً دون استثناء قد أصبنا بالفتاق . .

وبعد مضى عام واحد عجز أكثر من نصف الرجال عن العمل وتوفى الكثيرون .

ونقلت الجماعة التى أعمل فيها إلى معسكر آخر بعد سنتين ، وقيل لنا إن المصنع لم يعد بإمكانه أن يصرف لنا طعاماً لعدم كفاية إنتاجنا . . . ووعدنا بإرجاعنا إلى بلادنا وصرفت لنا مؤونة خمسة أيام ففرحنا جداً حتى تبينا أننا قطعنا فى هذه الرحلة ٣٠٠ كم إلى داخل روسيا بدلا من أن نتجه إلى وطننا . . . ووصلنا إلى بلدة إيفاكيو التى تبعد عن بلدة ستالينو مسافة ٦٠ كيلومتراً وهناك قابلت أختى التى لم تستطع أن تتعرف على لأول وهلة . . . وكان من حسن حظى أن عهد إلى ضابط المعسكر بعمل سهل فى غرفة الغسيل بالمصنع . وظللت أعمل هناك لمدة خمسة شهور حتى أخذت إلى منزلى . . . وكانوا يطلقون على القطار الذى يقلنا إلى بلادنا « قطار الأشباح » . . .

ولسوء الحظ لم يكن أسرى الحرب أو ذوى الأصل الألمانى وحدهم هم الذين قاسوا ويلات هذه المعاملة . . . فبالإضافة إلى من رحل من الرومانيين المنحدرين من أصل ألمانى والبالغ عددهم

١٠٧,٠٠٠ ، قام الروس أيضاً فى المدة من أغسطس عام ١٩٤٤ إلى آخر يناير عام ١٩٤٨ ، بترحيل حوالى ٢٠,٠٠٠ رومانى من مولدافيا وترنسلفانيا الشمالية فضلا عن ٥٠,٠٠٠ شخص كانوا من سكان بسارابيا وبوكوفينا الشمالية وحوالى ٧٠,٠٠٠ شخص رحلوا إلى روسيا لأسباب سياسية . . . وقد أرسل الآخرون إلى معسكرات السخرة فى سيبيريا وأواسط آسيا .

وكانت كل من مولدافيا وترانسلفانيا الشمالية تخضع مباشرة للحكومة السوفييتية العسكرية طوال المدة ما بين أغسطس عام ١٩٤٤ ومارس عام ١٩٤٥ . . وكان يطلق على هؤلاء العشرين ألف ، وهذا هو الرقم الذى أذاعته السلطات الرومانية ، لقب « غير معتمد عليهم سياسياً » . . أما سكان بسارابيا وبوكوفينا الشمالية فقد رحلوا طبقاً لتفسير ملتو متعمد للمادة الخامسة من اتفاقية الهدنة التى وقعت فى ١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٤ — وكانت هذه المادة تنص على إعادة توطين المواطنين الحلفاء الذين رحلوا بالقوة إلى رومانيا .

وفى هذا الخصوص يقول مسيو بروتس كوستى ومسيو جورج متنو ، وهما مصدران موثوق بهما جداً ، إذ كان أولهما عضواً فى السلك الرومانى الدبلوماسى للمؤمنين بالديمقراطية تماماً ، والثانى معروف بتفانيه فى حب مواطنيه — يقولان :

« قررت القيادة السوفييتية العليا باسم لجنة الرقابة المتحالفة

أن كل سكان رومانيا الذين كانوا يقيمون فى بساربيا وبوكوفينا الشمالية حتى يونيو عام ١٩٤٠ يجب « إعادة توطينهم » فى الاتحاد السوفييتى . . . وتدل المعلومات التى جمعتها لجنة الهدنة الرومانية أن تنفيذ ذلك القرار قد أدى إلى ترحيل ٢٤,٠٠٠ شخص إلى الاتحاد السوفييتى . . ولا يتضمن هذا الرقم إلا الأشخاص الذين سجلت اللجنة أسماءهم ، إذ تدل بعض المصادر الأخرى على أن عدد هؤلاء المرحلين قد وصل إلى ٥٠,٠٠٠ . .

وقد أذاع راديو موسكو فى برنامجه باللغة الرومانية نقلا عن أحد أعداد مارس من جريدة برافدا أن مجموع « المواطنين السوفييت الذين رحلوا من رومانيا قد بلغ ٩٣,٠٠٠ شخص . . أى أن هذا معناه أن البوليس السوفييتى قد نقل ٤٣,٠٠٠ مواطن رومانى آخر وأرسلهم إلى روسيا . . وهناك احتمال كبير فى أن هذا الرقم الأخير يتضمن عدة آلاف من الروس البيض . .

وكانت إجراءات الترحيل هذه التى أطلق عليها اسم « إعادة التوطين » ، تتم فى أغلب الأحيان دون علم السلطات الرومانية لأن السكك الحديدية وجميع وسائل المواصلات فى رومانيا كانت تحت الإشراف المباشر للسلطات العسكرية السوفييتية حتى نهاية عام ١٩٤٥ . . .

ويلاحظ أن رياسة الجمهورية الرومانية الشعبية المزعومة قد أصدرت فى نهاية ديسمبر عام ١٩٤٨ مرسوماً ينص على

أن سكان رومانيا الذين ولدوا فى بساربيا وبوكوفينا الشمالية والذين أقاموا هناك منذ انتهاء الفترة الأولى للاحتلال السوفييتى فى هاتين المنطقتين (أى بعد يوليو ١٩٤١) يجب عليهم تسجيل أسمائهم لدى السلطات المختصة . . . كما تضمن قانون الميزانية لعام ١٩٤٩ — ١٩٥٠ نصاً هاماً بتخصيص مبلغ كبير للإنفاق على نقل الرعايا الحلفاء إلى مواطنهم الأصلية . . . ويتضح من هذا أن حكومة بوخارست ؛ وهى تخضع كعادتها لمطالب السوفييت ، انتوت أن تزود معسكرات السخرة فى الاتحاد السوفييتى بشحنة إضافية من عدة آلاف من الرومانيين .

ويقول الجنرال رادسكو ان حوادث الترحيل لم تكن إلا بداية لسوء الحظ . . فالحقيقة أنه بينما كانت حوادث الترحيل ، باستثناء ترحيل الأقليات فى رومانيا ، تتم على نطاق ضيق حتى يناير عام ١٩٤٨ ، تؤكد لنا مصادر موثوق بها أن المظهر الشائع فى عامى ١٩٤٨ و ١٩٤٩ كان الترحيل الجماعى لأعداء الشيوعية إلى معسكرات السخرة فى الاتحاد السوفييتى . . فرحل المسجونون من مختلف السجون والمعتقلات ، كما نقل عدة آلاف من ضباط الجيش الرومانى السابقين إلى الحدود الرومانية السوفييتية تمهيداً لترحيلهم إلى روسيا . .

وكان الذين اعتقلوا ورحلوا فى الظروف التى شرحناها آنفاً حتى بداية عام ١٩٤٨ لا يقلون أبداً عن ٢٤٠,٠٠٠ من سكان

رومانيا فى حدودها الحالية ولكن الشعب الرومانى يكفيه أن يتهم الاتحاد السوفييتى أمام العالم المتمدين بارتكاب جريمة أفظع وأشنع . . . جريمة هى أقرب أن تكون إلى محاولة استخدام الترحيل فى التخلص من جنس بشرى بأكمله هو الرومانيين من سكان بسارابيا وبوكوفينا الشمالية اللتين ضمتا بالقوة إلى الاتحاد السوفييتى فى عامى ١٩٤٠ و ١٩٤٤ .

فعندما قامت القوات السوفييتية ، بالاتفاق مع هتلر ، باحتلال هاتين المنطقتين فى يونيو ، كان يسكنهما أكثر من ٢ مليون رومانى . . وبعد ذلك بعام واحد ، حين أعيد ضمها إلى رومانيا ، كان ٣٠٠,٠٠٠ من الرومانيين مفقودين . .

ونرى من الأقوال التى أدلى بها الأهالى أن السلطات السوفييتية قامت على أثر احتلال الجيش الأحمر لهاتين النقطتين بإبعاد الطبقة الواعية سياسياً والمستقلون ، من القرى وترحيلهم إلى داخل روسيا . . وتدل أقوال أولئك الذين استطاعوا الإفلات من القطارات التى كانت تقلهم إلى مصيرهم السيئ أو الذين هربوا من المعسكرات على أن الروس قد استخدموا طريقتهم التقليدية البربرية التى كشفت حقيقة الشيوعية أمام العالم أجمع ... فمن غارات فى منتصف الليل ، إلى اعتقال عائلات بأكملها ، إلى التفرقة بين الزوج وزوجته وبين الطفل وأمه ، إلى نقل المعتقلين فى عربات الماشية لمدة أيام عديدة دون ماء أو طعام ، إلى رحلة

تستمر أسابيع طويلة فى سيارات تضم جثث الذين ماتوا ضحية هذه الظروف ، وفى النهاية إلقاء من بقى حياً من المعتقلين فى معسكرات بعيدة حيث ينتظرهم الموت البطىء .

وفى أغسطس عام ١٩٤٤ ، أعاد الاتحاد السوفييتى احتلال هاتين المنطقتين ... وفى السنوات الأربع ونصف التى مرت منذ ذلك الحين رحلت السلطات السوفييتية إلى ما وراء الأورال أكثر من نصف السكان الرومانيين الذين كان يبلغ عددهم ١,٧٠٠,٠٠٠ ، ولا زالت عملية الترحيل مستمرة حتى الآن »

وتدل الأنباء المستقاة من مختلف المصادر على أن الطريقة التى يتم بها الترحيل الآن ، تفوق بكثير الطرق الوحشية التى كانت تطبق فى عام ١٩٤٠ ، إذ أن الأطفال يفصلون عن أمهاتهم ويوضعون فى ملاجىء سوفييتية لكى يصبحوا مواطنين سوفييت رغماً عنهم . .

كما تعرضت الأقليات الأخرى فى هاتين المنطقتين إلى نفس المعاملة . . . والظاهر أن الحكومة السوفييتية تنوى أن تستبدل كل السكان الأصليين من البحر الأسود إلى بحر البلطيق بعناصر من ذوى الأصل المغولى . .

وليست هذه القصة المحزنة هى كل ما فى الأمر ، فالسجون

والمعتقلات داخل رومانيا تكاد تنفجر بمن كدس فيها . . . فقد اعتقل أكثر من ١٠٠,٠٠٠ رومانى لأسباب سياسية واعتقل ٥٠,٠٠٠ آخرين بتهمة التخريب الاقتصادى . . . ولم يقدم من هؤلاء إلى المحاكمة ، ولو صورية ، إلا بضعة آلاف قليلة فقط . . .

ولكى نعطى القارئ فكرة عن نوع الحياة فى السجون الشيوعية ، سنورد هنا أقوال بعض السجناء السابقين . . .

فى أبريل عام ١٩٤٧ أرسل عدة مسجونين سياسيين فى إصلاحية فاكاريستى ، بالقرب من بوفرست ، مذكرة إلى وزير الداخلية قالوا فيها :

« نحن الموقعين أدناه ، من أعضاء حزب الأحرار القومى ، وحزب الفلاحين القومى ، والحزب الاشتراكى المستقل ، قد اعتقلنا فى إصلاحية فاكاريستى فى مارس عام ١٩٤٧ ، دون أن تأمر النيابة بالقبض علينا ودون أن يوضح لنا بوليس أمن الدولة سبب هذا القبض . . وقد أخذنا فى مبدأ الأمر إلى وزارة الداخلية وإلى حكمدارية البوليس ، ولم يسمح لنا عند القبض علينا أن نحمل معنا أى طعام أو ملابس داخلية . . . ووضع ٢٤ فى زنزانة صغيرة مظلمة لا يدخلها الهواء ، فضلا عن أن الهواء القليل الموجود فى الزنزانة يفسده جردل الفضلات الموضوع لنقضى فيه حاجاتنا الضرورية . . .

والزنزانة مليئة بالحشرات والهوام ، ويتكون طعامنا من قليل من الخبز العفن المصنوع من سن الذرة وقليل من الخضار نتناوله فى أوعية خشبية . . . ونحن لا نستطيع الحصول على أية مساعدات طبية . . . »

واستطاع أحد المسجونين السياسيين الذى نقل فى عدة سجون ، أن يهرّب إلى خارج السجن خطاباً بتاريخ ١٦ نوفمبر عام ١٩٤٨ جاء فيه :

(إنهم يطبقون على المسجونين السياسيين معاملة أشد قسوة ووحشية من تلك التى يطبقونها على المجرمين العاديين ، ولعل أسوأ أنواع هذه المعاملة هى التى تطبق على الذين لم يحاكموا بعد . . . وكل السجون مكدسة بالمعتقلين لدرجة مروعة ، مما اضطر كثير من السجناء إلى النوم على البلاط ، فى حين كان على من أسعده الحظ بالنوم على سرير ، أن يتقاسمه مع غيره . . . ولم تكن بهذه الأسرة مراتب أو أغطية ، وكانت توضع بالقرب من بعضها فى ثلاثة صفوف عمودية تصل حتى السقف . ولم يكن الهواء يصلح إطلاقاً للتنفس ، خصوصاً فى الشتاء حين ترتفع حرارة الزنزانات الرطبة المظلمة إلى درجة لا تحتمل بفعل الحرارة المنبعثة من أجسام السجناء أنفسهم . . . كما أن المكان ملىء بالحشرات والهوام التى تخرج طليقة دون أن تفكر إدارة السجن فى التخلص منها . .)

وهناك بضعة آلاف من المسجونين السياسيين وضعوا فى الحبس الانفرادى طوال السنوات الثلاث الماضية ، فى حين أمضى كثيرون آخرون سنة كاملة فى نفس الظروف . . . ويتسلم السجناء زادهم مرتين فى اليوم ، وهو يتكون من حساء الأعشاب التى نادراً ما تتضمن البطاطس ، أو الفول ، و ٤٠٠ جم من الخبز الجاف المصنوع من نخالة الذرة . . . وفى السنوات الأربعة الأخيرة استبدل الحرس بشيوعيين متعصبين يظهر أنهم يساريون متفانون » .

وفى سبتمبر عام ١٩٥٠ ، انتشرت الشائعات فى رومانيا بأن السجون لم تعد مكدسة كما كانت . . . والحقيقة أن السبب فى أن السجون قد خلت من بعض روادها هو أن حوالى ٨٠,٠٠٠ سجين أرساوا كعمال بناء وأيدى عاملة مسخرة للاشتراك فى حفر القنال الذى يصل البحر الأسود بنهر الدانوب ! . .

إن الشيوعيين فى رومانيا والدول الأخرى التى تدور فى فلك الاتحاد السوفييتى يحاولون إخفاء الحقيقة البشعة لأعمال السخرة ، وراء اسم « فرق العمل »

وتقول الصحف الرومانية إن كثر من ٢٠٠,٠٠٠ شاب قد جندوا فى « فرق العمل الاختيارى » فى عام ١٩٤٨ . . . وهناك أربعة أنواع من فرق العمل هذه . . . وأول هذه الأنواع

هى « فرق الشباب » التى تنقسم قسمين — الفرق الدائمة والفرق المؤقتة . .

وتتكون الفرق الدائمة من المتعطلين من العمال والموظفين والمثقفين ، الذين يعملون طوال النهار ويحصلون على أجر اسمى وطعام لا يكاد يقيم أودهم . . .

ويلى الفرق الدائمة فرق مؤقتة تتكون من الطلبة ووكلاء النيابة الشبان والمدرسين وموظفى الحكومة والعمال الذين يجندون طول مدة إجازاتهم الصيفية . . . ولا يحصل هؤلاء « المتطوعون » على أى أجر ، ولا يكاد يختلف الطعام الذى يتلقونه عن الطعام الذى يصرف فى معسكرات الاعتقال . .

وتشتغل هذه الفرق بنوعيها فى الأشغال العامة ، ويخضع أفرادها لنظام قاس ويعملون مدة عشر ساعات يومياً ثم ينفقون ساعتين أخرتين فى تلقى « التربية السياسية »

ويصف الجنرال راديسكو نوعين آخرين من الفرق التى تنظم على أساس غير دائم ، وهى تتكون من الذين يوظفون محلياً فى وظائف بعض الوقت سواء فى المناطق الريفية أو المدن . . فى الفرق الريفية يرغم الفلاحون على العمل دون أجر سواء فى مشروعات القرية أو فى مشروعات الأشغال العامة التى تقوم بها الدولة فى منطقتهم .

« أما فى المدن ، فيرغم كل من يحصل على أجر أو مرتب ،

وكل المتعطلين ، والمحالون على المعاش والطلبة (وعلى العموم أى رجل أو امرأة أو طفل يتسلم أمراً خاصاً بالاستدعاء) يرغم كل هؤلاء على العمل « باختيارهم » فى تعبيد الطرق وفروع الأشجار . . . إلخ . . . وهم يستدعون لأداء هذه الأعمال بواسطة ممثلى الحزب الشيوعى أو نقابات العمال أو المدارس . . . وكان من يتغيب عن الحضور يعاقب بسحب بطاقته الغذائية أو بطرده من عمله أو مدرسته .

وهكذا يبلغ متوسط مجموع العمل الإضافى الذى يرغم الفرد على أدائه عن طريق هذه الفرق غير الدائمة فى أوقات فراغه التى كان المفروض أن يقضيها فى الراحة والاستمتاع ، ٤٠ ساعة فى الشهر . . . وتعمل هذه الفرق غالباً أيام الآحاد والأعياد الدينية الأخرى كى يمنع أفرادها من حضور الكنائس والاشتراك فى الأنواع الأخرى من النشاط الاجتماعى التى قد لا تمتد إليها سلطة الحزب الشيوعى . .

وهناك نوع رابع من فرق العمل ، لا يلتحق به إلا موظفو الدولة من ضحايا التطهير السياسى ، وضباط الجيش المطرودين ، وعلى العموم أى شخص لا تنتفع منه الدولة عن طريق وظيفته . . . ويعمل هؤلاء الأشخاص فى ظروف لا تختلف عن تلك التى تسود معسكرات السخرة ، فالغذاء الذى لا يكاد يبقى على الأود والأنظمة الفاشية ، وعدم صرف أجور ، والتفريق التام بين أفراد العائلة الواحدة . . . ومع هذا فكل هذه

الأنواع من فرق العمل تسمى « بالاختيارية »

وأدلى مصدر رومانى موثوق به جداً كان قد هرب من رومانيا فى أواخر يناير عام ١٩٤٩ وترك عائلته هناك ولذا فيحسن الاحتفاظ باسمه سراً ، ببيان قال فيه :

« أنشئت فرق العمل لأول مرة على أساس تجريبى فى ١٩٤٨ ، فى وادى جيو ووادى بروت ، حيث عمل المجندون فى بناء السكك الحديدية ومناجم الفحم ، واستصلاح الأراضى ، وبناء الخزانات على الأنهار . . . وارتفعت نسبة الوفاة فيها إلى ٢٥ — ٣٠ ٪ بسبب الجوع والحوادث والبرد القارس ».

هذه هى حقيقة فرق العمل ، والتى تختلف تماماً عن ذلك الذى تضمنته النشرات التى تصدرها باللغة الإنجليزية وزارة الدعاية الرومانية ، وقصد به الاستهلاك الخارجى . .

إن الفقرات التالية قد اقتطفناها من العددين السابع والثامن من مجلة « رومانيان ريفيو » الصادرة فى عام ١٩٤٨ عن مقال كتبه مسيو يون مارنسكو ، سكرتير القسم التربوى والثقافى باللجنة المركزية لاتحاد العمال الشبان . . . وكان المقال تحت عنوان « خلق شباب جديد فى رومانيا » وجاء فيه :

« إذا قمت بزيارة كاريوفا فى ظهر أحد أيام الآحاد ، لاحظت حقيقة غريبة — ففى ميدان ستالين الذى يتوسط المدينة ، تستطيع أن ترى حوالى ٦٠٠٠ شخص ، من بينهم

التلاميذ والطلبة والعمال الشبان والفلاحين والنساء ، وقد اجتمعوا جميعاً لمشاهدة تسليم علم العمل ، لأحسن « فرقة للعمل » قامت بعملها خير قيام فى إنشاء مصنع للآلات .

وتستطيع أن ترى كل يوم فى هذا المصنع ، مئات الشبان ، وخصوصاً طلبة المدارس الثانوية ، وهم يضربون أرقاماً قياسية فى العمل ويتنافسون سوياً فى الإنتاج . . . ولكن من الذى درب هؤلاء الشبان على العمل ؟ لقد أنشئت مدرسة « شينوستويكا » للتدريب فى مدينة كاريوفا فى نوفمبر سنة ١٩٤٧ . . . وهنا يشترك ٣٥٠ شاب من مختلف فرق العمل التابعة لاتحاد العمال الشبان فى إنشاء مصنع الآلات . ويعمل نصف هؤلاء فى الصباح ثم يدرسون منهاجاً للتربية السياسية والفنية بعد الظهر . . ويقوم النصف الآخر بالعمل بعد الظهر والدراسة فى الصباح .

لقد كان هؤلاء الشبان فى أول الأمر أفراد قلائل يدربهم بعض الفنيين من مصلحة السكك الحديدية الرومانية — ثم أتى آلاف المتطوعين . . . أما اليوم فتوجد ٧٠ فرقة للعمل تضم ٥٠٠٠ شاب . . .

وفى أواخر أكتوبر بدأت بوادر أزمة النقص فى « الغاز الطبيعى » تهدد مصانع بوخارست . . . وأصبح من الضرورى بناء خط من الأنابيب يصل بوخارست بالمصادر الرئيسية للوقود الطبيعى فى ترانسلفانيا . . واختط مشروع بناء خط للأنابيب

يصل بين بوتوركا – ميتايتا ألبا ، حيث توجد آبار الغاز الطبيعى ، وبين أجنينا وهى ملتقى الخط الرئيسى الموصل إلى بوخارست ، أى لمسافة طولها ٥١ كيلومتراً ونصف كيلو متر . . وقرر الفنيون أنه يمكن إتمام هذا المشروع إذا كان الجو ملائماً ، فى مدة ستة شهور . . .

ولكن الحكومة ، معتمدة على جمهور العمال الشبان المتحمسين ، طلبت إليهم إنهاء هذا المشروع فى ظرف ٤٨ ساعة . . . وفى ظرف يومين اثنين لبى ٣٥ من عمال بوخارست الشبان نداء اللجنة المركزية لاتحاد العمال الشبان وأعلنوا استعدادهم للعمل رغم الأمطار والثلوج والبرد والطين . . . وتقدم ٤٠٠ شاب آخر من المناطق المجاورة . وانضم الشبان جميعاً فى فرقة للعمل أطلقوا عليها اسم « جورج جورجيو دى » وتدفق الآلاف من الفلاحين الرومانيين والهنغاريين والعمال والنساء والجنود للعمل فى أوقات فراغهم ، فانتهى مشروع خط الأنابيب فى ٣٤ يوماً فقط . .

ولم يكن إتمام المشروع فى هذه المدة القصيرة ممكناً إلا لأن الشبان كانوا يعملون ليلا ونهاراً ، متنافسين سوياً على إحراز قصب السبق فى الإنتاج . .

وقد سبق القيام بهذا المشروع تنفيذ سلسلة من الأعمال الإنشائية التى نظمها اتحاد العمال الشبان فى صيف وخريف عام ١٩٤٧ . . فلم تكن هناك فى ذلك الحين إلا ١٣ فرقة فى

مختلف أنحاء الدولة ـ عملت ٣,٣١٩,٠٠٠ ساعة وأتمت ١١٠ كيلومتراً من خطوط السكك الحديدية ، واستخرجت عشرات الأطنان من الفحم . . وكانت هناك أيضاً ٣٥٠ فرقة مؤقتة تضم ١٠٠,٠٠٠ شاب استطاعت فى ٧٥٠,٠٠٠ ساعة عمل أن تقوم بما يزيد على ٤٥,٠٠٠ نوع مختلف من العمل ، كإصلاح الآلات ، وصناعة المعدات الزراعية . . .

واتسع نشاط الشباب الرومانى فى ميدان الأعمال الإنشائية باشتراك عدد من فرق العمل الاحتياطى فى يوغسلافيا معهم فى إنشاء خط حديدى يصل بين ساماك وسبرايفو ، فضلا عن عشرة مشروعات مشابهة فى بلغاريا وألبانيا . . .

وبعد هذا ضرب ١٠٣ من العمال الشبان الرقم القياسى للسرعة فى بناء أكبر مضخة للأمراض الصدرية فى رومانيا فى بلدة ماريللا . . .

ثم اشترك ٥٥٠ شاب من فرقة « ماسيل لوقا » للعمل ، من بينهم ٤٥ شاباً من أجزيتا ، فى بناء خط حديدى لأنابيب الغاز يصل بين سياونو ماري وبين كلوى . . . واستطاع هؤلاء الشبان أن يحققوا معجزة أخرى من معجزات العمل ، فبدلا من إنشاء ثلاثة كيلومترات من الأنابيب فى الشهر طبقاً لتقدير الخبراء الفنيين ، استطاع الشبان إتمام ثلاثة كيلومترات فى اليوم ، وأتموا خط الأنابيب بأكمله ، وطوله ٣٤ كيلومتراً

ونصف كيلومتر ، فى ٢٧ يوماً فقط . . .

وجاء دور بوخارست ، حيث قام ٨٠٠ من الشبان المتطوعين ببناء مصنع كبير فى نفس الوقت الذى تم فيه إنشاء خط حديدى طوله ١٦ كيلومتراً يعمل بين سناجوف وكاسيولاتا ، بواسطة ٤٥٠ متطوعاً يعاونهم آلاف من عمال العاصمة فى أوقات فراغهم وآلاف الفلاحين من المناطق المجاورة . .

وكى يحتفل الشبان بالعيد الأول لتكوين اتحاد العمال الشبان (من ٢١ فبراير إلى ١٥ مارس) ، يقوم الشبان فى كل دولة ببناء مشروع واحد على الأقل ذو صبغة محلية عامة . . . وأنشأت حكومة الجمهورية الرومانية الشعبية لجنة خاصة لتوجيه جهود هؤلاء الشبان التى تضمنت تنفيذ ستة مشروعات قومية كان أولها بناء خط أنابيب الغاز الطبيعى الموصل بين سياونول مارى وبين كلوى والذى تم فعلا . . وفى أول أبريل تقرر تنفيذ ثلاثة مشروعات كبيرة أخرى هى :

١ ــ الخط الحديدى الموصل بين بومبستى وليفيزينى والذى يبلغ طوله ٣١,٤ كيلومتراً والذى بدأ العمل فيه منذ ٢٠ عاماً ثم أوقف بواسطة العهود الغابرة وسيتم إنشاء هذا الخط الحديدى قبل نهاية نوفمبر عام ١٩٤٨ بفضل مجهودات الشبان .

٢ ــ الخط الحديدى بين سلفا وفيسيو والذى يبلغ طوله ٦٥ كيلومتراً .

٣ – إنشاء خزان على منطقة الفيضان من نهر بروت ، بغية استصلاح ١٣,٠٠٠ هكتار من الأراضى . . .

وتقرر أيضاً تنفيذ مشروعين آخرين فى ذلك الصيف هما تعبيد شوارع ضواحى بوخارست وإعادة بناء ميناء جالاتز الواقع على الدانوب » .

وهكذا يتضح لنا أن نظام السخرة لا يطبق فقط فى المعسكرات التى يستغل فيها « أعداء الدولة » ، بل إنه يطبق فى الحقيقة على كافة السكان وإن كان على مدى مختلف طبقاً لأوساط الشعب . .

وتطبق فى رومانيا الآن قوانين تشبه تلك التى أصدرها الاتحاد السوفيتى منذ وقت طويل ، ولعل أهمها هو القانون الخاص بتحديد معنى « الجرائم التى تهدد أمن الدولة وتعوق تطور الاقتصاد السياسى » وها نحن ننشر نصه نقلا عن العدد الصادر فى ٦ فبراير عام ١٩٤٩ . من جريدة « رومانيان نيوز » .

« نص القانون الرومانى الصادر فى ١٣ يناير سنة ١٩٤٩ (الترجمة الإنجليزية الرسمية قام بنشرها مكتب الصحافة بالمفوضية الرومانية فى واشنطن العاصمة)

المادة الأولى

يعاقب بالإعدام على الجرائم التالية :

(ا) خيانة الدولة والعمل لحساب الأعداء – أو القيام

بأعمال ضارة بسلطة الدولة .

(ب) الحصول على أسرار الدولة أو نقلها إلى جهة أجنبية أو معادية

(حـ) التآمر ضد السلامة الخارجية والداخلية للجمهورية الرومانية الشعبية ..

المادة الثانية

يحكم بالإعدام أيضاً على جريمة التخريب والتآمر وتتضمن هذه الأعمال التالية :

(ا) تخريب أو تحطيم، بأية وسيلة، المبانى والآلات وأى نوع من معدات المصانع والمنشآت المماثلة ومحطات توليد القوى والغاز والمحطات المماثلة .

(ب) تخريب الطرق والخطوط الحديدية ومنشآت ومواد ووسائل الاتصال بالبحر أو الجو والكبارى ومعدات التليفون والتلغراف وتخريب محطات الإذاعة .

(حـ) تخريب، باستخدام الحريق أو أية وسيلة أخرى ، الغابات والنباتات والمواد الأولية الصناعية والزراعية .

(د) تعمد عدم القيام بالواجبات أو الإهمال فى أداء الواجبات فى المنشآت المنصوص عليها فى الفقرة (ا) والتى قد ينتج عنها كوارث ونكبات عامة . .

المادة الثالثة :

يحكم بالإعدام أيضاً على الأعمال الإرهابية أيا كان نوعها التى يقوم بها الأفراد والجماعات فضلا عن نشر الميكروبات والمواد السامة التى تقتل أو تضر وتطبق نفس العقوبة على منظمى عصابات الإرهاب أو التخريب . . .

المادة الرابعة :

يعاقب بالإعدام على التحريض أو الاشتراك فى التامر ، أو إخفاء المشتركين فى الجريمة ، فضلا عن الأعمال التحضيرية المتعلقة بالجرائم السابق ذكرها . . أما أولئك الذين يعترفون بتحضير أو ارتكاب الجرائم السابقة ، ولو أنهم يعلمون بها ، فيحكم عليهم بالأشغال الشاقة لمدة تتراوح بين خمس وعشر سنوات .

المادة الخامسة :

الجرائم المذكورة فى هذا القانون يحاكم مرتكبوها أمام محاكم عسكرية ! !

وفى ٣٠ أبريل عام ١٩٤٩ صدر المرسوم نمرة ١٨٧ ، والخاص بتعديل المادة الأولى من قانون الجنايات التى أضاف

إليها العبارات التمهيدية التالية :

« يهدف قانون الجنايات إلى حماية الجمهورية الشعبية الرومانية ونظامها الشرعى ضد الأعمال الضارة بالمجتمع . وذلك عن طريق اتخاذ إجراءات قانونية لأمن المجتمع ضد الأشخاص الذين يرتكبون هذه الجرائم . . .

وعلى ضوء هذه الفقرة السابقة ، يعتبر عملا مضراً بالمجتمع أى عمل أو إهمال من شأنه أن يضر بالنظام الاقتصادى أو السياسى أو الاجتماعى فى الجمهورية الشعبية الرومانية أو يعكر صفو النظام الشرعى الذى أقامه الشعب تحت قيادة الطبقة العاملة . .

ويعاقب على الأعمال التى تعتبر ضارة بالمجتمع — حتى ولو لم ينص عليها القانون صراحة . . وفى هذه الحالة يحدد مدى المسئولية الجنائية طبقاً للنصوص الخاصة بالجرائم المشابهة » .

وللتدليل على « إنصاف » القوانين والمحاكم فى هذه المستعمرة السوفيتية ، نشرت الجريدة الرسمية بوزارة العدل فى عددها الثالث والرابع لعام ١٩٤٩ ما يأتى :

« يجب على القاضى أن يفسر القانون لمصلحة الطرف الذى ينتمى إلى الطبقة العاملة . . . ويجب عليه أن يستوفى روح الإنصاف والعدالة التى قد تكون فى صالح أحد المتقاضيين دون النظر إلى أى دليل عكسى آخر » . . . .

وقد ذهبت هذه المستعمرات الشيوعية فى محاولتها « مجاراة » السلطة العليا والاتحاد السوفييتى ، أبعد مما ذهب إليه القانون السوفييتى الحالى ، ولكن أساس القوانين واحد مما لا يجعل فرقاً كبيراً بين الحكومة الرومانية وحكومة إحدى دول الاتحاد السوفييتى . .

ويتضاءل هذا الفرق فى الميدان الاقتصادى حتى يصل إلى العدم . . . فالصناعات الرئيسية فى رومانيا تديرها منشآت تملكها رومانيا بالاشتراك مع الاتحاد السوفييتى ولعلنا لا نبين مغزى وأهمية هذه المنشآت الثنائية إلا إذا أوردنا قائمة بها :

١ ــ النقل السوفييتى الرومانى :

كانت هذه المنشأة فى الأصل لا تحتكر إلا وسائل النقل البحرى والنهرى ، وكان لديها امتياز استخدام الموانئ التى تملكها الدولة لمدة خمسين عاماً ، أما بعد ذلك فى عام ١٩٤٩ ، احتكرت هذه المنشأة وسائل النقل الدولى للبضائع وكل وسائل النقل الداخلى للبضائع (شركات الملاحة والنقل بالسيارات . . إلخ . . .)

٢ ــ النقل الجوى السوفييتى الرومانى :

التى تمتلك وتدير المنشأة الوحيدة للنقل الجوى فى رومانيا .

٣ ــ البنك السوفييتى الرومانى :

استوعب هذا البنك معظم البنوك التجارية السابقة ، وهو يشارك بنك الدولة (البنك الأهلى سابقاً) ، احتكار كل أعمال البنوك . . . كما يقوم هذا البنك أيضاً بتمويل المبادلات التجارية مع الاتحاد السوفييتى والدول الشيوعية الأخرى ، فضلا عن احتكار عمليات المبادلات المالية للمنشآت الرومانية السوفييتية الأخرى . . .

٤ ــ الأخشاب السوفيتية الرومانية :

وهى تسيطر على معظم صناعات قطع الغابات وإعداد الأخشاب فضلا عن صناعات الأثاث والأدوات الخشبية الأخرى .

٥ ــ التأمين السوفييتى الرومانى :

استوعبت كل شركات التأمين الخاصة السابقة ، وتحتكر جميع أنواع التأمين .

٦ ــ البترول السوفييتى الرومانى :

تسيطر على نحو ٥٠ ٪ من صناعة البترول ، وتتمتع بأفضلية البحث والتنقيب عن آبار جديدة للبترول .

٧ ــ الكيمياء السوفييتية الرومانية :

تسيطر على كل الصناعات الكيماوية فى رومانيا .

٨ ــ المعادن السوفييتية الرومانية :

استوعبت كل مصانع المعادن باستثناء ورش التصليح لسكك حديد الحكومة .

٩ ــ الجرارات السوفييتية الرومانية :

استولت على مصنع الطائرات التى كانت الحكومة تملك معظمه ، والموجود فى براسوف والذى حول إلى مصنع لإنتاج الجرارات الزراعية .

١٠ ــ الغاز السوفييتى الرومانى :

لديها امتياز استغلال وتصنيع وتوزيع المنابع الرومانية الغنية للغاز الطبيعى فى ترانسلفانيا ، والتى كانت تستغل سابقاً بواسطة شركة رومانية كانت الحكومة تمتلك عدداً لا بأس به من أسهمها .

١١ ــ البناء السوفييتى الرومانى :

والتى تسيطر على كل صناعة البناء بما فيها مصانع الأسمنت والمحاجر وأعمال المقاولات .

١٢ ــ الكربون السوفييتى الرومانى :

التى تدير وتسيطر على كلّ مناجم الفحم فى رومانيا

١٣ ــ الأفلام السوفيتية الرومانية :

التى تسيطر على كل صناعة الأفلام السينمائية وتوزيعها .

وفى مقابل خمسين فى المائة من أسهم هذه المنشآت السوفييتية الرومانية ، قدمت رومانيا كل مصادر ثروتها فى الميادين التى تعمل فيها هذه المنشآت . . . أما الاتحاد السوفييتى ، فقد قدم بعض الآلات التى استولى عليها من ألمانيا وإيطاليا ورومانيا ، بل وفى أغلب الأحيان لم يقدم إلا وعوداً غامضة بإرسال شحنات أخرى من الآلات والمعونة الفنية . . . ولم يحصل الاتحاد السوفييتى مقابل ذلك على ٥٠ ٪ من الأسهم فقط ولكنه أصبح يسيطر سيطرة تامة على هذه المنشآت بتعيين مديرين سوفييت لها . . . .

وهكذا أصبح الاتحاد السوفييتى يسيطر سيطرة مباشرة على أهم المصادر المالية والصناعية والمناجم والنقل فى رومانيا ، وكل ذلك بفضل اتباع الطريقة الاستعمارية التقليدية .

ويختلف عمل نقابات العمال فى الاتحاد السوفيتى عنه فى الغرب . . ففى الدول غير الشيوعية تعمل نقابات العمال لصالح

العمال من أعضائها ، أما فى الاتحاد السوفييتى فليست نقابات العمال إلا مجرد أداة يستخدمها الحزب الشيوعى والحكومة للتأكد من أن الإنتاج قد بلغ النسب التى حددتها السلطات ، مهما لاقى العمال فى سبيل ذلك من عناء . . . ولا يختلف الحال فى الدول الشيوعية عن ذلك ، فلم تعد نقابات العمال تمثل مصالحهم بل أصبحت وكالات حكومية . . . ولعل البيان التالى الذى كتبه أفتيمى غرمان يبين لنا مدى المطابقة بين وظيفة نقابات العمال فى رومانيا وفى الاتحاد السوفييتى وكيف أصبحت هذه النقابات أداة لأعمال السخرة . . .

بيان أفتيمى غرمان

« أنا الموقع أدناه «أفتيمى غرمان» ، منظم عمال مناجم الفحم فى رومانيا ، والسكرتير العام السابق لاتحاد المعدنين ، والعضو الاشتراكى فى عدد من البرلمانات الرومانية ، وفى الوقت الحالى لاجئ سياسى فى باريس بفرنسا ، أعلن أن التالى وصف عادل دقيق لأحوال نقابات العمال فى ظل الحكومة الشيوعية الحالية فى رومانيا . . .

« تكونت نقابات العمال فى الماضى بفضل همة الموظفين والعمال وإرادتهم الحرة .

« وكانت هذه النقابات منظمات حرة لا تخضع لتأثير الدولة أو أصحاب الأعمال، وكانت لجانها تنتخب بواسطة الأعضاء دون أى مؤثر خارجى . . . وكانت قيمة الاشتراكات يحددها الأعضاء ويدفعونها مباشرة وباختيارهم . . . وكانت النقود التى تجمع بواسطة هذه الاشتراكات تستخدم فقط لإعانة المتعطلين وتنظيم الإضرابات وتقديم المساعدات فى حالات المرض أو الوفاة ، فضلا عن نفقات النقابة وتمويل صحيفتها التى كانت توزع مجاناً على الأعضاء .

« وكانت نقابات العمال تحارب ليل نهار فى سبيل المحافظة على الحقوق المكتسبة وفى سبيل اكتساب حقوق جديدة لتحسين حالة العامل النفسية والمادية ، ولعقد اتفاقيات جماعية لصالح العمال . . . إلخ . . . وكانت هذه الاتفاقيات الجماعية نتيجة للمفاوضات المباشرة بين أصحاب الأعمال وبين مندوبى العمال المنتخبين فى حرية تامة . . . وفى حالة فشل هذه المفاوضات كانت تترك للعمال حرية القيام بإضرابات ، إلا أولئك الذين كانوا يعملون فى منشآت البلدية أو حكومية أو عامة ، إذ كانت حقوق الإضراب وإغلاق المصانع محرمة على عمال مثل هذه المنشآت . . . وفى حالة فشل المفاوضات كانت المنازعات تسوى بواسطة التحكيم الإجبارى .. وكان العمال فى الماضى قد احتجوا على حرمانهم من حقوق

الإضراب وعلى التحكيم الإجبارى . . .

وكانت الاتفاقيات الجماعية وقرارات التحكيم تنص عادة على أحوال العمل والأجور والإجراءات اللازمة الواجب على صاحب العمل اتخاذها وعلى العطلة التى يحصل العامل على أجره خلالها ، وعلى مدى نفوذ مندوبى العمال ، وعلى حقوق الإضراب إلخ . . .

أما اليوم — فالعامل مرغم على الاشتراك فى نقابات العمال التى تقودها وتسيطر عليها لجان تعينها السلطات — ويعين قادة العمال بواسطة الخلايا الشيوعية ، كما تحذف قيمة اشتراكات النقابة من الأجور مباشرة دون الحصول على موافقة العمال . . وتستخدم الأموال الناتجة عن تحصيل هذه الاشتراكات فى تمويل أداة الدعاية الشيوعية الضخمة ، ولتمويل الإضرابات فى الدول الغربية . ولمساعدة الثوار فى اليونان .

ولم تكن هناك أية مبالغ مخصصة لمساعدة أعضاء النقابات إذا مرضوا أو حين كان عليهم الحصول على نفقات إقامة جنازة ما . . ولم يقتصر الأمر على أن إعانة المتعطلين لم يعد لها وجود قط ، بل لقد تعدى ذلك إلى عدم الاعتراف بوجود حالة التعطل على الإطلاق ، كما أصبحت الإضرابات تعتبر جريمة تخريب اقتصادى يعاقب عليها بالموت .

واليوم أصبحت نقابات العمال التى يرأسها « رجال العمل »

مجرد أداة للحزب الشيوعى يستخدمها فى الدعاية وفى المناورات السياسية والأعمال الأخرى . . ويرغم العمال على القيام بدور إيجابى فى كل أوجه النشاط والمظاهرات الشيوعية . . فإذا حدث أن تغيب عامل عن هذه المظاهرات لأول مرة ، عوقب بسحب بطاقته الغذائية . وإذا تكررت « الجنحة » عوقب « العامل المذنب » بتطهيره من الأوساط العمالية — وهى عقوبة لا تضارعها إلا عقوبة الإعدام جوعاً . . كما أن النقابات بالإضافة إلى كل هذا أداة للتنفيذ والإشراف فى خدمة رأسمالية الدولة والمنشآت السوفيتية الرومانية ، أى فى خدمة أصحاب الأعمال الحاليين المستغلين . . وتقوم نقابات العمال بالإشراف على العمال وحثهم خلال ساعات العمل وتنظيم المسابقات الاشتراكية التى تهدف إلى زيادة إنتاج العمل . . ويكافأ العمال الفائزون فى هذه المسابقات بوسام صنع من مادة رخيصة يسمى « وسام العمل » كما تمنح النقابات التى ينتمون إليها أعلاماً حمراء تسمى أعلام الإنتاج .

أما اتفاقيات العمل الجماعى ، فتمليها اليوم وزارة الصناعة مستهدفة بها خدمة رأسمالية الدولة . وألغى نظام « الوقت — العمل — الأجر » الذى كافح العمال طويلا فى سبيل الحصول عليه . وطبق نظام القطعة فى كل المصانع والمنشآت . . أما مستويات الإنتاج التى تقرر على أساسها أجور القطعة التصاعدية فى هذا

النظام ، فيحددها صاحب العمل وحده ، أى اتحاد العمل وسلطات الدولة .

وأعيد تفسير نظام ساعات العمل الثمان فى المناجم فأصبح العامل يقضى هذه الساعات الثمان فى العمل داخل المنجم نفسه ، ولا يحسب من ضمنها الوقت اللازم للدخول إلى المنجم أو الخروج منه وبالتالى لا يدفع أجره . . كما ألغيت كل الامتيازات الأخرى التى كان عمال المناجم فى الماضى يحصلون عليها مجاناً ، كالمسكن والإنارة والتدفئة . وقد أرغم العمال أنفسهم على ترك هذه الامتيازات عن طريق رجاء خاص تقدمت به نقاباتهم بالنيابة عنهم . . ومع ذلك نسيت الصحافة الشيوعية أن تذكر ما الذى كان يحدث للمعدنين لو أنهم رفضوا قبول « الرجاء » التى تقدم به رؤساؤهم الشيوعيون .

لقد عملت الحكومة الرومانية الحالية على تغيير الدور الذى تقوم به نقابات العمال والحط منه فحولتها من منظمات حرة مستقلة إلى منظمات إجبارية تخضع للحزب الشيوعى ، ومن جمعيات لحماية مصالح العمال المادية والمعنوية إلى أداة لاستغلال العمال وإذلالهم ، أو بالاختصار إلى أداة لتنفيذ المصالح السوفييتية الاستعمارية .

إن النظام السائد فى رومانيا الآن قد انحرف بنقابات العمال عن أهدافها الأساسية التقليدية باستخدام وسائل

للاستغلال بدائية وحشية أبعد ما تكون عن الديمقراطية ، مما يؤدى إلى الإنهاك الإنسانى التام . . . وأن هذا النظام ليس من حقه أن يعتبر نفسه ديمقراطياً ، بله يعتبر نفسه اشتراكياً . .

ونقتطف هنا مرة أخرى من حديث للجنرال رادسكو ، يعطينا فيه فكرة سريعة ، ولكنها مؤثرة ، عن الفلاح الرومانى .

« إن حالة الجزء الأكبر من العمال الرومانيين ، أى أولئك الذين يعملون فى الحقول ، لا تختلف كثيراً عن حالة الأرقاء . . لقد فقد كل الفلاحين أموالهم نتيجة « للتجمد المالى » فى أغسطس عام ١٩٤٧ ، والذى لم يكن إلا قناعاً اختفت وراءه وحشية السلطات فى مصادرة كل مدخرات الفلاحين ونتيجة كدح جيل بأكمله ، فيظل الفلاحون يتأرجحون بين الفقر والإفلاس بواسطة الضرائب المتصاعدة التى تهدف إلى القضاء على الملكيات الخاصة . . والطريقة التى تستخدم لإفقار الفلاح واستعباده تدريجياً هى كالتالى . . تضع الدولة حداً نظرياً أدنى لإنتاج الهكتار من المحصول (الهكتار يساوى ٢,٢ فدان تقريباً) يرغم الفلاح على أساسه — لا على أساس الإنتاج الحقيقى — أن يدفع ضريبة المحصول العينية . والفلاح الذى يملك أقل من ثلاثة هكتارات (ودخلها لا يكاد يكفى للإنفاق على الفلاح وعائلته) عليه أن يؤدى للدولة ٢٢ ٪ من محصوله (وحده الأدنى المقرر ١٠٠٠ كيلوجرام من الحبوب لكل هكتار) .

أما الفلاح الذى يملك ٢٠ هكتاراً فعليه أن يؤدى للدولة ٥٨ ٪ من المحصول . . ولا تدفع الحكومة مقابل الحبوب التى تحصلها إلا ٥,٦ لى لكل كيلوجوام مع أن سعر السوق الحرة هو ١٨ لى للكيلوجرام فى المتوسط . وبرغم هذا تبيع الدولة للفلاح الكيلو جرام الواحد من بذور نفس الحبوب بسعر ١٠ لى . وقد عمدت الحكومة إلى جانب ذلك إلى وضع اليد على كل الآلات الزراعية كى تتم لها السيطرة الكاملة على العمال الزراعيين .

وكانت هذه الإجراءات بالإضافة إلى الضريبة الزراعية الجديدة التى تعادل خمسة أمثال الضريبة القديمة ، كافية جداً لتحقيق أهداف الحكومة الشيوعية وهى :

(ا) انهيار المحصول الزراعى . إذ انخفض متوسط الهكتار من ١١٦٠ كجم فى عام ١٩٤٤ إلى ٧٥٠ كجم فى ١٩٤٧ .

(ب) إفلاس الفلاح الذى انخفض إنتاجه بمقدار يتراوح بين ١٥ ٪ و ٤٥ ٪ عنه فى عام ١٩٣٨ نتيجة للإجراءات القاسية الموجهة ضده . ومع ذلك فمطلوب منه أن يدفع ضرائب أعلى ٥ مرات عنها فى عام ١٩٣٨ وأن يبيع للدولة ٥٨ ٪ من محصوله بأسعار عام ١٩٣٨ ، فى حين أن البضائع التى يحتاجها هو وعائلته قد ارتفعت أثمانها مرتين ونصف مرة على الأقل عنها فى عام ١٩٣٨ » .

ويجب علينا ملاحظة أن فشل الفلاح فى الاستجابة لهذا البرنامج الزراعى يعرضه للعقاب بتهمة الرأسمالية « طبقاً للقانون » ولنر كيف تؤثر هذه الظروف التى وضعها لنا الجنرال رادسكو على الحياة الحقيقية للفلاح ، باقتطاف أجزاء من مقال نشره مسيو ميشيل دبراى فى العدد الصادر فى ١٣ مارس عام ١٩٤٩ من جريدة « فرانس سوار » . . . ومسيو دابرى خبير فنى فرنسى أمضى فى رومانيا وقتاً طويلا . . وهذه مقتطفات من المقال :

« فى بداية موسم الحرث فى الخريف الماضى ، أرسلت وزارة الزراعة الرومانية منشوراً يأمر كل الفلاحين فى جميع أنحاء الدولة بحرث أراضيهم فى نفس الفترة . . وحين تسلم رؤساء عدة آلاف من القرى ، وهم من الشيوعيين ، هذا المنشور هزوا رؤوسهم فى قلق . غير أن أوامر الحكومة فى الدول السوفييتية لا تناقش ، وهكذا خرجت كل المحاريث من مخازنها فى الميعاد المحدد . .

ولسوء الحظ كانت الأجزاء الشرقية والشمالية من رومانيا فى ذلك الوقت تعانى جفافاً حاداً استمر شهرين ونصف شهر ترك التربة صماء كالحجر . . وعبثاً راحت كل المحاولات التى بذلت لشق التربة بواسطة تلك المحاريث البدائية التى تجرها الحيوانات التى أضعفها الجوع . ولم تفلح الجهود الجبارة التى بذلت إلا فى خدش سطح التربة فقط فى أغلب الأحوال .

وعندما تسلمت السلطات العليا تقارير وكلائها المحليين التى وضحوا فيها فشل الفلاحين فى إتمام المهمة كما أمرت الوزارة ، أرسلت أوامرها بفرض العقوبات على الفلاحين فى الحال ، فأرسل إلى السجن فلاح من كل عشرة فلاحين .

وفى قديم الأيام ، كانت الأسواق الرومانية من أجمل المناظر الممتعة المسلية ، أما اليوم فقد فقدت الملابس الكالحة روائها بعد أن بليت وظل أصحابها يرقعونها طوال العشر سنوات الأخيرة ، وأصبحت هذه الأسواق وكأنها بعض مناظر العصور الوسطى فالملابس المرقعة والوجوه غير الحليقة والرجال المسنين ذوى المناظر البشعة الذين تنبعث منهم القذارة . . إن الرومانيين لم يعد لهم ما يمتلكونه . . فالصوف والأقمشة والجلود والأخشاب والحديد والنحاس — كل هذا يرسل إلى روسيا . . »

وأصبح الفلاحون الذين حكم عليهم ، وقوداً لمعسكرات السخرة السوفييتية التى تطالب أبداً بالمزيد ، وللمعسكرات المتزايدة فى رومانيا نفسها .

واليوم تضم معسكرات السخرة ١٥٠,٠٠٠ من هؤلاء الفلاحين والسجناء الآخرين ، يعمل ثمانية آلاف منهم فى إتمام القنال الذى يصل بين الدانوب والبحر الأسود ، أما الظروف التى تسود العمل فى هذا المشروع الضخم فيشرحها لنا الخطاب الذى أرسله أحد المثقفين الشبان إلى والدته وجاء فيه « إننا فى

صحة جيدة ... وكلنا نعمل باختيارنا من الساعة السادسة صباحاً حتى العاشرة مساء فقط . . والعمل فى القنال جميل وشاعرى جداً . . . فليس هناك إلا الماء أو الأقذار ، وأحياناً الاثنين سوياً . . ولو كنت تعلمين يا أمى كيف أن الأحوال جميلة فى القنال لكنت قد أرسلت للعمل هناك منذ مدة طويلة ! ! !

ملحوظة :

تستعمل اللغة الرومانية لكلمة "القنال" نفس اللفظ المستعمل لكلمة « المجارى »

الفصل السادس

المجر وبلغاريا تحت نير الاستعباد

١

يجدر بنا لكى نفهم تماماً حقيقة الذى يحدث للعمال فى الدول الشيوعية ، أن نتمعن فى البيان التالى الذى أصدرته اللجنة السياسية لحزب العمال المجرى (الحزب الشيوعى) فى ٢٨ يوليو عام ١٩٥٠ .

تقول جريدة « زاباد نيب » ان اللجنة السياسية قد تفقدت أعمال الشيوعيين الذين يعملون فى المجلس القومى لنقابات العمال وفى قيادتها العليا ، ثم أصدرت القرارات التالية :

« استطاع شعبنا العامل فى كفاحه ضد أعداء ديمقراطيتنا الشعبية أن ينجح فى إقامة الاشتراكية فى المجر . . . »

ومن الطبيعى أن اللجنة السياسية حين تذكر « إقامة الاشتراكية » تعنى فعلا مسارعة السلافيين لاتباع السياسات والنظم التى تطبق فى الاتحاد السوفييتى ، كما سنرى إذ نورد بقية البيان وتعليقنا عليه .

« وقد اشتركت نقاباتنا العمالية أيضاً فى نجاح وتطور صناعاتنا الاشتراكية . . . فقد ساعدت نقابات العمال الحزب فى تثقيف العمال ، وتوسيع نطاق مباريات الإنتاج ، وتطور تطبيق نظام اشتراكى للأجور ، وتحقيق الأهداف الاشتراكية .

ومن الواضح أن العبارة الأولى ليست إلا ادعاء ، كما أن العبارة الثانية تعنى أن العمال قد « علّموا » كيف يقبلون دون نقاش أو جدال قرارات الحزب وأحكام الدولة . . . أما عبارة « توسيع نطاق مباريات الإنتاج » معناها أن الحد الأدنى المقرر لإنتاج الفرد والجماعات قد ارتفع ، كما أن عبارة « تطور تطبيق نظام اشتراكى للأجور » معناها أن العمال قد أصبحوا مقيدين أكثر فأكثر إلى نظام العمل بالقطعة ، وهو نظام لا يمكن أن تقبله حركة عمالية تحترم نفسها .

« وبرغم هذه الانتصارات ، كانت أعمال النقابات العمالية ، وخاصة أعمال القيادة العليا للنقابات العمالية ، أبعد كثيراً عن أن تناسب التطور العام لجمهوريتنا الشعبية ومهامها المتزايدة » . . .

إن هذا مقدمة للهجوم على قيادة النقابات العمالية ، فقد فشل الإنتاج فى تحقيق الأهداف المستحيلة التى وضعتها مشروعات السنوات الخمس ، فكان لا بد من العثور على كبش فداء . فتقرر التضحية بالقيادة العليا لنقابات العمال فى سبيل هذا الفشل .

« إن أغلبية مجلس نقابات العمال وكبار قادة نقابات العمال المختلفة ، قد فشلوا حتى الآن فى استيعاب المبادئ الرئيسية ، وفشلوا بالتالى فى أن يفهموا أن الطبقة العاملة هى التى تحكم المجر الآن ، وأن ثمار أعمالها ليست من نصيب الرأسماليين الاستغلاليين ، بل من نصيب جمهرة العمال . »

والمعنى هنا جد واضح . . . لقد انخدع زعماء النقابات العمالية وحسبوا أن المفروض عليهم فى جمهورية شعبية أن يعملوا على تحسين ظروف العمال وتمكينهم من الحصول على نصيب أكبر من ثمار كدهم . . . لقد أخطأوا إذ اعتبروا الدولة مجرد صاحب عمل حل محل الرأسمالى ، وحسبوا أن العامل لا يزال فى حاجة إلى الحماية . . .

« إنهم لم يفهموا أنهم يخدمون مصالح الطبقة العاملة لو أنهم حاربوا دون كلل فى سبيل تقوية نظام العمل واطراد ازدياد الإنتاج لأن هذين المبدئين هما اللذان يمكن على أساسهما رفع مستوى المعيشة وتعزيز جمهوريتنا الشعبية وإقامة الاشتراكية بنجاح . . .

إن تقوية نظام العمل هو الهدف من هذا القرار الذى أصدرته اللجنة السياسية التى ترى أن مهمة ممثلى العمال هى أن يوقعوا العقاب الصارم على كل من يخرق النظام ، وأن يعملوا على أن تراعى التعليمات والأوامر الصارمة بدقة أكثر ، وأن يتبينوا أن أى

تهاون من جانبهم معناه تحرر بورجوازى وتخريب اقتصادى » .

« حقيقة أنهم تحدثوا عن المهام الجديدة لنقابات العمال ولكنهم لم يعملوا من جانبهم على إحداث تغير فعلى . وهكذا اتبع بعض زعماء النقابات العمالية ، بل وبعض منظمات النقابات ولجان العمل التابعة لها ، نفس الطرق التى كانت تتبع سابقاً لمواجهة مشاكل الإنتاج والأجور ، والتى كان من العدل والواجب اتباعها ضد الاستغلاليين فى العهد الغابر . غير أن هذه الطرق لا يمكن احتمالها ولا يسمح بها فى هذا العهد لأن من شأنها إضعاف قوة الطبقة العاملة وإعاقة إقامة الاشتراكية ، وإبطاء سرعة رفع مستوى المعيشة » .

وهذا معناه فى كلمات أخرى أن الملاك الرأسماليين إذا طالبوا بزيادة الإنتاج وأرادوا زيادة ساعات العمل وعارضوا فى رفع الأجور ، فإن مهمة نقابات العمال هى حماية العمال بمقاومة طلبات هؤلاء الاستغلاليين . . . أما إذا تولت السلطة حكومة شيوعية ، فتصبح مهمة نقابات العمال هى الاشتراك فى خلق الظروف التى لم يكن لها مثيل حتى فى ظل الحكومات الفاشية أو نصف الفاشية . ولا تعتبر هذه الإجراءات فى هذه الحالة استغلالا لأنها تهدف إلى « رفاهية العمال » وإلى إقامة ما يسميه الزعماء بالاشتراكية .

« إن مسئوليات جساماً تقع على عاتق مجلس نقابات العمال

وزعماء النقابات بسبب ضعف الإنتاج والتلاعب فى الأجور، لأنهم تساهلوا بل وأخفوا الأغلاط التى ارتكبت بهذا الخصوص. لقد فشلوا فى استيعاب حقيقة واحدة هى أن موضوعات زيادة الإنتاج وتنمية الصناعة القومية هى المشكلة التى يجب أن تتركز حولها كل جهود وأعمال النقابات العمالية. لقد ارتكب الشيوعيون فى مجلس نقابات العمال وفى القيادة العليا لنقابات العمال هذه الأخطاء لسبب رئيسى واحد هو أن علاقتهم بالحزب قد فترت ولأن كثيرين منهم قد خرجوا على الحزب».

لقد كان من الخطر طبعاً على اللجنة السياسية أن تبحث فى الأسباب الحقيقية. ومن الواضح أن زعماء النقابات قد حملوا اشتراكيتهم على محمل الجد، وآمنوا بما تنص عليه الماركسية بخصوص العمل، فكان إخلاصهم هذا واعتقادهم بأن حكومة العمال يجب أن تعمل على رفاهية العمال خطأ شنيعاً. فيجب ألا تكون نقابات العمال مستقلة، بل يجب أن تصبح أداة للدولة وللحزب.

وقبل أن نستمر فى عرض الخطوات الرئيسية التى تتبعها الدول الشيوعية لتحطيم الحركات النظامية العمالية، نحب أن نشير إلى أن نقابات العمال المجرية قد اشتهرت دائماً بأمانتها ونظامها وإخلاصها فى حماية العمال ضد الاستغلال. وكانت قيادة هذه النقابات فى غالب الأحوال فى يد الاشتراكيين الديمقراطيين،

الذين كان لهم تأثير كبير على هذه النقابات . . . وقد كان أحد الأهداف الرئيسية للجنة السياسية بالحزب الشيوعى المجرى ، كما سنرى فيما يلى ، هو القضاء نهائياً على النفوذ الاشتراكى الديمقراطى فى هذه النقابات العمالية .

وعلق بيان اللجنة المركزية على فتور علاقة هؤلاء الشيوعيين بالحزب وعلى أن كثيراً منهم قد خرجوا عليه فقال ان هذا الفتور يتضح فيما يأتى :

١ — « لم يعمل الشيوعيون فى مجلس نقابات العمال ولا فى القيادة العليا لنقابات العمال على تحقيق قيادة الحزب الحاسمة أو لتطبيق سياسة الحزب فى النقابات . لقد كانوا يعترفون اسمياً بزعامة الحزب ولكنهم فعلياً سمحوا وتغاضوا عن الإقلال من شأن دور القيادة الذى يقوم به الحزب بل إن البعض قد انغمس فى ذلك بنفسه . . . وهذا معناه ، فى كلمات أخرى ، أنهم عضدوا اتجاه الاستقلال عن الحزب . . . لقد بلغ تسامحهم وتغاضيهم درجة أن بعض زعماء نقابات العمال ، كزعماء الجمعية القومية لعمال البناء المجريين وزعماء عمال المناجم ، قد خدعوا الحزب مراراً ، ولعبوا دوراً معادياً له . »

إن العلاقة غير السليمة التى تربط زعماء النقابات العمالية بالحزب كثيراً ما تفصح عن نفسها فى السلوك الخارجى لهذه

النقابات نحو الحزب ، وفى الخطب التى يلقيها زعماء النقابات وفى صحافة هذه النقابات .

ولعل السبب فى هذا الموقف الذى وقفه هؤلاء الزعماء العماليون هو أنهم لم يهتموا فى الحقيقة بالانتقادات التى وجهها الحزب ، وإن كانوا قد تقبلوها ظاهرياً بالرغم من التحذيرات العديدة التى وجهها الحزب مما أدى إلى تعذر تلافى الأخطاء فى حينها .

إن زعماء النقابات العمالية والشيوعيين الذين يشغلون مناصب عمالية عالية لم يعملوا على تنفيذ سياسة الحزب فى دوائر نشاطهم... بل أنهم كثيراً ما كانوا يتحاشون ويتملصون من تنفيذ المهام التى كانوا يعتبرونها صعبة الأداء أو غير محببة ، لأنهم استخفوا بالوعى السياسى للطبقة العاملة ، ووجهوا أنفسهم نحو مجموعة رجعية معينة من جماهير الشعب .

وكان الاستخفاف بدور القيادة الذى يقوم به الحزب هو السبب المباشر لإيجاد مجال للحزب الديمقراطى الاشتراكى — وهو من أحزاب اليمين — ليباشر تأثيره المعادى للثورة فى نقابات العمال مما أعطى للعدو فرصة محاولة إيقاع العداء بين نقابات العمال وبين الحزب الذى يمثل مصالح العمال عموماً والذى يعمل على إقامة صرح الاشتراكية . . . »

ليس هذا الجزء من البيان فى حاجة إلى تعليق ، غير أننا نحب أن ننبه القارىء إلى أن الحكام الشيوعيين يهيئون الجو

بهذا الكلام لإحداث تطهير . فلن يكون زعيم نقابى عمالى فى مأمن إذا اتهم بأنه سمح لتأثير الحزب الديمقراطى الاشتراكى المعادى للثورة بالتسلل إلى قيادة نقابات العمال . فإن أخطر تهمة فى البلاد الشيوعية هى كون المرء ديمقراطياً اشتراكياً أى عضواً فى الحزب الذى اشتهر بعدائه للشيوعية . . . ولكن أهم ما جاء فى البيان على العموم هو الاعتراف بفشل مشروع السنوات الخمس ، فصدر البيان ليطلع زعماء النقابات على أنهم سيدفعون ثمن هذا الفشل .

وقد يصعق بعض القراء إذ يعلمون أن الشيوعيين يصرون على السيطرة تماماً على كل المنظمات التى يشترك فيها أعضاؤهم ، وعلى هذا فإن بيان اللجنة السياسية هذا ليس شاذاً بل هو مثال عام لما يحدث فى الدول الشيوعية .

وكانت القرارات التى توصلت إليها اللجنة السياسية بعد تحليلها للموقف هى :

١ — « يجب استئصال النفوذ الديمقراطى الاشتراكى الانتهازى عن قيادة نقابات العمال ، كما يجب على زعماء هذه النقابات وضع حد لتباعدهم عن الحزب ومراعاة أن مهمتهم الرئيسية هى أن يعملوا على أن تكون نقابات العمال هى العضو الرئيسى فيما يختص بالإنتاج وتنمية الصناعة الاشتراكية . . . عليهم أن يحاربوا فى سبيل نجاح مشروع السنوات الخمس . وفى سبيل زيادة الإنتاج

وفى سبيل خفض نفقاته، وفى سبيل وضع نظام صحيح للأجور، وفى سبيل توسيع نطاق حركة المباريات والمسابقات الإنتاجية.

يجب أن تطعم المنظمات الرئيسية لنقابات العمال بعناصر جديدة موالية للحزب وللطبقة العاملة حتى يكشفوا القناع عن الخونة الديمقراطيين الاشتراكيين الذين وضعوا أنفسهم فى خدمة مثيرى الحروب وعن عملائهم الحقيقيين ثم يطردونهم من نقابات العمال ! ! يجب أن تقف هذه العناصر الجديدة فى وجه كل الميول العدائية التى تناقش، أو لا تعترف، بدور القيادة الرئيسى الذى يقوم به الحزب، وبذا تحاول أن تثير النقابات — وهى أهم المنظمات الجماعية للطبقة العاملة — ضد خلاصة الطبقة العاملة وزبدتها... ضد القوة الرئيسية لدكتاتورية البروليتاريا... ضد الحزب ! »

إن المغزى الواضح من عبارة « يجب أن تطعم المنظمات الرئيسية لنقابات العمال بعناصر جديدة موالية للحزب » هو إعلان إجراء تطهير فى صفوف نقابات العمال. كما تتضح حقيقة « الديمقراطيات » الشيوعية من العبارة القائلة إن الأعداء هم الذين « لا يعترفون بالدور الرئيسى للحزب أو يناقشونه ».

٢ — « يجب تنظيم وتحسين النشاط الذى تبذله نقابات العمال فى الميادين المذهبية والسياسية والتربوية الثقافية. دعهم ينشرون باطراد ودون كلل الدعاية السياسية للحزب والمهام

الإنتاجية بين صفوف العمال . ودعهم يعبئون العمال لتنفيذ هذه السياسة والمهام بنجاح . ودعهم يعلمون الطبقة العاملة كيف تثق بالحزب ثقة عمياء وكيف تتجه بعواطفها وولائها نحو الاتحاد السوفييتى . دعهم يدربون محاربين جدد فى سبيل الحزب والدولة . دعهم يعلمون قادة جدد من بين صفوف الطبقة العاملة . » .

ومن الواضح أن اللجنة السياسية كانت شديدة الاهتمام بمستقبل الأحوال الاقتصادية فى المجر . . . فقبيل إصدار البيان الذى فرغنا لتونا منه ، ظهرت الأخبار التالية فى الصحف اليومية الصادرة عام ١٩٥٠ .

المثقفون فى هنغاريا ينضمون إلى منظمات الإنتاج السريع

خاص لجريدة النيويورك تايمس

فيينا — فى ٢٣ أبريل — نشرت جريدة « نبزافا » لسان حال النقابات العمالية فى بودابست فى الأسبوع الماضى ، خبراً مؤداه أن المثقفين المجريين قد اقتبسوا نظام « ستاخانوفزم » ، أى « المنظمات السوفيتية للإنتاج السريع » .

وسيبدأ الفنيون المجريون المثقفون فى يوم أول مايو سلسلة جديدة من المباريات الاشتراكية بغية تحسين متوسط الإنتاج

لا للفرد الواحد فقط ، بل لفرق العمل والمصانع أو الورش بأكملها .

وقد أبدت الجريدة المجرية ارتياحها لأن « الطبقة المثقفة تتحول تدريجاً إلى عمال صالحين » .

المجر تعترف بالأزمة الغذائية

بودابست — المجر — فى ٩ مايو (ا . ب .) اعترفت الجريدة الرسمية للحزب الشيوعى المجرى اليوم بأن المجر تعانى بعض الصعوبات من جراء النقص فى بعض المواد الغذائية . وقد حذرت الحكومة المستهلكين من المترددين على المحال التجارية طالبة منهم إظهار مزيد من النظام » . .

العمال المجريون يضربون ضربتهم

خاص لجريدة نيويورك تايمس

فيينا — فى ١١ مايو — اعترفت حكومة المجر بفشل الصناعة المجرية فى تحقيق أهداف مشروع السنوات الخمس لعام ١٩٥٠ ، وذلك نتيجة لثورة العمال ونقابات العمال على نظام تصاعدى للإسراع بالإنتاج .

ويتساءل المعنيون بهذه الأمور الآن عما إذا كان لهذه الثورة علاقة بحادث القبض على مسيو ارباد زاكاسيتش ،

الرئيس السابق للحزب الاشتراكى المجرى ورئيس جمهورية المجر سابقاً .

ونشرت الجريدة الشيوعية الرسمية ، زاباد نيب ، أن مسيو انتال ابرو ، السكرتير العام لمؤتمر نقابات العمال المجرية ، قد ألقى خطاباً فى اجتماع المؤتمر يوم الأحد الماضى أتهم فيه العمال بارتكاب « جنح جماعية ضد نظام العمل » .

وقال الزعيم العمالى الشيوعى فى خطابه :

« لقد أصبح الاحتيال فيما يختص بمقادير الإنتاج ، وبالتالى ارتفاع الأجور دون مبرر ، هو الظاهرة الطبيعية الجماعية الآن . وكان مما سهل هذا ، للأسف ، التعاون الإيجابى الذى أبداه المندوبون المحليون لمجالس المصانع » .

إن فى هذا الكفاية لإطلاعنا عما يحدث فى المجر نفسها . فها هى التجربة التى مرت برومانيا قد تكررت واستخدمت السلطات الوسائل نفسها لتعبئة المجريين الوطنيين كأيدى عاملة مسخرة للاتحاد السوفييتى .

وشهد مسيو بيلا فارجا ، رئيس المجلس المجرى القومى ، بأن أسرى الحرب والمدنيين الهنغاريين قد قبض عليهم ورحلوا إلى روسيا فقال :

« عندما احتلت القوات الروسية المسلحة بودابست وبقية القرى والمدن المجرية ، التقطت من الشوارع بعض المدنيين

وتحفظت عليهم . . . وهكذا رحلت قوات الاحتلال إلى روسيا ٦٠٠,٠٠٠ من الرجال والنساء المدنيين وأسرى الحرب فضلا عن عدد كبير ممن ألقى القبض عليهم فى القطارات التى أقلتهم من مختلف معسكرات الاعتقال النازية كاوشفويتز ، وبخنوالد ، ورافنسبرو .

واليوم ، رغم انقضاء خمس سنوات على نهاية الحرب العالمية الثانية ، لا يزال ٢٠٠,٠٠٠ من النساء والرجال المجريين معتقلين فى روسيا وسيبيريا . . . وكثيراً ما وعد المجريون من عملاء الحكومة الروسية ، خصوصاً قبيل أحداث سياسية هامة معينة ، بإعادة هؤلاء المعتقلين ولكنهم كانوا دائماً يؤجلون عودتهم .

ولا تختلف المعيشة والمعاملة فى المعتقلات الروسية عنها فى المعتقلات الألمانية ... فإن غرف الغاز قد استبدلت بمناجم الفحم ومعسكرات إعداد الأخشاب الضخمة وأعمال حفر القنوات التى تؤدى إلى الموت تماماً كغرف الغاز .

وتؤدى معسكرات الاعتقال هذه لا إلى تدمير صحة وحياة المجريين الموجودين فى روسيا فقط ، بل إنها أكثر أدوات الإرهاب التى تستخدمها روسيا شيوعاً فى المجر وسائر الدول الشيوعية .

فلقد عملت حكومة الأقلية الشيوعية ، وهى التى أخضعت الشعب المجرى بالإرهاب المسلح وحده ، على أن تسيطر تماماً على البوليس والمحاكم حتى لم تعد هناك محكمة مستقلة واحدة فى هنغاريا اليوم ، كما كون الشيوعيون قوة خاصة للبوليس السياسى

أطلقوا عليها اسم « بوليس أمن الدولة » الذى نشر شبكة مخيفة من الجاسوسية يستطيع عن طريقها أن يراقب ويسيطر على كل مواطن سواء أكان فى منزله أم فى محل عمله، إلى جانب فرقة بوليسية خاصة مهمتها مراقبة رجال الدين والمنظمات الدينية.

وقد أرسلت الحكومة الشيوعية، ولاتزال ترسل، آلافاً مؤلفة من المواطنين إلى معسكرات الاعتقال، دون أن يحاكموا ولو حتى بواسطة محاكم الحزب. وتضم هذه المعتقلات رجالا ونساء من جميع الأوساط الاجتماعية، فمنهم النساء والفلاحين والعمال.

إن المجريين فى بلادهم قد فقدوا كل حقوقهم فى التعبير عن أنفسهم أو إعلان استيائهم أو احتجاجهم سواء بالكتابة أو الحديث ».

ولنضف هنا فقرة أخرى لتتم لنا صورة كاملة عما يجرى فى المجر.

أصدرت الحكومة المجرية فى ٢٧ يناير عام ١٩٥٠ مرسوماً يمنح حزب العمال المجريين (الحزب الشيوعى) سلطات مطلقة على العمال، فأصبحت للشيوعية سلطة تعيين لجان تأديبية لمعاقبة الذين يخالفون نظم العمل الصارمة دون أن يستطيع المتهمون استئناف أحكام هذه اللجان أمام المحاكم العادية. وتعتبر حوادث إتلاف الممتلكات، ورفض العمل، أو أداءه بصورة غير مرضية، جرائم تعاقب عليها اللجنة التأديبية بأحكام تتراوح بين الغرامة والسخرة.

٢

تنتشر معسكرات السخرة فى جميع أنحاء بلغاريا ، كما هو الحال فى جميع الدول التى تدور فى فلك روسيا . وقد أنشئت هذه المعسكرات على نفس الطراز ولنفس الغرض الذى أنشئت من أجله نفس المعسكرات فى روسيا . ويتضح لنا هذا من القائمة التالية ، ولو أنها غير كاملة ، لمعسكرات السخرة فى بلغاريا .

فى روزيتزا — يوجد أسوأ هذه المعسكرات إذ تبلغ المعاملة فيه درجة لا مثيل لها من الوحشية . وهو يضم ٥٠٠٠ معتقل يعمل أغلبهم فى بناء الخزانات . وفى كل شهر يقوم كل معتقل بإعلان ولائه للحكومة الشيوعية فتتوقف معاملته طوال الشهر على هذا الإعلان .

وفى كوبرينكا — يضم معسكر السخرة ١٠٠٠ شخص يعملون فى بناء خزان على نهر ثونديا بالقرب من مدينة كازافلك .. وليس كل نزلاء هذا المعسكر من المسخرين فإن عددهم فيه لا يزيد على ٣٥٠ معتقلا .

وفى تاس بواز — يضم معسكر السخرة ٢٠٠٠ معتقل يسخرون فى بناء خزان سوتكا بالبحر الأسود فى منطقة قرى دوسبات وباتاك .

وفى كوتزيمان — يعمل بضعة آلاف من العمال المسخرين

فى استخراج الفحم من منجم برنيك .

وفى بوبوف دول — يوجد ٢٠٠٠ من المعتقلين المسخرين فى أعمال المناجم تحت إشراف مدير يمتاز على غيره من مديرى المعسكرات بأنه يقوم بنفسه بتوقيع العقوبات البدنية على المعتقلين .

ويضم معسكر زاغرد — فى مديرية دوبروديا ٤٠٠٠ معتقل لا يدرى أحد طبيعة العمل الذى يقومون به ... وكذلك الحال فى معتقلات جنرال تودوروف الذى يضم ١٥٠٠ معتقل وبلينزا الذى يضم ١٥٠٠ معتقل وهايم الذى يضم ٣٠٠٠ معتقل حيث حجبت طبيعة العمل الذى يقوم به المسخرون وراء ستار من السرية .

وفى بيلى إيساك — يضم معسكر السخرة ١٠٠٠ معتقل يعملون فى بناء خزان بيلى — اسكار .

وفى نتشرنو مورى — يعمل ٣٠٠٠ من العمال المسخرين فى استخراج المعادن .

وفى بلاكالنتيزا — يعمل ١٠٠٠ مسخر آخر فى المناجم أيضاً .

أما معسكر توبولنتيزا فلعله لم يعد له وجود إذ تم بناء الخزان الذى كان يعمل فيه المسخرون .

وفى زاتنا بانيجا — يعمل ١٠٠٠ عامل مسخر فى بناء أحد

الخزانات .

وفى تتشرفن برياج — يعمل ٢٠٠٠ آخرين فى بناء خزانات على نهرى ايسكار وفيت .

وفى كريستو بوتيف — يعمل ٣٠٠٠ عامل مسخر فى إنشاء سكك حديد الهرفو — مالكو — تارنوفو .

أما معسكر دوفيشكا موغيلا فلا أحد يعلم عدد المعتقلين الذين يضمهم ولكن المفهوم أنهم يقومون ببناء الاستحكامات العسكرية .

وفى ترويان كارلوفو — يعمل ٣٥٠٠ عامل مسخر فى إنشاء السكك الحديدية ، وكذلك يعمل المسخرون الذين يبلغ عددهم ٤٠٠٠ والذين يضمهم معتقل ماكوتزيفوكليسوراسوبوت .

وهكذا وفى مدة قصيرة لا تزيد على خمس سنوات أنشأ الشيوعيون فى بلغاريا ٢٠ معسكراً معروفاً للسخرة إلى جانب المعسكرات الأخرى التى لا يعرف عنها أو عن عدد نزلائها شىء حتى ولا بمجرد التخمين .

ولعل أحسن ما يعطينا فكرة عن الإرهاب والضغط الذى ينوء تحته سكان « بلغاريا » هو القصة التى يرويها لنا مسيو ميشيل شيبكوف .

كان ميشيل شيبكوف موظفاً فى المفوضية الأمريكية بصوفيا ، عاصمة بلغاريا ، وفى أغسطس سنة ١٩٤٩ قبض البوليس

السرى البلغارى على شيبكوف وأرغمه على توقيع اعتراف مزيف بأنه كان جاسوساً . ورجع شيبكوف إلى المفوضية ولكنه بدلا من التجسس عليها كتب الرواية التالية التى تدلنا على نوع المعاملة التى يلقاها أعداء ، أو المشتبه فى أنهم أعداء ، النظام الشيوعى فى أية دولة شيوعية . وهذه هى قصة ميشيل شيبكوف كما رواها بنفسه .

« عند ما غادرت المفوضية فى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم السبت ٢٠ أغسطس عام ١٩٤٩ ، امتطيت دراجتى متجها إلى نادى التنس كى أحمل لفافة وبعض النقود إلى والدتى التى تقطن فى نمرة ٨ بشارع نرتو ، وعرجت على منزلى نمرة ٣٨ شارع شبكا ، لأرى إذا ما كان قد وصلتنى خطابات . فلما لم أجد شيئاً منها فى صندوق الخطابات استمررت فى طريقى بشارع شبكا منتوياً الذهاب إلى شارع سلافيانسكا حيث كنت مدعواً إلى الغداء مع مسيو كروسيتو حاجب المفوضية .

وعند ما وصلت إلى الحديقة الصغيرة المقامة فى شارع شيبكا لحق بى رجل يرتدى الملابس المدنية كان يمتطى دراجة لاتحمل أرقاماً تدل على رخصتها — الأمر الذى أثار انتباهى فى الحال — وأمرنى الرجل بالنزول عن الدراجة ، وسألنى عن اسمى ثم طلب منى أن أسير بجانبه فى شارع شيبكا ...ولم أشك لحظة واحدة فى أنى قد احتككت أخيراً ببوليس أمن الدولة .

وسرنا حتى الباب الخلفى لمبنى الجمعية الوطنية دون أن يمر بى فى طريق واحد من معارفى ، وأمرت بأن أدخل من الباب الخلفى لمبنى الجمعية الوطنية ثم أذهب إلى غرفة على يمين المدخل وأن أقف بوجهى للحائط وظهرى للنافذة... وفى الوقت نفسه دارت مفاوضات هامسة بين رجل البوليس وحارس المبنى . وأنا أذكر ، بالرغم من أننى لم أر جزءاً كبيراً من الحجرة ، أننى شاهدت على الحائط جهة اليسار خزانة صغيرة تحوى صفوفاً من المفاتيح المرقمة ، كما شاهدت فوق رأسى صندوقاً يحوى مكبراً للصوت أعتقد أنه متصل ببقية مكبرات الصوت الموجودة فى المبنى .

وإذا اعتبرت أن القبض قد وقع على فى الساعة الثانية والنصف ، أكون قد أمضيت نصف ساعة فى مبنى الجمعية الوطنية . وسمعت ضجة فى الخارج ودخل حارسان أمرنى أحدهما بأن أتبعه خارج الحجرة فى حين سار الآخر ورائى كما أمرت بألا أحول بصرى عن الأرض وأن أستقل سيارة صغيرة كانت تقف إلى جوار الباب . وأمرت مرة أخرى بأن أضع ذراعاى أمامى على حافة مسند مقعد السائق وألا أحول بصرى عن أرض السيارة ، ودارت بنا السيارة حول الكاتدرائية حيث لمحت تانيو كابلشكوف ، أحد معارفى ، وهو يتحدث إلى شخص آخر عند تقاطع شارعى ١١ أغسطس وموسكوفسكا . وانحدرت السيارة نحو القنال ثم وقفت عند المدخل الأمامى لمقر البوليس السرى فى الشارع الرئيسى

المؤدى إلى المحطة . . . وانتظرنا فى السيارة حتى مرت إحدى عربات « الترولى باص » ثم أمرنى حراسى بالنزول وأسرعوا بى إلى داخل البناء . . . وبعد أن انتظرت حوالى نصف ساعة فى غرفة قريبة بالدور الأرضى ، اصطحبنى حارسان إلى مكتب صغير بعد أن صعدا بى السلم .

وعند ما دخلت إلى غرفة المكتب الصغير أمرت بأن أقف فى ركن الحجرة إلى يسار الباب فى مواجهة النافذة . وكان أمامى مكتب على جانبيه مقعدان . كما رأيت دولاباً معدنياً على يمين النافذة . وكان الحائط المواجه لى يحمل صورة للينين فى حين كان الحائط المقابل يحمل « بروازاً » كتب فيه « قتال لا رحمة فيه ضد جواسيس الأجانب »

وتولى أمرى اثنان من رجال أمن الدولة يتراوح عمراهما بين ٢٥ و ٣٠ عاماً وتبدو عليهما مخايل الجد والحماس والعبوس » .

وأمرت بأن أفرغ جيوبى وأضع محتوياتها على المكتب ففعلت . وكنت قبل ذلك قد سئلت عما إذا كنت أحمل سلاحاً فأجبت بالنفى . ولم يُطلب إلى أن أخلع ساعتى .

وعندئذ سئلت عما إذا كنت أعرف أين أنا والسبب فى اعتقالى فأجبت بأنى فى مبنى الميليشيا (البوليس السرى) فصححوا هذا لى بقولهم إننى فى مبنى بوليس أمن الدولة . . . كما أخبرتهم أننى كنت أتوقع منذ شهور طويلة أن ألاقى منهم

المتاعب نتيجة لعملى فى المفوضية .

وطلب منى فى أول الأمر ، وأظن أن ذلك كان لتمضية الوقت حتى يصل موظف برتبة أعلى ، أن أجيب على الأسئلة الموجودة فى استمارة البوليس رقم ١٠ — ف والتى أجبت عليها فى مرتين سابقتين حين حاولت الحصول على جواز سفر . . . وبدأت متاعبى حين طلب منى أن أذكر أسماء ثلاثة أشخاص يشهدون بأننى لست منضماً إلى أى حزب سياسى فذكرت اسم زوجتى — ولكنهم رفضوه — فاستشهدت « بعديلى » جورج بتروفيتش ، وبدتشكو اوزنوف من أكاديمية الفنون ، وبالكساندر جندوف الرسام الشيوعى . وسئلت عن مرتبى فقلت إنه ٢٥,٠٠٠ ليفا فى الشهر لكنهم لم يعلقوا على ذلك كثيراً حينذاك .

وكنت أحاول جاهداً أن أهيئ نفسى لما كنت أتوقعه منذ زمن وأن أحتفظ بالثبات اللازم ، غير أننى لم أستطع أن أواصل تفكيرى إذ كان على أن أتابع حركات رجلى البوليس وأن أجيب على أسئلتهما المتصلة المتلاحقة .

وبعد ثلاثين دقيقة تقريباً ، وصل موظف آخر أظن أن له مركزاً كبيراً إذ قدم إليه المقعد الموضوع أمام المكتب . وبعد مؤتمر هامس بين الرجال الثلاثة ووجهت بالاتهام — لا ، بل بالحقيقة الواقعة — وهى أننى جاسوس وخائن ومتآمر على سلامة بلدى ، وأننى على هذا عدو للدولة ! . . . وقيل لى أيضاً إن القبض قد

ألقى علىّ طبقاً لأمر عاجل أصدره النائب العام بناء على دليل لا يقبل الشك ، وأن على الآن أن أتمم معلوماتهم بواسطة اعتراف كامل أقر فيه وأندم على إثمى وما جنت يداى . وكرروا لى قولهم ان هدفهم ليس تحطيم الرجال بل «قص جناح» الأعداء وجعلهم يتبينون الطرق الشائنة التى سلكوها ثم إعادة تثقيفهم . وحذرونى من أن أحاول إخفاء الحقيقة أو تشويهها لأنهم يستطيعون وزن كلماتى ومعرفة ما فيها من حقيقة .

وأصررت على أننى برىء من تهمتى الخيانة والتآمر . وأوضحت لهم أننى كنت أكسب عيشى بترجمة الصحف والقوانين للأمريكيين ، وأن عدم تأييدى لحكومتهم وعدم إيمانى بمعتقداتهم ليس فيه أية جريمة وحاولت أيضاً أن أوضح لهم أننى لم أكن آمل على الإطلاق فى أن أقنعهم ببراءتى وأننى قد وطنت نفسى واستعددت لتلقى العقاب أو المعاملة التى سيوقعونها على .

وكان مجرى الحديث قد تحول أثناء ذلك إلى وصف حياتى الخاصة وأصدقائى ومعارفى واتصالاتى وهواياتى وأوقات فراغى إلخ منذ أن اتصلت بالإنجليز ثم بالأمريكيين .

وكنت منذ ذلك الوقت قد تعرفت على الموظفين السبعة الذين اتصلوا بى أثناء وجودى فى المبنى ... كان هناك أربعة موظفين يعملون بالتناوب كل اثنين سوياً ، ثم موظفان من درجة أعلى يقومان بالاستجواب الرئيسى ، وأخيراً موظف صغير كانت

مهمته خلق جو من التوتر ، ومعاودة الهجوم علىّ كلما فترت حدته .

وكان جميع هؤلاء الموظفين يبدون على علم تام بكل ما يتصل بالمفوضية وبأسماء ووظائف موظفى المفوضية الأمريكيين ، وكتبتها ، وموظفيها البلغاريين ، فضلا عن كل ما يتعلق بمعارفى وأقاربى الذين احتك بهم البوليس فى مناسبات سابقة كأخى ، وحاجى ، وتششمى ، وسيكولوف المسكين . وكان رجال البوليس يدونون مذكرات أثناء إدلائى بأقوالى غير أننى لاحظت أنهم فى كثير من الأحيان لا يفعلون أكثر من تخطيط الأوراق الموضوعة أمامهم . وكنت قد ظللت أقاوم الاتهام الموجه إلى ، فى شبه تحد ، حتى قاربت التاسعة أو العاشرة مساء . وكان جو التوتر قد ازداد حدة أثناء ذلك . كما كنت قد حذرت مراراً بألا أدع صبرهم ينفد وألا أجبرهم على استخدام وسائل أخرى معى .

قالوا لى إننى أسلك نفس السلوك الذى سلكه كل الخونة الذين مروا تحت أيديهم فى هذه الغرفة نفسها ، وذكروا لى أسماء بعضهم — ديمتروف ، وبيف ، وحاجى ، وكريستوف ، وأخى ، وتششمى ، ونقولا بنكوف ، والقسس البروتستانت . كما أخبرونى أن عنادى لن يؤدى إلا إلى زيادة مستقبلى سوءاً ، دون أن يهمهم ذلك على الإطلاق . . . وأكدوا لى أيضاً ، وقد وافقتهم مخلصاً ،

أننى أخدع نفسى لو أملت فى أن تعاونى المفوضية ، فقلت لهم إننى على استعداد لتقبل كل العقوبات التى يوقعونها على : . فالظاهر أن كل من كان فى موقفى يريد أن يعرف بسرعة مدى ونوع العقاب الذى سينزل به ويرغب فى أن يبدأه فعلا حتى ينتهى منه بأسرع ما يمكن ، وحتى لمجرد الخروج من حضرة هؤلاء المحققين .

وكان رجال البوليس عند تغيير نوبات المحققين يصفعوننى ويلعوننى بل وأمرنى أحدهم أن أقف تجاه الحائط ثم ضربنى بجمع يده على قفاى عدة مرات . ولم تكن هذه المعاملة مؤلمة ولم أكن أخاف تكرار حدوثها .

وقبل أن تنهار أعصابى ، قضيت نصف ساعة مع رئيس المحققين . . . كان رجلا قصيراً ممتلىء الجسم قمىء الوجه ، صفراوى اللون ، نحيل الشعر . غير مهندم الثياب ، غير مثقف على الإطلاق وإن كان عظيم الطاقة والنشاط حاد الذكاء شديد الخبث وواثق بنفسه ويعجب بها إلى حد بعيد .

واعترف لى هذا الرجل بأنه يعرف عنى أكثر مما أعرف أنا نفسى وأننى كنت تحت رقابته الشخصية منذ ٩ سبتمبر وليس يخفى عليه من أمرى شىء — وأخذ بعد ذلك يذكرنى بعمل غير وطنى قمت به فى عام ١٩٤٥ حين اصطحبت الجنرال أوكسلى فى رحلة لصيد البط فى بلدة بيلين على الدانوب ، وأننى كنت

وقتذاك أشعر بالطمأنينة فى صحبة أسيادى الإنجليز فأخذت فى الحديث باللغة الإنجليزية إلى البلغاريين المحليين . . . وعند ما حاولت إنكار هذه الواقعة قاطعنى الرجل فى ثقة لا حد لها قائلا إنه كان هناك وشاهدنى بنفسه وهو متخف فى زى أحد الصيادين. . . وحدثنى عن العقلية المضطربة التى يعانيها أخى، إذ رفض أن يقوم بالترجمة للبريطانيين والتجسس عليهم فى نفس الوقت . ثم أخذ « يدردش » معى طويلا فى أسرارى العائلية محاولا أن يقنعنى بأننى على خلاف مع زوجتى وأننى زير نساء أجمع الخليلات من هنا وهناك دون أن يعنينى ما إذا كانت امرأتى تفعل نفس الشىء مع أشخاص ذكر أسماءهم من أعضاء نادى التنس .

وكان الرجل يداور ويحاور محاولا المقارنة بين المؤامرة التى اندمجت فيها والمؤامرة التى كان يشترك فيها القسس البروتستانت . ثم أرغمنى على أن أعترف له بأنه على صواب فى نظريته — وهى أن البريطانيين هم مدبرو كل المؤامرات ، وأن جواسيسهم كانوا يتجسسون أيضاً على الموظفين الأمريكيين لصالح البريطانيين.

والظاهر أن الرجل قد فقد أعصابه فى النهاية أو أنه كان على موعد إذ خرج وتركنى فى رعاية مرؤوسيه . . . وبدأت أنهار بسرعة .

أمرنى رجال البوليس بالوقوف فى مواجهة الحائط وعلى مسافة

منه تسمح لى بالاستناد إليه على أصبعين من ذراعى الممدودتين . ثم أمرونى بالتراجع قدماً واحداً إلى الخلف ، وأن يظل كعباى ملاصقان للأرض ، وأن أحتفظ بتوازنى بواسطة أصبع واحد من كل يد . وبدأوا فى استجوابى وأنا على هذه الحال .

ولم يكن هذا الوضع مؤلماً بوجه خاص ، ولم يكن يعنينى كثيراً فى مبدأ الأمر . ولكن استمراره بالإضافة إلى التوتر العقلى والحديث المتواصل والرغبة فى إنهاء ذلك كله والإخلاد إلى الراحة والسكينة — كل ذلك يجعل منه أفعل الوسائل لتحطيم كل مقاومة . . . وأذكر أن عضلات ساقى وكتفى بدأت تتقلص وترتعد وبدأ أصبعاى فى الاحمرار والالتواء . وانساب العرق غزيراً على جسدى . وأوشكت على الإغماء . ولم يكن رجال البوليس يهتمون على الإطلاق بما كنت أعانى من آلام ، حتى إذا أوشكت على السقوط أجلسونى على مقعد وتركونى أستجمع أنفاسى وأجفف عرقى دقيقة أو دقيقتين ، ثم يعيدون استجوابى . وما إن أصر على أننى برىء حتى أعاد إلى الحائط مرة أخرى وهكذا .

وأخيراً أنهرت تماماً وأعلنت عن استعدادى للاعتراف بكل ما يريدون إذ انتابتنى رغبة عارضة فى إنهاء هذه المقاومة التى لن تجدى ، وأن أعجل بحدوث اللحظة التى سيتركوننى فيها فى سلام .

وسمح لى بأن أجذب مقعداً إلى ركن الغرفة وأجلس عليه . ولم يكن ذلك سهلا بعد توتر عضلات جسدى من جراء هذا الوضع الذى أرغمت على وقوفه طويلا . وأخذت أستجمع أنفاسى فسمحوا لى بإخراج سيجارة من علبتى « الشسترفيلد » بل وأشعلوها لى بأيديهم . وحسبت فى هذه اللحظة أن أسوأ ما فى الأمر قد انتهى وأننى سأعترف لهم بأننى خائن وجاسوس فأرسل إلى زنزانة أقضى فيها مدة عقوبتى .

وكم كان ألمى شديداً عند ما تبينت أننى كنت مخطئاً... فقد بدأ الاستجواب مرة أخرى وأنا لا أكاد أجد من القوة ما يعيننى على التقاط أنفاسى اللاهثة . . . وأحب أن أشرح لكم هنا طريقتهم فى الاستجواب . لقد كانوا يقولون :

... أنت جاسوس وخائن ، فأخبرنا عن المهام التى عهد إليك بها ، ومن عهد إليك بهذه المهام ؟ وكيف استطعت قضاءها وبمساعدة من ؟ ومن الذى كنت ترسل إليه تقاريرك ؟ . . . لم يكونوا يقبلون أى اعتراف أو عبارات عامة إذ كانوا لا يقنعون إلا بحوادث مفصلة . . . واستمر هذا الاستجواب ساعة بعد أخرى . . . وكيف كنت أستطيع أن أعترف لهم بما يقنعهم وقد بلغ منى التعب كل مأخذ فضلا عن أننى كنت بريئاً تمام البراءة ؟ وكنت إذا توقفت عن الحديث متعللا بالتعب أو بضعف الذاكرة ، أتلقى الصفعات والركلات دون حساب . . .

وأذكر الآن أننى قد بدأت اعترافى بالحديث دون وعى وباستمرار بادئاً بقصة حياتى حتى قبيل الحرب العالمية الأخيرة – عائلتى البورجوازية الثرية – المدرسة الأمريكية – الحظوة والنفوذ لدى البريطانيين . وفى ٩ سبتمبر أصبحت عدواً للطبقة العاملة ثم تحولت إلى المقاومة الإيجابية . وأتى الإنجليز فسارعت بوضع نفسى فى خدمتهم . . . الجنرال أوكسلى الذى لايكرهون شخصاً بقدر ما يكرهونه بحجة أنه رأس قلم المخابرات السرية البريطانية . أوكسلى عند التقائنا يعينى رئيساً لحواسيسه المحليين – إنه يهتم بجمع كل المعلومات الاقتصادية والسياسية والحربية عن بلغاريا . عرفته إلى حاجى كريستوف ، الخبير فى صناعة المطاط ، بغية تزويده بالمعلومات التى يطلبها ، وإلى بلاكانوف وإيفان ميهانوف ، الخبيران فى صناعة الأخشاب ، وإلى كيريل بايكوريك الخبير فى الشحن والموانىء ومنشئاتها . هل زودوه بالمعلومات السرية التى كان يطلبها؟ نعم . . . كيف؟رأيتهم مراراً "يأخذون راحتهم" فى منزل الجنرال وكانوا يفخرون أمامى بعطفه عليهم واتصالهم الوثيق به . . . ما الذى عهد إليك به غير ذلك ؟ لقد قلت أن أوكسلى كان فى عامى ١٩٤٥ و ١٩٤٦ على اتصال وثيق بكل الزعماء البلغاريين فى الميادين السياسية والاقتصادية ، ولذا فقد كان من الطبيعى أن يفضل صحبة زعماء المعارضة وأصحاب الشركات الكبرى على صحبتى ! ! . ولكنهم رفضوا الاستماع إلى..ما

الذى عهد إليك به غير ذلك ؟ الانتخابات . . . عهد إلى أوكسلى أن أحث أقاربى ومعارفى على المطالبة بتأجيل الانتخابات . . . كتابة ؟ . . . لا . . . أين ؟ . . . بين أصدقائى ومعارفى . . . من هم ؟ عائلات شيكوف . وجوسيهوف . وكيرتشيف . . . وبتروفيتش . . . هل أخبرتهم أن هذه أوامر الجنرال أوكسلى ؟ نعم . . . بل لقد وجهت إليهم تعليماتى بنشر هذه الدعاية بين أصحابهم ومعارفهم .

واستمرت سلسلة الاستجوابات . . . ما الذى كلفك به أوكسلى غير ذلك ؟ لا أستطيع أن أتذكر . هل أرسلت إليه بياناً تتهم فيه الحكومة وتطلب التدخل الأجنبى ؟ لا . . . لا . . . لدينا وثيقة تحمل إمضاءك وإمضاء حاجى ستانكوف وجانشوجانش أحد المحامين . هل تنكرها ؟ واعترفت فى النهاية بتوقيع هذه الوثيقة . كما اعترف بتوقيعها حاجى وستانكوف وغيرهما .

أوكسلى . . . أوكسلى . . . أوكسلى دائماً . . . أوكسلى تجسس متستراً خلفى . على القوات السوفيتية . وعلى حامية يامبول وعلى منشئات مينائى بورجاس وفارنا . وعلى جبهة الدانوب . وعلى نفق السكك الحديدية فى كوينمو باشكار جورج . وعلى خزان بيلى اسكار . وعلى الأمريكيين . . . نعم لقد كان أوكسلى هو الذى نقلنى لأعمل مترجماً بالمفوضية الأمريكية . آمراً إياى بزيارته فى منزله خفية لأنقل له أخبار الأمريكيين .

وما الذى يفكرون فيه . وما الذى ينوون عمله . والزوار الذين قابلوهم . وجواسيسهم . إن أوكسلى كان يقوم برحلات للتجسس تحت ستار صيد البط .

ثم جاء دور الأمريكيين — بارنيز . وريونكل . وسترونج . وويزل . وهورنر . وكورتى . بل والوزير المفوض نفسه . وكل موظف وكاتب بالمفوضية فى الماضى أو الحاضر . وكل عضو من أعضاء البعثات العسكرية سواء أكان أمريكياً أو بريطانياً . من كان رؤسائى ؟ ومن الذين عرفتهم اليهم ؟ ومن الذى اكتسبته إلى صفوف المتآمرين ؟ .

لم يكن رجال البوليس يسألونى هذه الأسئلة بل كانوا يشيرون إليها أو على الأصح كنت أنا الذى أسألها لنفسى وأجيب عليها من تلقاء نفسى لأرضيهم .

ما هى التقارير التى كتبتها للأمريكيين ؟ عداء الفلاحين وقلة المحاصيل والجفاف وحوادث الاعتقالات والضرب والحبس — لقد قدمت إلى مستر سترونج تقريراً عن مناجم برنيك ، مزوداً إياه بالمعلومات والأرقام والإحصاءات التى استقيتها من كتاب الإحصاء السنوى لعام ١٩٤٢ ومن الطبعة المئوية لجريدة مناجم برنيك . . . وكنت أعمل فى كتابة هذا التقرير فى مكتب الغرفة التجارية الإقليمية . وقد أعددت أيضاً ، تلبية لرجاء كورتنى ، قائمة بالأشخاص المختفين منذ عام ١٩٤٤ فصاعداً ، مقتبساً

المعلومات اللازمة من المطبوعات القانونية للجريدة الرسمية . . . كنت أحتفظ بتراجم كاملة للزعماء فى الحكومة والحزب . كنت قد عملت مترجماً لويرنكل وهورنر فى أثناء محادثاتهما مع بنكوف فى أوائل عام ١٩٤٧ حين طلب بتكوف العون وصرح باشتراكه فى المؤامرات العسكرية غير أنه لن يعترف بهذه القرارات حفظاً للمظاهر . وقد عهد إلى بشرح وتوضيح الأحداث الهامة . أشرح الأحداث السياسية لكورتنى وللوزير المفوض . والأحداث الإقتصادية لريكانجل . . . وكتبت لكورتنى تقريراً عن حوادث الإرهاب التى سادت انتخابات ١٥ مايو وكيف هددت بالتصويت فى صالح مرشحين معينين وكيف قبض على الأشخاص الذين لم يصوتوا لصالح ذوى النفوذ . وأطلعت كورتنى على الرأى العام بخصوص موضوع ترابخوركوستوف وبخصوص مقدونيا وبخصوص تيتو . . . لقد كنت أبالغ وأشوه الحقائق وأختلق الوقائع كى تتوتر العلاقات وتنبثق الكراهية ، مما يؤدى إلى التدخل الأجنبى . . . من هو رجل المخابرات من بين الأمريكيين؟ كورتنى . وربما الوزير المفوض نفسه وبقية موظفى المفوضية . هل ألان منهم؟ . . نعم . والملحق الحربى ؟ . . نعم . . . وبعد سفر أوكسلى استمررت فى التجسس على الأمريكيين وتقديم تقارير عنهم إلى بنيدت أو إلى جرين . . . وفى خام كوريا ، عرفنى باتسفيتش إلى جرينويل الذى لم يعهد

إلى بمهمة ما وإنما كان لطيفاً جداً وأخبرنى أنه سيتصل بى فيما بعد . . . كم كان مرتبك ؟ ٥٢,٠٠٠ ليفا مبلغ يرضيهم . وما أجرك على كل مهمة ؟ — ٢٠,٠٠٠ ليفا . . . ما هى وظيفة زوجتك ومرتبها ؟ . محاسبة تتقاضى ١٥,٠٠٠ ليفا . . . هل كنت تراسل أوكسلى وأصدقاءك الأمريكيين الموجودين فى الخارج ؟ نعم . . . وزيل . وبوتس . وليلاند . وكنت أرسل خطاباتى مع الأمريكيين المسافرين الذين كانوا يحملون إلىّ الخطابات أحياناً . شك كبير بخصوص وزيل وعلاقته بالوزير المفوض . كثير من الأسئلة بخصوص بوتس وتششمى الذين يعتقدون أنهما استطاعا الهرب إلى أمريكا بفضل مساعدتى . . . ما هو الخطاب الشخصى الذى أرسلته إلى بارنز تطلب فيه التدخل الأجنبى ؟ لقد أنكرت أننى أرسلت مثل هذا الخطاب ولكنهم أرغمونى على الاعتراف . . . من هن عشيقاتك ؟ وكيف كنت تقابلهن ؟ متى ؟ وأين ؟

لقد وصلت حتى ذلك الحين إلى مرحلة من الانهيار والبؤس والتحقير جعلتنى أتمنى لو أن كل شىء انتهى فى الحال . . . كنت أرجوهم ألا يورطونى فى اتهام أشخاص أبرياء ... تكلم ... حدثنا عن المزيد... تكلم عن كل ما يتعلق بسيكولوف . . . متى اتصلت لآخر مرة ببوريسفيتش ؟ . . . من كانت تشك فيه المفوضية . . ؟ ما الذى قاله سيكولوف للوزير المفوض بعد أن

أفرج عنه بوليس أمن الدولة ؟ ما الذى يعرفه البلغاريون عن الوزير المفوض ؟ . هل كان الوزير على علاقات غرامية مع عضوات نادى التنس ؟ وهكذا دون نهاية . . .

ويخيل إلى أن رجال البوليس لم يكونوا يهتمون كثيراً بالمعلومات التى سردتها عليهم إذ كان يبدو أن الغرض من هذه الأسئلة المتلاحقة المتراصة هو انهيارى انهياراً تاماً وتحطيم إرادتى وحرمانى من التفكير المتزن واحترام النفس ... وقد حقق رجال البوليس هدفهم معى بسرعة ! ! وكانت طريقتهم فى حملى على الاعتراف غريبة . إذ كانوا يشرحون لى كيف أن بيئتى وتعليمى كانتا السبب فى حملى على الانخراط فى خدمة أعداء الشيوعية بغية استخدام التدخل الأجنبى لقلب حكومة الشعب . . . وكان رجال البوليس يهتمون اهتماماً خاصاً بمظاهر الندم والتوبة التى تصاحب انهيار أسيرهم . . . والغريب أنى واثق تمام الثقة من أنهم لم يبدوا انحيازاً ضدى أو عداء شخصياً نحوى ، بل على العكس كان يبدو عليهم أنهم يؤدون عملا بغيضاً على نفوسهم بغية الوصول إلى الهدف . وكانوا متعصبين تعصباً أعمى للشيوعية ويكرهون الأنجلو أمريكيين كرهاً لا حد له لمقاومتهم إياهم . . . كانوا يضعون نشاطهم وإخلاصهم وقواهم فى خدمة العقيدة الشيوعية التى يدينون لها بالولاء إلى درجة الهوس .

وما أن اقترب مساء الأحد حتى كانوا قد اكتفوا باعترافاتى ،

فأعطونى كوباً من الماء وقطعة من الخبز لم أستطع أكلها ، وغيروا من معاملتهم لى . . . وأخذونى إلى مرحاض قريب لأقضى حاجتى ، ومنحونى سيجارة ، ثم تركونى أستريح وأحاول السيطرة على ارتعاد يدى وقدمى وأسنانى حتى أستطيع كتابة اعترافاتى التى فرغت لتوى من سردها عليهم . وهنا ، وهنا فقط ، زارنى رئيس المحققين . وكان يبدو عليه السرور التام وهو يلمح إلى أننى سأخرج قريباً إلى الحرية إذا اتبعت سبيل الصراحة والإخلاص ، ذاكراً ابنتى وأننى أتطلع إلى رؤيتها دون شك.

وكتبت اعترافاً مفصلا فى ست صفحات ، بادئاً بأصلى البائس ونوع تعليمى وكيف أصبحت عدواً للطبقة العاملة ثم وصفت المغامرات التى قمت بها واحدة واحدة ، وكيف كنت أنفذها ، وبمساعدة من الأشخاص الذين كنت أقدم إليهم تقاريرى . وأنهيت الاعتراف بذكر صريح للغرض الذى كنت أسعى إليه من قلب نظام الحكم الشيوعى عن طريق التدخل الأجنبى ، ووقعت الاعتراف. وبالرغم أن كل فقرة كتبتها كانت تراجع بدقة بواسطة اثنين من المحققين ذوى المناصب المتواضعة ، إلا أن أحد كبار المحققين أصر على أن أضيف إلى اعترافى عبارة صريحة أذكر فيها تفضيلى للبريطانيين وتجسسى على الأمريكيين لحسابهم .

وانتهت كتابة الاعتراف ، فسمح لى بتدخين سيجارة وتركت

لأستريح فانتابتنى فى الحال سنة من النوم .

وحين استعدت قواى قليلا ، أخذ أحد المحققين فى حديث مطول عنى وعن مستقبلى وعن شبابى وعن طفلتى وعن حاجتى إلى أن أصلح من نفسى وأصبح مواطناً بلغارياً أميناً . وكيف أننى أستطيع أن أحقق كل ذلك إذا تعاونت سراً مع بوليس أمن الدولة وأطلعتهم على كل ما أراه وأسمعه أو أعلم عنه من محاولات جواسيس الأجانب للتآمر ضد الشعب البلغارى . وأملى علىّ المحقق تقريراً بهذا المعنى أقررت فيه باستعدادى للتعاون مع البوليس ، وأمرنى بتوقيعه . ثم حذرنى قائلا إن رجال بوليس أمن الدولة لا تخفى عليهم خافية وأننى إذا أحطت كورتنى علماً بالأمر أطلع البريطانيين عليه . . . وأعيدت لى حاجياتى بعد أن طلب منى مراجعتها . وبعد هذا سألنى المحقق أن أجعل لنفسى اسماً مستعاراً أتصل بواسطته برجال البوليس . ولم أكن فى حالة عقلية تسمح له بالتفكير فى شىء ، فاقترح على اسم « ماكينوف » . . . وكان على أن أعود إلى منزلى ثم أتوجه يوم الإثنين للعمل بالمفوضية كالمعتاد . . . وكانت أول مهمة عهد إلى بها هى دراسة شخصيات كل الأمريكيين دراسة مطولة وكتابة تراجمهم . . . وكان على أن أقابله فى الساعة الثامنة والنصف من مساء الإثنين ، فى ميدان سمينارى حيث يدور القطار ، على بعد عشرة أمتار من الطريق الزراعى إلى وراجولوفتش

حيث أتلقى تعليمات جديدة .

واقتادنى المحقق إلى خارج البناء وتركنى عند محطة الترام بطريقة ودية للغاية قائلا أننى لن أستطيع امتطاء دراجتى فى الحال . وكان الرجل على حق إذ كانت عضلاتى متقلصة ولم يكن فى استطاعتى أن أحتفظ بتوازنى على الإطلاق .

ومضيت إلى منزلى لاألوى على شىء ولا أفكر إلا فى حمام بارد يرطب جسدى المحموم . فلما وصلت أخذت حمامى وفتحت علبة من الطعام المحفوظ وزجاجة من النبيذ الأحمر ، واستلقيت على فراشى واستغرقت فى النوم .

واستيقظت متأخراً فى الصباح فلم يكن بالمنزل أحد . . . وبينما كنت أحاول جمع شتات أفكارى وأستعد للخروج ، وصلت ابنة عمى الآنسة كالتشيفا ، وأخبرتنى أن زوجتى قد اتصلت بها تليفونياً من فارنا بعد أن فشلت فى الاتصال بى ، فقلت لابنة عمى إننى أمضيت عطلة الأسبوع فى رحلة بمفردى وطلبت إليها الاتصال بزوجتى لتطمينها وخرجت مسرعاً إلى المفوضية .

وكان أول همى حين وصلت إلى المفوضية هو أن أريح ضميرى من الشعور بالذنب تجاه كل أولئك الذين اتهمتهم زوراً . . . فكتبت تقريرين عما حدث لى أحدهما مختصر والآخر مطول . غير أننى شعرت بأننى مراقب من كل الموظفين البلغاريين فأغلقت على التقريرين درج مكتبى الذى كنت قد أعطيت مفتاحاً

له إلى كورتنى . وغادرت المكتب وذهبت لرؤية والدتى لفترة قصيرة. ثم توجهت إلى الميعاد . وكان يتملكنى الإحساس بأن هناك من يتبعنى فى كل خطوة أخطوها . وانتظرت لمدة ساعتين ونصف ساعة بجوار معمل ألبان « سريفا » رقم ٥٢ . وبجوار مدخل مكتب البريد رقم ٢٦ الواقع فى جانب الميدان غير أن أحداً لم يحضر لمقابلتى فعدت إلى منزلى . وفى صبيحة الثلاثاء حاولت ، أولاعن طريق والاس ثم عن طريق بيرك ، أن يتصل بى كورتنى بالوسيلة المعتادة ، فلما لم يفعل أعطيت بيرك التقريرين اللذين كتبتهما وشعرت فى تلك اللحظة بأنه لم يعد فى إمكان رجال البوليس استخدامى أو استخدام اعترافاتى للإضرار بالآخرين .

وفى نفس اليوم ، أتيحت لى الفرصة لأقص على الوزير المفوض كل ما حدث لى ، بقدر ما استطعت من تفصيل .

وأحب هنا أن أوضح بعض النقاط . . . لقد كنت على اتصال رسمى أولا بالبعثة الحربية البريطانية ثم بالمفوضية الأمريكية منذ نهاية عام ١٩٤٤ حتى الآن. وكنت منذ البداية الأولى أكره النظام القائم ولا أثق فيه على الإطلاق ، بسبب شعور الكظم والخوف الذى كان ينمو فىّ باضطراد نتيجة لما وقع على أصدقائى ومعارفى من عنت واضطهاد وإرهاب... فقد طردت أختاى وعائلتاهما من منزليهما ورحلتا إلى الريف ، وضرب

أخى ضرباً مبرحاً فى الشارع حتى فقد الحس ثم رحل إلى معسكر للسخرة، واعتقل أقرب أصدقائى إلىّ فضلا عن الحوادث المتتابعة لاختفاء البلغاريين من موظفى المفوضية ثم انتهائهم إلى معسكرات الاعتقال أو إلى الإعدام شنقاً.

وهكذا كنت منذ اليوم الأول على ثقة من أن ساعتى لا ريب آتية. غير أننى انهرت تحت ضغط الطرق البربرية التى استخدمها معى رجال البوليس، فاعترفت على نفسى بأشياء لم أرتكبها كى أتخلص من ذلك الموقف المهين، ولكننى انزلقت وأخذت أوجه التهم جزافاً إلى أصدقائى ومعارفى الأبرياء، فقد كانت إرادتى قد تداعت إلى الحضيض.

غير أن ذاكرتى عاودتنى صبيحة الإثنين ٢٢ أغسطس حين استأنفت عملى وبدأ ضميرى يقرعنى ويحثنى على أن أنظف نفسى من بعض هذا التحقير والقذارة التى قبلتها، وذلك بإطلاع المفوضية على الحقيقة كلها مما يفوت على البوليس فرصة استخدام اعترافاتى فى الإيقاع بمن اتهمتهم زوراً.

ولهذا أعلن صادقاً غير حانث، أن كل ما أدليت به إلى رجال بوليس أمن الدولة كتابياً أم شفهياً من معلومات تتعلق بحاجى بتروفيتش، وفينيديف كيرتشيف، وبولى شيبكوفا وجورجى جوجيف، وإيفان شيكولوف، وتششمى، وحاجى كريستوف، وأخى كروستشو شيبكوف، وإيفان ميهايلوف،

وبلانكوف ، وستنكوف ، وجانشتيف ، ودبنشكو أوزونوف ، وملاديوف ، ونيقولا ستاننشيف وغيرهم — كان كل ما قلته من أن هؤلاء قد اشتركوا فى أعمال التخريب والتآمر ضد نظام الحكم لا أساس له من الصحة على الإطلاق ، وأن هذه الاعترافات قد انتزعت منى رغم إرادتى فى وقت كانت أعصابى فيه منهارة لدرجة لا أعى معها ما كنت أتفوه به .

وأريد من المفوضية أن تحيط بوليس أمن الدولة علماً بأن كل محاولة من جانبه لاستغلال اعترافاتى سيكون من نتيجتها فضح هذه المحاولة بنشر هذا التقرير . وأحب أيضاً أن أشهد بأن كل الاعترافات التى انتزعها منى رجال البوليس وتحدثت فيها عن اشتراكى فى المؤامرات وأعمال التجسس التى كان ينظمها رؤسائى من رجال البعثة البريطانية أو من رجال المفوضية الأمريكية هى اعترافات باطلة لا تقوم على أساس من الحقيقة مطلقاً . فلم يحدث فى أى وقت أو بأية طريقة أن طلبت منى البعثة الحربية البريطانية أو رجالها أو المفوضية الأمريكية أو رجالها أن أشترك فى أية دسائس أو مؤامرات .

وأطلب بإلحاح أن ينشر بيانى هذا على الملأ وأن يستخدم لتنقية اسمى واسم المفوضية إذا حاول رجال البوليس استغلال الاعتراف الذى انتزعوه منى . . .

وها أنا أوقع هذا البيان بكل أمانة وإخلاص ، مؤكداً

صحة كل ما جاء فيه .

إمضاء (ميشيل شيبكوف)

حاشية :

حاولت سابقاً أن أصف لكم رئيس الرجال السبعة الذين قاموا بالتحقيق معى . . . ويلى هذا الرجل رتبة ، اثنان من المفتشين ، أو هكذا أعتقد . . . وكان أولهما ، وهو الذى أنفق معى وقتاً أطول من الآخرين ، رجلا يتراوح عمره بين ٣٦ و٣٨ عاماً طوله ٦ أقدام وعشر بوصات تقريباً ، صلب البناء ، يلبس حلة داكنة دون رباط رقبة ، ويبدو أحسن مظهراً من رئيسه . وكان وجهه شاحباً . وعيناه بنيتان . وشعره داكن مموج وذقنه حليقة . وكانت عظام خديه بارزة يتكلم فى صوت ناعم بطىء فى أغلب الأحيان ويبدو استقلالياً أكثر من رئيسه . غير أنه هو الذى كان يوجه إلى ضربات القفا ومعظم الصفعات .

أما زميله ، وأعتقد أنه يساويه رتبة ، فقد كان طوله خمسة أقدام وثمان بوصات تقريباً . من نفس العمر ، غزير الشعر له عينان حور شديدتا الزرقة . وكان صلباً جداً شديد الثقة فى نفسه . حليق الذقن يلبس حلة رمادية دون رباط رقبة ، وأعتقد أنه كان الشخص المفروض أن أقابله مساء الإثنين لأتلقى منه مزيداً من التعليمات .

ولأتحدث الآن عن الموظفين الأربعة الأقل رتبة والذين يعملون كل اثنين سوياً .

كان أحد أعضاء الفريق الأول يبلغ من العمر ٣٠ عاماً تقريباً . متين البناء طوله ستة أقدام وسيم المنظر تبدو عليه الرجولة بدرجة ملحوظة له وجه ناعم حليق وملامح رائعة وكان شعره أسوداً ممشطاً إلى الخلف يتكلم بنعومة وكان يعاملنى برقة . . . وقد أخبرنى أنه لا يحمل لى ضغناً غير أن واجبه تجاهى واضح .

أما زميله فكان عمره أقل من ٣٠ عام . طويلا حسن البناء شعره داكن وبشرته سمراء له أنف كبير وعينان عميقتان متألقتان وكان أشد الجميع قسوة وأقلهم ثقافة .

أما الفريق الثانى فكان أحد رجاله ضخم الجثة متين البناء جداً . عمره ٣٥ عام تقريباً شعره أسود غزير وشاربه كث . له ملامح جامدة وعقل بطىء التفكير متعلق بالروتين والظاهر أنه لم يتلق من الدراسة إلا قليلا جداً وكان معظم الوقت « يخطط » على الأوراق الموضوعة أمامه . . .

أما زميله فكان يبلغ من العمر ٣٠ عاماً تقريباً . طوله ستة أقدام . شعره بنى داكن ووجهه لوحته الشمس ، له عينان براقتان وأنف كبير وشفاه غليظة ووجه حليق وكان يلبس حلة أسبور ذات لون بنى داكن .

ولا أستطيع أن أذكر تماماً ذلك الرجل الذى اعتقلنى فى

الطريق ولكنى أعتقد أنه أقل من كل هؤلاء رتبة .

وهناك نقط أخرى أحب أن أزيد توضيحها... أظننى قد ذكرت سابقاً أن هذا الاستجواب الذى لا ينتهى كان القصد منه: (ا) تحطيم كل مقاومة وشل التفكير المستقل المنطقى . (ب) انتزاع الاعترافات من النوع الذى يريدون . . . كانوا يلقون جانباً بكل اعتراف لا يدخل فى نطاق النوع الذى يريدون وكانوا يتركوننى فى كثير من الأحيان دون أن يوحوا إلى بما يريدوننى أن أعترف به . فمثلا قالوا لى إن فى حوزتهم وثيقة تحمل توقيعى وتوقيع ستانكوف وحاجى وآخرين كان القصد منها التشهير فى العالم الغربى بنظام الحكم فى الوطن . وعند ما انهارت أعصابى للدرجة لم أستطع معها الإنكار جعلونى أصف لهم هذه الوثيقة فأخذت أتخبط محاولا أن أتذكر مقتطفات من الرسائل التى بعث بها البلغاريون المعارضون إلى أصدقائهم السياسيين فى الخارج. ومع أن كل ما قلته لهم بذلك الخصوص كان تخميناً إلا أنهم كانوا مسرورين به يطلبون إلىّ المزيد منه . والغريب أن أى قارىء على درجة من الذكاء لن يشك لحظة فى كذب كل الاعترافات العجيبة التى أدليت بها إلى هؤلاء المحققين .

ولما تحدثنا عن موضوع التراجم الخاصة بالزعماء البلغاريين قلت لهم إن المعلومات التى لم نكن نجدها فى الصحف كنا

نحصل عليها من محررى الجريدة المعارضة « زيميدلسكوانامى »... فلما سئلت كيف ، قلت إننا أرسلنا الساعى إيفان أنجليوف ليحصل على هذه التراجم من محررى الجريدة ، غير أنهم اتهمونى بالكذب — فاضطررت أن أختلق لهم قصة ذهابى إلى بوروف رئيس تحرير الجريدة لأرجوه إعطائى تراجم قصيرة عن زعماء بلغاريا . وحينئذ سئلت عما إذا كنت أعرف بوروف شخصياً وطلب منى أن أذكر الشارع الذى يقيم فيه ورقم مسكنه ، فسرهم هذا .

وحين جاء ذكر رحلة الصيد التى قمت بها مع الجنرال أوكسلى جعلونى أتحدث عن أوكسلى كما لو كان يحيك خيوط مؤامرة مع سبق الإصرار ، وكيف كان يقوم بتخطيط وتصوير كل المناطق التى يمر بها ، فكان اعترافى هذا مثار إعجابهم حتى ذكرت أن ضابط الاتصال السوفييتى كان يرافقنا فى الرحلة فألقوا الاعتراف جانباً ! ! »

إمضاء (ميشيل شيبكوف)

وقد يرتعد القارئ دون شك وهو يقرأ عن المعاملة التى لقيها شيبكوف . ولكن هذه المعاملة لا تعد شيئاً بجانب تلك التى يلقاها الآخرون الذين « يستجوبهم » البوليس السرى البلغارى أو الرومانى أو المجرى أو السوفييتى . كما أن طريقتهم فى وضع الأكاذيب على لسان المقبوض عليه وحمله على الإدلاء باعترافات

كأذبة ليس إلا مثل على ما مرّ به الآلاف قبل إرسالهم إلى معسكرات الاعتقال فى « جمهوريات بلادهم الشعبية » أو فى « موطن الاشتراكية الأول » . . .

وأعتقد أننا لسنا بحاجة إلى القول أن نقابات العمال فى بلغاريا تقوم بنفس المهام التى تقوم بها نظيراتها فى الاتحاد السوفييتى والدول الأخرى التى تدور فى فلكه . . فلم تعد هذه النقابات العمالية أداة لحماية العمال وظروف العمل . بل أصبحت أداة للدولة مهمتها خفض الأجور وزيادة ساعات العمل وإجبار العمال على التطوع باختيارهم للعمل فى أيام العطلات والآحاد ! ! ! »

الفصل السابع

العبودية تزحف نحو الغرب

« أيها الرفاق الأعزاء فى كوريا ! . . . لقد سلم الشعب فى روسيا كل ما يملك إلى ستالين العظيم ، وإننى لواثق بفضل قيادة الرفيق ستالين من أن شعب كوريا سينتصر فى الحرب ! »

— من خطاب أذاعه راديو موسكو على الكوريين الشماليين فى أول أكتوبر عام ١٩٥٠

١

من الواضح أن شعب روسيا ليس هو وحده الذى سلم كل ما عنده إلى ستالين العظيم . فقد حذت حذوه كل شعوب الدول الشيوعية التى زودت روسيا لا بالمواد والمنتجات الزراعية والصناعية فقط بل وبآلاف لا نهاية لها من العمال المسخرين ، كى يساعدوا الاتحاد السوفييتى وبوليسه السرى فى مهمته الضخمة لاستغلال المناطق الشاسعة النائية من تلك الدولة . . . ولم تشذ تشيكوسلوفاكيا عن هذه القاعدة .

فقبل أن يستولى الشيوعيون على مقاليد السلطة فى تشيكوسلوفاكيا ، حسب الرئيس بنش أن فى إمكان تشيكوسلوفاكيا أن تقوم بدور القنطرة بين الشرق والغرب . ولكن استيلاء الشيوعيين على مقاليد السلطة فى فبراير عام ١٩٤٨ كان نهاية الحلم الذى يدور حول تعاون الشرق والغرب . . . ومنذذلك الوقت ، خضعت تشيكوسلوفاكيا بخنوع لقيادة الاتحاد السوفييتى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية .

وقد أعلنت الدول التشكية أخيراً أن السلطات قررت وقف تدريس اللغة الروسية لجميع العمال بعد ساعات العمل لأنها تنوى تدريسها أثناء العمل كمظهر إجبارى آخر من مظاهر الحياة التى يحياها الشعب التشيكى اليوم . ولما كانت اللغة الروسية تعتبر لغة هامة فإنها تدرس فى المدارس بالطبع .

وما كاد انقلاب فبراير ١٩٤٨ يتم حتى عمدت الحكومة الشيوعية على الفور إلى إنشاء معسكرات السخرة وأعلنت بصراحة عن طبيعة هذه المعسكرات . . . وفى ٢٥ أكتوبر اكتشفت الحكومة أن معسكرات السخرة إجراء لا يدعمه سند من القانون فأسرعت « الجمعية الوطنية للجمهورية الشيكوسلوفاكية » بإصدار قانون رجعى ، بمعسكرات السخرة سمى «القانون نمرة ٢٤٧ الصادر فى ٢٥ أكتوبو عام ١٩٤٨ والخاص بمعسكرات السخرة » . ولا يختلف هذا القانون عن القوانين الشيوعية الأخرى التى

أوردناها من قبل .

وكان هذا القانون أكثر صراحة من القانون السوفييتى لأنه قرر بوضوح أن العمال المسخرين سيوضعون فى خدمة « الخطة الإقتصادية العامة » ويحسن بنا هنا أن نقتطف فقرات من هذا القانون .

الفقرة الأولى

١ — من أجل أن يتعلم الأشخاص المنصوص عليهم فى الجزء الثانى ، أن العمل هو واجب وطنى ، ومن أجل الانتفاع بطاقتهم فى العمل لخدمة المجموع كله (انظر الفقرة ٣٢ من الدستور) تقرر إنشاء معسكرات العمل الإجبارى (وسنكتفى من الآن فصاعداً بالإشارة إليها بكلمة المعسكرات) . . .

٢ — تقام هذه المعسكرات وتدار بواسطة وزارة الداخلية التى تقرر نقل سلطاتها هذه إلى اللجان القومية الإقليمية .

٣ — العمال الذين يرسلون إلى المعسكرات (الفقرة الثانية) يستخدمون فى الأعمال التى تقوم بها الدولة أو الشركات القومية . أو الحكومات المحلية تنفيذاً للسياسة الاقتصادية العامة .

الفقرة الثانية

١ – يرسل إلى المعسكرات :

(ا) الأشخاص اللائقون بدنياً وعقلياً والذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ عاماً و ٦٠ عاماً والذين يتهربون من العمل أو يهددون نظام الديمقراطية الشعبية أو الاقتصاد القومى وخصوصاً ما يتعلق بالمواد الغذائية والأشخاص الذين يعاونوهم أو يحرضونهم على ذلك .

(ب) الأشخاص الذين يثبت أنهم ارتكبوا أية جريمة من الجرائم المنصوص عليها :

– فى القانون رقم ٢٣١ الصادر فى ٦ أكتوبر عام ١٩٤٨ لحماية الجمهورية الشعبية الديمقراطية .

– فى القانون رقم ١٥ الصادر فى ١٣ فبراير عام ١٩٤٧ والخاص بالاتجار فى السوق السوداء والأعمال المشابهة .

– فى القانون رقم ٢٧ الصادر فى ١٣ فبراير عام ١٩٤٧ لحماية مشروع السنتين .

– فى القانون رقم ١٦٥ الصادر فى ١٨ يوليو عام ١٩٤٦ لحماية الشركات القومية والشركات المؤمنة والمنظمات الخاضعة للإدارة القومية .

وعلى الرغم من أن المشرعين حاولوا صياغة هذا القانون

بالطريقة المألوفة عند الغربيين فإن ألفاظ القانون خانتهم لأن عباراته لا تعدو أن تكون بهرجاً قصد به إخفاء ما وراءه ، فالحكم بالاعتقال فى معسكر للسخرة قد يصدر بمرسوم إدارى كما هو حادث فى الاتحاد السوفييتى . . . وهذا هو الواقع . . . وبالرغم من أن هذه اللوائح تسمح للمتهم بحق الاستئناف إلا أنه محروم من حق الدفاع عنه أمام المحاكم بالمعنى التقليدى المفهوم فى الغرب .

وتدل المعلومات التى حصلت عليها لجنة التحقيق فى أعمال السخرة أن معسكرات السخرة فى تشيكوسلوفاكيا تضم عدداً يتراوح بين ٢٥٠,٠٠٠ و ٣٠٠,٠٠٠ شخص .

ويدل إصدار قانون جديد للعقوبات على الطريقة السوفييتية ، على أن معسكرات السخرة تزداد يوماً بعد يوم . وقد نشرت جريدة « نيويورك تيمس » فى عددها الصادر فى ١٢ يوليو عام ١٩٥٠ نبأ جاء فيه :

« وافق البرلمان التشيكوسلوفاكى بإجماع الآراء على قانون جديد للعقوبات وضع على الطريقة السوفيتية ، وقيل إن الهدف الرئيسى من وضعه هو خدمة مصالح العمال . . .

وقد تجاهل القانون الجديد جميع الأنواع التقليدية للجرائم كالجنايات والجنح والمخالفات واكتفى بأن نص على أن « الخطر على المجتمع » هو المقياس الوحيد الذى يحدد عقاب كل جريمة

على أساسه .

وقد اهتم مشرعو هذا القانون على وجه الخصوص بجرائم التخريب ، ناقلين بشأنها نصوصاً من القانون الحالى لحماية الجمهورية . . . وقد نص القانون على أن التدخل المقصود لعرقلة تنفيذ المشروعات الاقتصادية أو القرارات العامة ، جريمة يعاقب عليها بالموت تماماً كالخيانة العظمى .

ونص القانون أيضاً على توقيع عقوبات صارمة على من يرتكب جريمة التخريب بسبب الإهمال أو اتخاذ موقف سلبى لا فى المصانع وحدها بل وأيضاً فى المكاتب والدواوين بمختلف أنواعها .

كما أن القوانين الخاصة بالتآمر لا تسرى على الجواسيس فقط ، بل تسرى أيضاً على من يقع فريسة لهؤلاء الجواسيس نتيجة الإهمال أو السذاجة الشخصية . وتعالج النصوص المفصلة أسرار الدولة والأسرار الرسمية والاقتصادية » .

ولقد كان النقص فى عدد عمال المناجم يسبب صداعاً دائماً للحكومات التشيكية ، ولذا فإن المجندين الذين لم يقضوا إلا خمسة شهور من مدة تجنيدهم الإجبارى البالغة سنتين يخيرون بين البقاء فى الجيش أو العمل فى المناجم . كما ترسل الحكومة الشيوعية معظم المحكوم عليهم بأعمال السخرة إلى المناجم . . . فيرسل بعض هؤلاء المسخرين إلى مناجم الفحم فى كلادانو

ويرسل البعض الآخر إلى مناجم اليورانيوم فى جاكيوف .

ويمكننا أن نقول دون مبالغة إن معظم أفراد الطبقة المتوسطة فى تشيكوسلوفاكيا قد أرسلوا إلى معسكرات السخرة . . . ففى الفترة بين أكتوبر عام ١٩٤٩ و ٣١ يناير عام ١٩٥٠ أرسل ١٠,٠٠٠ على الأقل من أفراد هذه الطبقة إلى معسكرات السخرة ... وتدل معلومات موثوق بها على أن عدد المسخرين فى تشيكوسلوفاكيا قد بلغ ٢٥٠,٠٠٠ حتى أوائل سنة ١٩٥١ .

وفى تشيكوسلوفاكيا ، كما هو الحال فى بولندا ورومانيا والمجر وألبانيا والاتحاد السوفييتى ، يضرف لكل عامل « دفتر عمل » يسجل فيه ما ينتجه من عمل ويوقع المشرف على العمل على صحة ما جاء فيه . ويتبع « دفتر العمل » هذا العامل من مصنع إلى آخر . بل وحتى إلى معسكرات السخرة أيضاً فهو جواز العامل إلى العمل وبدونه لا يستطيع أن يحصل على وظيفة . ولا يذكر هذا الدفتر قدرة العامل فى ناحية اختصاصه فقط ، بل وأيضاً مدى وفائه بالحد الأدنى للإنتاج الذى فرض عليه ، وقيمة أجره ومبدأه السياسى وشعوره نحو نظام الحكم . . . إلخ .

٢

إن الطريقة التى يعامل الاتحاد السوفييتى بها الدول التى تدور فى فلكه تعيد إلى الأذهان الوسائل البالية التى كان يتبعها

الاستعمار الغربى . . . وهكذا يصبح « الاستعمار السوفييتى الجديد » فى القرن العشرين قسيما لأهوال الحكم البلجيكى فى الكونغو فى أواخر القرن الماضى وفى أوائل هذا القرن . . والحقيقة أن الاتحاد السوفييتى لا يفرق بين حلفائه وأعدائه السابقين فهو يعامل البولنديين والتشيكوسلوفاكيين والروسيين أنفسهم بنفس الطريقة التى يعامل بها الرومانيين والمجريين والألبانيين .

لقد كان من فظائع وفضائح الحكم الهتلرى وجود نظام معسكرات الاعتقال التى أنشأها النازى فى داشاو — وبوخنوالد وساخسنهوزن ، بل وأن مجرد ذكر هذه الأسماء ليكفى لإثارة سكان العالم الغربى الذين لم يصدقوا إمكان ارتكاب مثل هذه الجرائم الفظيعة فى تلك المناطق . وقد حسب الناس إذ انتهت الحرب وانهزمت النازية أن هذه المعتقلات ستدمر تماماً أو على الأقل يحتفظ بها تذكاراً للمخازى التى ارتكبها هتلر . ولكن لم يعلن عن إخلاء بعض هذه المعتقلات إلا فى سبتمبر عام ١٩٥٠ ، إذ كانت حتى ذاك الوقت تدار بكامل طاقتها تحت إشراف السوفييت الذين أوقفوا بالطبع استخدام غرف الغاز ولكنهم استمروا فى أعمال التعذيب التى عرفنا طرفاً بسيطاً منها من قصة شيبكوف .

ولا زالت معتقلات بوخنوالد وساخسنهوزن قائمة حتى الآن وإن تغير النزلاء وبعض الإداريين .

وكان المعروف حتى عهد قريب أن برلين نفسها تضم معسكراً للاعتقـــال حيث يخضع المعتقلون البائسون كل يوم لمعاملة وحشية إرهابية . . . وقد يصعب على المرء أن يصدق وجود مثل هذا المعسكر ، ولذلك فإننا نذكر أن عنوانه هو

Freien walderstrasse 43, Berlin-Hohenschoenhausen

وكان سابقاً مصنعاً للحوم فى منطقة هايكى :

ويتحدث أولئك المعتقلون الذين أسعدهم الحظ بالخروج من هذا المعتقل عن الأهوال التى يلاقيها كل معتقل فى أول تحقيق معه . . . وها هى شهادة أحد هؤلاء :

« يجبر المعتقل على خلع كل ملابسه ، وتستعمل معه جميع أنواع التعذيب كى يدلى بالاعتراف المطلوب . وكثيراً ما كانت أعمال التعذيب هذه تستمر أسابيع كاملة . وإذا أغمى على المعتقل فإن الماء البارد كفيل بإعادته إلى الرشد .

ويعيش السجناء فى مجموعات كل منها تسكن غرفة واحدة حيث ينام كل سجين على كيس ملىء بالقش وغطاء واحد ، كما أن هناك بعض الزنزانات التى تستعمل للحبس الانفرادى وقت اللزوم ، وهى عارية عن كل شىء ، حتى الغطاء الوحيد وكيس القش ، باستثناء سرير صنع من ألواح الخشب ومئات من البق . . . ولعل أفظع وســائل التعذيب فى هذا المعتقل هى « زنزانات العذاب » ذات الأرض المصنوعة من الأسمنت والتى

لا تزيد مساحتها على ١٨ بوصة مربعة ، حيث يطلب إلى السجين المزمع تعذيبه الوقوف فى إحداها لمدة أيام عديدة بعد إرغامه على شرب لترين من الشاى الأسود . . . ولا يسمح له باستخدام دورات المياه الخارجية ، فسرعان ما يجد نفسه واقفا وسط فضلاته . . . وعندما يحين وقت فتح الباب ، يكون السجين فى العادة قد فقد كل قواه فيسقط على وجهه فى الحال .

والمفروض عادة أن يقوم المعتقلون بأداء أعمال شاقة من السابعة صباحاً حتى التاسعة مساء ويصرف لكل منهم ٣٠٠ جرام من الخبز مرة واحدة فى اليوم ، وبعض حساء البرغل الخفيف مرتين فى اليوم ، وخمسة عشر جراماً تقريباً من الدهنيات مرة كل يومين . وتخفض كمية الطعام التى تصرف لكل سجين إذا لم يقم بإنتاج كمية العمل المحددة له .

ولا شك أن نسبة الوفيات لا بد أن تكون مرتفعة فى مثل هذه الظروف ، فحوادث الوفاة تتراوح بين ٣٩ و ٤٠ يومياً . وتنزع عن الموتى ملابسهم وكل ما يدل على شخصيتهم وينقلون فى سيارات النقل إلى غابة قريبة حيث يدفنون فى حفر القنابل ويتكفل « الجير الحى » بالقضاء على كل أثر للضحايا .

وإذا أسعد الحظ معتقلا فتقرر الإفراج عنه ، فإن إدارة المعتقل تعده لحياة الحرية فتصرف له تعيينات خاصة من الطعام ويسمح له بالاستحمام ثم يسلمونه عند خروجه لفافة طعام

فضلا عن مبلغ يتراوح بين ١٠٠٠ و ٣٠٠٠ من المارکات !

ولا يفرج عن أى من المعتقلين قبل أن يوقع وثيقة يتعهد فيها بكتمان كل ما يتعلق بالمعتقل وما يحدث فيه وبهذا يضمن المسئولون أن حوادث الإرهاب والتعذيب لن تتسرب إلى الخارج فإن ذكراها كفيلة بإخراس المفرج عنه إلى الأبد .

ولا يفوتنا أن نذكر أن كل كبار موظفى المعتقل من النازيين السابقين الذين يجدون لذة غريبة فى تعذيب باقى المعتقلين .

وليس ما ذكرناه سوى وصف لمعتقل واحد صغير فى مدينة برلين . غير أننا قد حصلنا من الدكتور واينر هيلد براندت ، رئيس جمعية المكافحين ضد الأعمال غير الإنسانية ، على قائمة بالمعتقلات الأخرى وهى :

اسم المعتقل	عدد المعتقلين	عدد الوفيات	ملاحظات
ريسرو	١٢٧٥٠	١٫٥٠٠	ترسل شحنات منتظمة إلى الاتحاد السوفييتى
توست	٥٫٢٠٠	٣٫٥٥٠	» » »
لانذبرج	٩٫٨٠٠	٣٫٨٠٠	» » »
بوسن	٧٫٥٠٠	٢٫٥٥٠	» » »
هوهنخورن هورزن .	غيرمعروف	غيرمعروف	غير معروف
معسكرات الانتقال .	١٢٫٥٠٠	٣٫١٠٠	ترسل شحنات منتظمة إلى الاتحاد السوفييتى
كرتشنلورف . .	١٩٫٨٥٠	٧٫٥٩٠	» » »
جاملبش	غيرمعروف	غيرمعروف	غير معروف
المعتقلين فقط . .	١٤٫٢٠٠	٥٫٢٠٠	ترسل شحنات منتظمة إلى الاتحاد السوفييتى
ترجا وفورت زينا .	غيرمعروف	غيرمعروف	غير معروف
المعتقلين والحربين العاديين	١١٫٠٥٠	٣٫٠٠٠	ترسل شحنات منتظمة إلى الاتحاد السوفييتى
موطلبرج	٢١٫٧٥٠	٨٫٠٠٠	» » »
زيرانذبرج . . .	١٧٫٢٠٠	٦٫٧٠٠	» » »
بوزن	غيرمعروف	٦٫٢٠٠	» » »
بوخنوالد	٣٠٫٦٠٠	١٣٫٢٠٠	» » »
ساخسهوزن . . .	٦٠٫٠٠٠	٢٦٫٧٠٠	» » »

وقد أعلن الدكتور هيلد براندت أخيراً أن بعض المعتقلات قد أغلقت وأرسل جميع من فيها إلى الاتحاد السوفييتى للعمل فى معسكرات السخرة هناك . كما يجب أن يكون مفهوماً أن

الأرقام السابقة ليست إلا صورة جزئية لحقيقة الحال فى منطقة الاحتلال السوفييتية فى ألمانيا .

وقبيل حكم هتلر ، كانت نقابات العمل هى أهم منظمات الطبقة العاملة . فلم تكن مهام هذه النقابات تقتصر على الأعمال النقابية فقط ، بل كانت أيضاً تعد مراكز للحياة الثقافية والاجتماعية للعمال الألمان . ولم تكن عضوية هذه النقابات إجبارية فى يوم من الأيام وكان العامل يقرر فى حرية تامة ما إذا كان يرغب فى الاشتراك فى أوجه نشاط هذه النقابات .

أما حالة نقابات العمال وتأثيرها فى حياة الطبقة العاملة فى منطقة الاحتلال السوفيتية من ألمانيا فيمكن معرفتها من الاطلاع على التقرير التالى الذى كتب على أساس معلومات مؤكدة كتبتها جماعة الحزب الديمقراطى الاشتراكى فى ألمانيا .

لقد أسس الاتحاد الألمانى الحر لنقابات العمال فى عام ١٩٤٥ طبقاً لأوامر سلطات الاحتلال السوفييتية . وقد سيطر عليه الشيوعيون منذ ذلك الوقت .

ولقد قيل إن هذا الاتحاد مؤسسة غير حزبية الغرض منها هو توجيه نشاط الحركة النقابية العمالية لدى عودتها إلى الميدان الصناعى طبقاً لما يتمشى مع السياسة الشيوعية .

ولقد نجح الشيوعيون تماماً فى تحقيق هذا الهدف ، إذ كانت سلطات الاحتلال السوفيتية لا تحتمل مجرد التفكير فى

وجود نقابات عمالية مستقلة . . . وهكذا تطور الاتحاد حتى أصبح الآن منظمة إجبارية تكاد تشبه « الجبهة الألمانية » التى أنشأها النازيون ، فى أنها أبعد ما تكون عن النقابات العمالية .

ويزعم الاتحاد الآن أنه يضم فى المنطقة السوفيتية ٤,٥٠٠,٠٠٠ عضواً منهم ١,٥٠٠,٠٠٠ (أى ٣٢,٣ ٪) من النساء .

وقد نظم هذا الاتحاد على أساس من مبدأ المركزية مما يسمح للجنة التنفيذية الاتحادية بالتدخل مباشرة فى شئون أى فرع محلى . . . والمعروف أن أكثر من ٩٠ فى المائة من موظفى الاتحاد من الشيوعيين الذين تزيد نسبتهم عن هذا فى إدارة الدولة التنفيذية والإدارة الاتحادية التنفيذية . . وقد أنفق الاتحاد أكثر من نصف مصروفاته على مرتبات موظفيه .

ولعل أهم مظاهر سياسة نقابات العمال الشيوعية هو ما يسمى « بالأعمال التربوية » التى تهدف إلى تطعيم النقابيين بالقواعد المذهبية الشيوعية . . . وقد وضع عدد كبير من المدارس تحت تصرف الاتحاد تحقيقاً لهذا الغرض .

ولما كان تكوين رابطات لأصحاب الأعمال فى المنطقة السوفييتية أمراً محرماً ، فإن الاتحاد لا يجد الطرف الآخر اللازم للمساومات الجماعية . وقد استبدلت رابطات أصحاب الأعمال بالغرف التجارية والصناعية التى تماثل الاتحاد فى خضوعها التام للسلطات الشيوعية ، فأصبحت الأجور وظروف العمل

تحدد عادة طبقاً لتقديرات الموظفين الشيوعيين الذين لا يدخلون فى حسابهم إلا الاعتبارات السياسية .

وكان موقف الاتحاد تجاه نظام العمل بالقطعة موقفاً غريباً . . . فحتى عامى ١٩٤٥ و ١٩٤٦ كان الشيوعيون لا يزالون يعارضون هذا النظام قائلين إنه إحدى وسائل الاستغلال الرأسمالية متخذين شعاراً هو « العمل بالقطعة ليس إلا وسيلة من وسائل القتل العمد » ومع ذلك فقد أصدرت الإدارة العسكرية السوفييتية فى ١٠ أكتوبر سنة ١٩٤٧ الأمر رقم ٢٣٤ مقررة فيه تطبيق نظام العمل بالقطعة فى المنطقة السوفييتية على أكبر نطاق ممكن ، وأيد الاتحاد هذا الأمر دون تحفظ مستخدماً فى ذلك « حملة دعاية » ضخمة .

ويقول مستر . ب موروتوف ، مدير إدارة الأيدى العاملة بالإدارة العسكرية السوفييتية ، إن ٣٥٪ من عمال المنطقة السوفيتية تدفع لهم أجورهم حالياً طبقاً لنظام القطعة ، وتبين هذه النسبة العالية مدى الأهمية المعلقة على تطبيق نظام الأجور هذا .

ولعل السبب فى هذا الاهتمام هو ما كشف عنه الهر روبرت سيورت وزير الداخلية الشيوعى فى ساكسونى — انهالت ، حين ألقى فى مؤتمر عقد بمصنع أجفا للأفلام فى ٣ فبراير عام ١٩٤٨ ، بخطاب جاء فيه « إن اقتصاديات المنطقة السوفييتية تعمل أيضاً على مساعدة حليفنا الأكبر ، الاتحاد السوفييتى ، فى استعداداته الحربية » .

وكان أكبر غبن تعرض له العمال هو التطبيق المؤقت لما سمى « النظام التصاعدى لدفع الأجور على أساس القطعة » والذى قصد منه كفالة مكافآت مالية عالية لمن يتجاوز كمية الإنتاج المحددة المسموح بها فى ظل نظام دفع الأجور على أساس القطعة .

وقد أعلنت اللجنة الاقتصادية لألمانيا تطبيق هذا النظام التصاعدى ابتداء من أكتوبر عام ١٩٤٨ . وقام حزب الوحدة الاشتراكية (الحزب الشيوعى) بالاشتراك مع اتحاد ألمانيا الحر لنقابات العمال بحملة دعاية واسعة النطاق لتعميم هذا المشروع الذى طبق فى جميع المصانع الكبرى تقريباً . غير أنه ما كاد شهر أغسطس عام ١٩٤٨ يقارب نهايته حتى توقفت هذه الحملة فجأة . . . وقام مدير إدارة الأيدى العاملة بالإدارة العسكرية السوفييتية بتأنيب الاتحاد والحزب الشيوعى بطريق غير مباشر — على خطئهم فى استخدام هذا النظام التصاعدى والانتفاع به .

وظهر بعد ذلك أن الغرض من تطبيق هذا النظام كان رفع كميات الإنتاج المحددة بغية زيادة الطاقة الإنتاجية . . . فقام الاتحاد والحزب الشيوعى بتغيير سياستهما فى هذا الشأن ، وأوقف تطبيق النظام التصاعدى فى معظم المصانع واستبدل به نظام جديد للدفع المباشر غير التصاعدى على أساس القطعة ، زيدت فيه كميات الإنتاج المحددة إذ أن العمال كانوا قد أظهروا كل مقدرتهم الإنتاجية مدفوعين فى ذلك برغبة الحصول على

مكافآت عالية طبقاً للنظام التصاعدى .

وقد قامت منطقة الاحتلال السوفييتية أيضاً بمحاكاة حركة « الإنتاج السريع » الروسية . ففى ١٣ أكتوبر سنة ١٩٤٨ ، استطاع أدولف هنيكى عضو الحزب الشيوعى والعامل فى أحد مناجم الفحم فى ساكسونى ، إنتاج ٣٨٠٪ من نسبة الإنتاج المحددة ، وكان هذا بداية ما سمى بحركة « هنيكى » التى بدأ تطبيقها فى الصناعات الأخرى بعد الدعاية لها على نطاق واسع .

وظهرت فى المنطقة السوفييتية من ألمانيا ، تماماً كما فى الاتحاد السوفييتى ، طبقة جديدة من المحظوظين هى طبقة « النشيطين » الذين يكافأون على « أنتاجهم السريع » بامتيازات ومكافآت خاصة بل وحصل بعضهم على أوسمة .

وكان تطبيق نظام « مسابقات العمال » مما هيأ للموظفين الشيوعيين فى الاتحاد والحزب فرصة الضغط على العمال بغية تحقيق أعلى نسب ممكنة من الإنتاج مهما أدى ذلك إلى إنهاك آلات المصانع أو زيادة نسبة الحوادث التى أودت بحياة كثير من العمال . . . ومما لا شك فيه أن العمال الألمان يبغضون هذا الاستغلال أشد البغض ، لكنهم اضطروا للعمل فى ما سمى « نوبات هينيكى » خوفاً من الاعتقال والتشريد والتعذيب والنفى إلى سيبيريا حيث الأشغال الشاقة والجليد .

وعلى عكس ما كان يحدث فى ألمانيا الغربية ، لم يعترض

اتحاد النقابات فى ألمانيا الشرقية على البرنامج الواسع النطاق لتفكيك مصانع الصناعات السلمية (التى لا تنتج مواد، أو أسلحة حربية وبذا فليس من حق الدولة الغازية الاستيلاء عليها) . وإرسالها إلى الاتحاد السوفييتى . بل على العكس ، قام المتحدثون بلسان الحزب والاتحاد بإعلان تأييدهم لحق الاتحاد السوفييتى المطلق فى الاستيلاء على هذه المصانع ، لأن الإتحاد السوفييتى يعمل على حمايتها من استغلال « الرأسمالية الاحتكارية الغربية » ..

وعند ما رحل الآلاف من العمال الألمانيين المهرة والمهندسين والعلماء إلى روسيا تنفيذاً لأوامر سلطات الاحتلال السوفييتية ، وكلفوا بالعمل فى الصناعات الحربية السوفييتية لم يحرك اتحاد النقابات ساكناً . . . وكذلك لم يفعل شيئاً وكأن الأمر لا يعنيه حين اعتقل مئات الآلاف من الرجال والنساء والشبان ووضعوا فى معسكرات السخرة .

بل إن أفراد قوات الاحتلال السوفييتية أنفسهم قد اعترفوا بأن ظروف العمل فى معسكرات اليورانيوم فى ساكسونى ، وهى التى تستخدم فيها الأيدى العاملة المسخرة ، أردأ بكثير جداً منها فى مناجم الرصاص فى سيبيريا .

وكلنا نتوق بالطبع لمعرفة ما عساه قد يحدث لعامل ما إذا « استدعى » للعمل فى الاتحاد السوفييتى ، ولعلنا نجد المعلومات التى نريدها فى هذا التقرير الذى كتبه واحد من

هؤلاء بعد هربه من الاتحاد السوفييتى ، وسلمه إلى لجنة التحقيق فى أعمال السخرة .

« فى ديسمبر عام ١٩٤٥ عدت إلى برلين من ألمانيا الغربية محاولا أن أبدأ حياتى من جديد . ولما كان دخولى برلين فى ذلك الوقت محظوراً فإننى لم أستطع العمل فى الشركة التى كنت أعمل بها قبل ذلك (تليفونكن) وأخيراً قبلت عملا عرضه على الدكتور ستايميل ، مدير مصانع أوبرسبرى ، إذ أن دخولى برلين فى هذه الحالة لن يسبب لى أية متاعب . كما أن الشركة وضعت منزلا تحت تصرفى . . . وعملت فى مبدأ الأمر فى معمل الدكتور هاسل بك ثم انتقلت إلى معمل خاص بى . . . وأحب أن أؤكد أننى لم أوقع عقداً مع الشركة أو مع السلطات السوفييتية .

وفى حوالى الساعة الرابعة من صباح الثلاثاء ٢٢ أكتوبر عام ١٩٤٦ ، اقتحم مسكنى ضابط روسى يصحبه ثلاثة جنود مسلحين ومترجمة روسية ، وأخبرونى أن المصنع الذى أعمل فيه سينقل إلى الاتحاد السوفييتى وأننى سأنتقل معه للعمل هناك لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد . ولم يكن على أن أوقع عقداً أو وثيقة مماثلة .

ومنحنا مهلة قدرها نصف ساعة لنخلى الشقة ونحزم متاعنا الذى كان يملأ ثلاث غرف . ولما لم نفعل ذلك بالسرعة الكافية ، اشترك الجنود الروس أنفسهم فى حزم المتاع ، فكانوا ينزعون

الستائر ويكدسونها فى خليط عجيب مع الأطباق والملابس والأغطية ، ثم يحزمون كل هذا فى السجاجيد والأشياء التى كانت تبدو لهم صالحة لعملية الحزم . وأغمى على زوجتى ولم تعد إلى صوابها إلا بعد أن أرقدتها على أريكة وسقيتها قليلا من الماء .

نسيت أن أذكر لكم أنه لم يكن فى المنزل حينذاك إلا أنا وزوجتى وشقيقتها التى جاءت تزورنا ، لم يغفل الروس دقيقة واحدة عن مراقبة كل منا بدقة لدرجة أنه كان علينا أن نلبس فى حضرة الجنود الروس ، كما استطعنا بعد عناء أن نحصل على إذن باستعمال دورة المياه المفتوحة فى قضاء حاجاتنا. وقد طلبت السماح لزوجتى بالبقاء فى برلين ولكن طلبى رفض . ولما حاولت أن أعطى بعض الأشياء لشقيقة زوجتى كادوا يقسرونها على المجىء معنا . ولم تكن لدينا فرصة لإطلاع معارفنا أو أصدقائنا على نبأ ترحيلنا إلى الاتحاد السوفييتى .

وبعد أن شحن الجنود الروس السيارة الأولى ، كان على أن أجلس على المقعد الأمامى بين السائق والضابط ، فى حين وضعت زوجتى بين الأثاث والجنود الروس.

واتجهت السيارة نحو محطة البضاعة فى كوبينيك . وكانت الشوارع المؤدية إليها بل والمنطقة كلها تراقب بدقة بواسطة رجال البوليس السرى وجنود الجيش الأحمر . ولما وصلنا إلى المحطة وضع العفش فى عربة بضاعة خاصة فى حين جلسنا نحن فى

مقصورة خاصة بنا بقطار الإكسبريس .

وأمضينا النهار بطوله فى انتظار رحيل القطار الذى تأخر سيره حتى العاشرة مساء بسبب استمرار قدوم عمال شركة أوبرسبرى بصحبة عائلاتهم .

ولعله يجدر بى أن أذكر أنه فى يوم ٢١ أكتوبر طار مدير الشركة الدكتور ستايميل والدكتور سبيجيل إلى موسكو بحجة حضور أحد المؤتمرات ، كما طار إليها مستر جريم (ملاحظ القسم) ومستر زيجنكى (ملاحظ المعمل) ومستر فلور (المهندس بمعمل مستر زيجنكى) وشحن أثاثهم فى نفس القطار الذى شحن فيه أثاثنا ، ولما كان مستر زيجنكى فى الاتحاد السوفييتى فقد كلف أحد الخدم بمصاحبة طفليه أثناء السفر .

وكان معنا فى القطار واحد من زملائنا توفيت والدته فى اليوم السابق ولم يسمح له بدفنها نظراً لضيق الوقت ... وجدير بالذكر أن القطار كان يضم سيدتين إحداهما على وشك الوضع والأخرى فى حالة مرضية خطيرة كانت قد أجرت لتوها عملية فى ثديها .

وعند ما غربت الشمس طلب منا الاعتكاف فى مقصوراتنا وغلق النوافذ ثم سجلت أسماؤنا مرة أخرى وتسلم كل منا لفافة طعام...وكان الطعام الذى حصلنا عليه ألمانيا خالصاً يتكون من ثلاث لبرات من لحم الخنزير المقدد ولبرتين من اللحم الخشن ، وخمس لبرت من البصل وخمس لبرات من السكر وست قطع

من الشيكولاتة وخمسة كيلوجرامات من اللحم المحفوظ فى العلب و ١٢٠٠ سيجارة وقطعتين من صابون التواليت وملح وفلفل إلخ.

وكان المفروض أن نعرف فى اليوم التالى عدد الأيام التى يجب أن نأكل خلالها هذه الكمية من الطعام.

وعندما ساد الظلام حاولت أن أفتح باب العربة بمفتاح أحضرته معى خصيصاً ولكنى فشلت. وعلى كل حال فقد كان من الحماقة أن أحاول الهرب ونحن لا نزال فى برلين، إذ كانت كل المنطقة المحيطة بالمحطة تحت رقابة دقيقة كما غمرت بالأنوار حتى ساعة متأخرة من الليل. وحين كان القطار ينتقل من رصيف إلى آخر كان الجنود الروس ذوى «السونكيات» المشرعة يقفون على مدخل كل عربة. كما سمعنا أن الأسلاك التليفونية كانت توضع فوق سطح العربات مما يجعل الاتصال ممكنا بين سائق القطار والعربة الأخيرة التى تضم بعض الحراس، عبر مقصورات الضباط الروس وعربات الجنود الحمر.

وبعد رحيلنا عن برلين نجحت فى فتح الباب الموصل إلى المقصورة التالية ثم حاولت فى الظلام أن أفتح باب «الكبود» الموصل بين العربات واستطعت بعد لأى أن أفتح أحد جانبيه فتحة تكفى لزحفنا خلالها.

وبعد أن مر القطار ببلدة أركنر هدأ القطار سرعته قليلا، فغادرت المقصورة أنا وزوجتى حاملين معنا حقيبتين خفيفتين.

ونجحنا فى الخروج إلى السلم القائم بين العربتين الثانية والثالثة . غير أن القطار زاد من سرعته فاضطررنا للوقوف مكاننا ولم نجد الشجاعة للقفز منه حتى قاربنا الوصول إلى بلدة فورستنوالد... وكانت سرعة القطار حينذاك تتراوح بين ٤٥ و ٥٠ كيلومتراً فى الساعة ولكننا قفزنا منه بمعجزة دون أن نصاب بشىء عدا بعض الكدمات والجروح الخفيفة... والتجأنا إلى مزرعة قريبة حيث علمنا أن الحراس قد لاحظوا هروبنا وأنهم قاموا بحملة تفتيشية للبحث عنا وتنكرنا أنا وزوجتى وانفصلنا وأخيراً نجحنا فى العودة إلى برلين مساء يوم الخميس .

وأحب قبل أن أختم بيانى هذا أن أذكر مرة أخرى أنه لا أنا ولا بقية موظفى وعمال الشركة كنا مقيدين بأى نوع من أنواع العقود » .

ووصلتنا تقارير أخرى من عمال مرحلين آخرين جاء فيها أنه لدى وصول القطار إلى الحدود الروسية فصل الرجال عن النساء والأطفال ، بحجة أن الأطفال سيرسلون إلى دور الحضانة ، والنساء إلى مراكز جماعية ، وذلك حتى يتم بناء المصانع والمنازل .

وفى نفس المدة تقريباً ، أصدر المارشال سوكولوفسكى . قائد السلطات العسكرية السوفييتية فى ألمانيا ، الأمر رقم ٣٢٣ الصادر فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٤٦ والخاص بزيادة إنتاج الفحم .

وفيما يلى نص هذا الأمر الشهير .

« أصدر أمرى إلى مديرى المديريات ومأمورى المراكز باتخاذ إجراءات حاسمة ضد كل من يتقاعس عن العمل أو يخرق الأنظمة والتعليمات . . . وتطبق العقوبات التالية : التأديب العلنى ، وسحب بطاقات التموين الإضافية ، واستقطاع أيام العمل التى ضاعت هباء دون سبب قهرى من الإجازة السنوية ، ثم أخيراً توقيع العقوبات الجنائية على المذنب . . . ومعنى هذا أن العمال الذين يتغيبون دون عذر مقبول أو الذين يخرقون نظم العمل معرضون ليس فقط لاتخاذ الإجراءات التأديبية ضدهم ، بل وأيضاً لتوقيع العقوبات الجنائية عليهم . . . ولا تقف العقوبة عند حد . وأحب أن أضيف أنه فى الأحوال الخطيرة ، فإن الأمر رقم ١٦٠ والخاص بالعقوبات المفروضة على أعمال التخريب ، سيوضع محل الاعتبار . . . »

وكان السباق الدولى فى سبيل اليورانيوم هو السبب الحقيقى لازدياد الطلب على الأيدى العاملة المسخرة فى ألمانيا بالذات . وقد أدت الحاجة إلى عمال المناجم لاستخراج اليورانيوم إلى إصدار الأوامر التالية إلى وكالات التخديم فى المنطقة السوفيتية .

« وكالة التخديم — درسدن

المكتب الرئيسى ١٧ ماترنيستراس

مذكرة بشأن العمال الذكور الذين تطلبهم سلطات الاحتلال

العسكرية للقيام بأعمال مؤقتة .

ريتشارد فيشر — ج . م . ب . هـ .

درسدن ١

١٢ — ١١ وينرستراس .

تسلم مكتب درسدن للتخديم أمراً بإعداد بضعة مئات من الرجال الذين يتمتعون بصحة جيدة لعمل عاجل ! ولما كان من المتعذر حالياً الحصول على العدد المطلوب من السوق الحرة ، فقد أصبح من الضرورى أن نحصل على هؤلاء الرجال من الأماكن التى يعملون فيها . . . ولما كنا لا نريد أن نرهق مصنعاً دون آخر ، فقد قررنا سحب العمال من المصانع الموجودة فى منطقتنا على أساس نسبة معينة فى المائة تبعاً لحجم المصنع .

وعلى هذا ، بالاتفاق مع النقابة ومع مكتب التجارة والصناعة ، فإنه ينبغى على مصنعك أن يزودنا بعشرين رجل فى صحة جيدة تتراوح أعمارهم بين ١٨ و ٤٥ عاماً . ويجب على هؤلاء الأنفار المجندين التواجد فى مكتب درسدن للتخديم فى تمام الساعة الثامنة صباحاً من يوم الإثنين ١٢ مايو عام ١٩٤٧ وذلك ليعرفوا مكان عملهم الجديد . وبما أن هذه الإجراءات فى غاية الأهمية والاستعجال ، ومن الضرورى القيام بها فى الوقت المحدد لذلك ، فإنا نحملك المسئولية الكاملة لتنفيذ هذا الأمر . كما أننا لن نقبل أى عذر بحجة وجود صعوبات فى التنفيذ .

ونحب أن نوجه نظرك إلى أنه فى حالة ما إذا لم يتقدم العدد المطلوب من العمال فى الوقت المحدد ، فإن السلطات المختصة ستقوم بتوقيع العقوبات المنصوص عليها فى الأمر رقم ٣ ج »

ختم إمضاء

أما العمال الذين وقع عليهم الاختيار فقد تسلموا المذكرة التالية :

« هذا أمر لكم بالتقدم للعمل فى أووى (أوزجيرج) ابتداء من يوم ١٩ يوليو عام ١٩٤٧ حتى صدور أوامر أخرى ...

وعليكم « التراجد » فى الساعة السادسة من صباح يوم ١٨ يوليو عام ١٩٤٧ فى محطة درسدن للسكك الحديدية ومعكم كافة الوثائق اللازمة (دفتر العمل و بطاقتى الضرائب والتأمين الاجتماعى) ...

ويجب عليكم العناية بقراءة التعليمات الموجودة على ظهر هذه الورقة مع ملاحظة أن عقد العمل لا يمكن فسخه إلا بواسطة مكتب التخديم فى المدينة التى ستذهبون للعمل فيها .

درسدن فى ١٧ يوليو عام ١٩٤٧

مكتب تخديم المدينة .

إمضاء ختم

ملاحظة : « يجب أن تحضروا معكم طعاماً يكفيكم لمدة خمسة أيام »

ترى ما الذى كان فى انتظار هؤلاء العمال الذين جندوا للعمل فى أووى ؟ هذا هو ما يدلنا عليه التقرير التالى للدكتور لويونثال المحامى . . . وكان الدكتور ليونثال قد التحق بالحزب الشيوعى فى عام ١٩٣٠ ، وبعد حريق الريخستاج بوقت قصير ، غادر ألمانيا وعاش فى فرنسا وهولندا ثم سافر إلى الاتحاد السوفييتى حيث أمضى ١٢ عاماً فى موسكو ثم زار الأقاليم الروسية أثناء الحرب .. وفى عام ١٩٤٦ سمح له بالعودة إلى ألمانيا حيث أصبح مديراً لوزارة العدل فى الإدارة السوفييتية بألمانيا الشرقية . وتقع معسكرات السخرة التى يصفها فى مناطق أوبرشليما وشنيبرج ودوى وزخولا ومارينبرج وبرامياخ وكونزردورف وشميدبرج وأنا برج وبوخولز وجروهناو ووجوهابخورجنستاد . وقد كتب الدكتور ليونثال تقريره هذا على أساس من خبرته ومعلوماته وملاحظاته الشخصية .

« لقد بلغت السخرة على العموم حداً مروعاً فى منطقة الاحتلال السوفييتية ، وهى تستخدم على وجه الخصوص فى تفكيك المصانع وشحنها إلى الاتحاد السوفييتى وبناء الخزانات والموانئ ذات الأهمية الاستراتيجية والصناعية للإتحاد السوفييتى .

ويسخر ١٠,٠٠٠ شخص تقريباً أحضروا من جميع أنحاء ألمانيا الشرقية فى تفكيك منجم الفحم النباتى فى ريجسبريتينجن . كما أن هناك ١٥٠٠ شخص من مركز دوبلن وحده يعملون

ضمن ٥٠٠٠ عامل مسخر آخر فى تفكيك مصانع لونا فى هويرزويردا » .

وكان مطلوباً فى أحد الأيام جمع عدد من الأيدى العاملة على وجه السرعة بغية تفكيك مصنع كبير فى بنترفيلد فذهب ضابط روسى برتبة ملازم إلى مدير مكتب التخديم فى ماجدنبرج . ووضع مسدسه على المكتب ثم قال مهدداً وهو يشير إلى سيارات النقل الأربعين التى أحضرها معه « لن أترك هذا المكان حتى تمتلىء جميع هذه السيارات بالرجال » وبالطبع تم الحصول على الرجال المطلوبين ببساطة إذ التقطوا فى الحال من الشوارع ومن الميادين العامة . . .

ومرة أخرى ، طلب نفس الضابط الروسى ١٢٠,٠٠٠ عامل بغية تفكيك مصانع جييش إيرين . . . وكان يطمع فى إتمام هذا العمل فى شهرين فقط باستخدام ثلاث نوبات من العمال تتناوب العمل ليلا ونهاراً لأن سرعة الإنتاج تكسب المرء إعجاب الرؤساء ولكن من الذى يعنيه ما يحدث للعمال وما ينتج حتما من « لخبطة فنية » .

واستخدمت نفس الرسائل لجمع العمال حين فاض نهر أود رويروخ فى نهاية الشتاء وكانت السلطات وقتذاك تقبض على الانتهازيين من تجار السوق السوداء فضلا عن المئات من سكان برلين الغربية الذين كانوا يحاولون اختراق الحدود إلى

ألمانيا الشرقية دون الحصول على إذن خاص من سلطات الاحتلال السوفييتية وأرسلوا جميعاً كما هم للعمل فى بناء خزان الأودر ... هذا وقد نفذ برنامج مقاومة فيضان نهر الأودر بواسطة الأيدى العاملة المسخرة .

وفى إقليم جيسترو فى ماكلنبورج . جند ٣٠٠٠ رجل لبناء ميناء ويزمان الجديد على بحر البلطيق الذى أنشأه الروس لخدمة أغراضهم الخاصة . . . بل ولقد سخر أيضاً أعضاء أوركسترا جيسترو الذين وضعت فى أيديهم الفؤوس والمغاول بدلا من الآلات الموسيقية !

وفى ثورينجيا . أرغم ٢٥,٠٠٠ عامل من المشتغلين فى صناعات غير رئيسية على العمل فى إنتاج أخشاب الوقود . وكان نقل الخشب يتطلب وجود ٦٠٠ عربة بضاعة يومياً ، لم يمكن الحصول منها على أكثر من ١١٢٠ و ١٥٠ عربة. ولكن الأوامر واجبة التنفيذ مهما تكن الحال وإلا اعتبر ذلك تخريباً .

وقد حصلت على صورة حقيقية للحياة فى « فرق العمل » لا من عامل مغبون قد يكون مبالغاً فى وصفه ولكن من أحد رجال الحزب الشيوعى نفسه الذى قال إن ٢٠,٠٠٠ رجل قد أحضروا للعمل فى تفكيك مصنع للتقطير فى بورنا . وكان معظمهم من المهاجرين والأسرى العائدين الذين يعانون الشلل والانهيار والإنهاك . وكانت ثكناتهم لا تتسع لهم . ولم تكن

لديهم مراتب أو أكياس قش أو أغطية، فضلا عن عدم وجود أماكن للغسيل . . . وكان الطعام الذى يصرف لهم لا يكاد يقيم أودهم . إذ كان يتكون من لتر من الماء وبعض الجزر مرتين فى اليوم و ٤٠٠ جرام من الخبز عسر الهضم كل يوم . وبعض الدهن والعسل والسجق مرة كل عشرة أيام . . . ولم تكن هناك أية رعاية طبية على الإطلاق . . . وإذا أبدى أحد المسخرين استياءه . فإن بطاقة التموين تسحب منه أو يلقى به فى السجن لمدة قد تبلغ أربعة أيام . فضلا عن الضرب الذى كان الجميع يتلقونه من الجنود الروس . . . وقد غضب أحد « الصاغات » الروس على امرأة تبلغ من العمر أربعين عاماً لأنها لم تستطع العمل لضعفها . فحطم أسنانها » .

ويتحدث الدكتور لويونثال عن العمل فى مناجم اليورانيوم فيقول :

« عند ما كنت فى زديكار سمعت عن الأحداث التى تجرى فى المنطقة المجاورة فركبت سيارتى إلى شنيبرج . . . واستوقفنى الحراس على حدود المدينة . ولم يسمحوا لى بالمرور إلا بعد أن أظهرت لهم التصريح الروسى الذى أحمله .

وبعد أن قمت ببعض الاستعلامات عرفت لماذا لم يعرف العالم شيئاً من معسكر السخرة هذا . . . فالاف من الرجال . . . لا يعرف أحد عددهم (وإن كان البعض يقدرون عددهم

بحوالى ٥٠ ألف شخص) يعملون داخل المناجم وخارجها مستخدمين أكثر الآلات بدائية . وترسل الخامات التى يستخرجونها إلى الاتحاد السوفييتى فى قطارات طويلة وفى الطائرات أحياناً .

وفى نفس الوقت يزداد عدد العمال المسخرين فى ساكسونى يوماً بعد آخر. إذ يرسلون فى الحال للبحث عن المعدن النفيس فى المناجم المهجورة دون أن يزودوا بالملابس أو الآلات اللازمة .

وينظم العمال فى المناجم عن طريق أوامر استخدام يصدرها موظفو العمل دون أدنى مراعاة لحالة العامل الصحية أو مهنته أو ظروفه العائلية تماماً كما كان يفعل هتلر لتزويد صناعاته الحربية بالأيدى العاملة خلال الحرب .

وقد جند العمال من جميع الطبقات دون أدنى مراعاة لصلاحيتهم — فمنهم الموظفون والعمال والطلبة والحلاقون والمحامون.. إلخ . . . والمفروض أن لا يجند للعمل إلا من تتراوح أعمارهم بين ١٨ و ٤٥ عاماً . ولكن الحقيقة أن أعمار المسخرين تتراوح بين ١٤ عاماً و ٦٥ عاماً . ولا تعفى النساء من العمل إلا إذا كان لديهن أطفال تقل أعمارهم عن ست سنوات أو إذا كانت العائلة تضم عاملين أو أكثر .

وقد قام مكتب العمل فى درسدن بإرسال ٨٠٠٠ عامل للقيام بأعمال السخرة فى أودى كما أرسل مكتب العمل فى ليبزيج

عدداً مماثلا أو يزيد . . . وكان على مدينة لانجسالزا أن ترسل ٨٠٠ رجل ولذلك هجرت كثير من العائلات منازلها بغية الفرار من أعمال السخرة .

ويعد العمل فى مناجم الأورانيوم خطيراً جداً على الصحة فالعمال داخل المنجم يستنشقون الغاز الناتج عن تحلل اليورانيوم كما أنهم يستنشقون تراب اليورانيوم خارج المنجم مما يؤدى بهم إلى الموت فى كثير من الأحيان . . .

وحين هبطت إلى داخل المناجم . صعقت إذ لم أر أبسط وسائل الأمن والسلامة ، كما لم يكن هناك أية ترتيبات ليتخلل الضوء والهواء المناجم أو لطرد الهواء الفاسد منها . وكان العمال يهبطون إلى المنجم على سلالم خشبية حيث يعملون لمدة ثمانى ساعات مستمرة فى أرض موحلة يصل الماء فيها إلى الركبتين أحياناً . ثم يحملون الخام على عربات يجرها الرجال ! !

وتعمل ثلاث نوبات فى المناجم دون انقطاع ، على كل منها إنتاج ٣ أمتار مكعبة على الأقل . كما تعمل نوبتان فى الخارج سواء أكان الجو ممطراً أو مشمساً دون الاهتمام بصحة العمال على الإطلاق كما أن المفروض على العمال جميعاً سواء أكانوا رجالا أم نساء أم صبية أن يعملوا فى أيام الآحاد فضلا عن أنهم لا يحصلون على يوم عطلة واحـــد قبل شهر أو شهرين .

ولقد رأيت هؤلاء المسخرين المتعبين يحضرون للعمل فى

ملابس ملطخة بالأوحال . وأحذية ذات رقبة وخوذات حديدية. وكانت جوههم شاحبة وأعينهم كليلة . لقد كانوا أشبه بجيش من العبيد لدى أحد جبابرة الفراعنة ! ! .

وتبلغ نسبة الحوادث الخطيرة — وأغلبها ناتج من سقوط الأحجار — مستوى مروعاً. ففى ٢٥ أبريل عام١٩٤٧ فى المنجم رقم ٣ ببريكين انهارت عارضة دفنت تحتها عشرين عاملا . . . ولم تمض أيام قلائل حتى وقع حادث خطير بعد منتصف الليل فى منجم « أبراهام ». وبعد يومين آخرين وقع حادث آخر فى منجم « لوتر ». وهكذا تقع الحوادث يوماً بعد يوم دون أية محاولة لوقفها وحماية العمال .

وفى هذه الظروف أصبح من المستحيل الحصول على عدد كاف من الرجال للحلول محل الذين يقعدون من العمل . فبدأ استخدام السيدات والفتيات ابتداء من أواخر أبريل. وكان بعضهن يجتزن فترة الحمـــل أو مازلن يرضعن أطفالهن . . . وقيل لهؤلاء النساء انهن سيذهبن للعمل فى « شركة حامض الكبريتيك » فى مارنبرج . ثم سحبت منهن بطاقات التموين لإجبارهن على الذهاب . . . » .

ولعل أحدث تقرير عن مناجم اليورانيرم هو هذا الذى حصلت عليه لجنة التحقيق فى أعمال السخرة ويقول هذا التقرير إن السلطات السوفييتية قد أعلنت أن العمل فى أودى عمل اختيارى

تماماً كما يحدث فى كل مكان من الاتحاد السوفييتى وهذا غير صحيح. فمنذ أوائل عام ١٩٤٩ قامت السلطات السوفييتية بحملات واسعة النطاق تهدف إلى إقناع العمال بالتعاقد معها على أساس اختيارى فلما لم يتقدم العدد الكاف من العمال المتطوعين اضطرت السلطات لاستخدام القوة فى تسخير العمال . . .

ويخضع العمال فى مناجم اليورانيوم للقانون العسكرى السوفييتى . . . فعند وصولهم إلى هذه المناجم تسحب منهم الأوراق المحققة لشخصيتهم وتعطى لهم بدلا منها تصريحات خاصة طبعت فى روسيا ولا يسمح للعمال بمغادرة منطقة المناجم . فإذا قبض على أحدهم وهو يحاول الهرب وقعت عليه العقوبات الصارمة .

وتوضع منطقة المناجم تحت حراسة قوية ولا يسمح بدخولها إلا للأشخاص المصرح لهم بذلك كما أن داوريات الحراسة تحمل أوامر بإطلاق الرصاص على كل شخص يطلب إليه الوقوف ولا يمتثل .

وتضم حامية البوليس السرى السوفييتى التى تحرس منطقة مناجم اليورانيوم حوالى ٥٠٠٠ رجل كما أن كل نوبة عمل تحرسها داورية تتكون من ٢٥ حارساً من رجال البوليس السرى السوفييتى . وإلى جانب ذلك فهناك بوليس المناجم الألمانى الذى يتعاون مع البوليس السوفييتى تعاوناً وثيقاً . ثم هناك عدد كبير جداً من المخبرين يعملون لحساب البوليس السوفييتى ويضعون

عمال المناجم تحت الرقابة السياسية الدقيقة .

وعلى كل حال فليست منطقة المناجم سوى معسكر ضخم للسخرة يخدم مصالح التسلح الذرى السوفييتى حيث لا يهتمون إلا بالنتائج فقط فليس العامل إلا وسيلة للاستغلال . . . وقد عبر أحد ممثلى إدارة المناجم السوفييتية عن وجهة النظر الروسية فى هذا الشأن حين قال « أن أدوى هى جزء من روسيا وسأقوم بتعليمكم بالطريقة التى اعتدت أن أعلم بها العمال فى روسيا ..»

وهكذا يمكننا أن نقول دون مبالغة إن « شعب ألمانيا قد سلم كل ما يملك إلى «ستالين العظيم » شأنه فى ذلك شأن الشعب الروسى أيضاً .

الفصل الثامن

هل جاء الدور على أمريكا ؟

إن الولايات المتحدة تضم لاجئين سياسيين من أفراد تلك الشعوب التى خدعتها وعود الشيوعية بحياة أفضل رأينا ماهيتها فى الفصول السابقة . . . ومع ذلك فهناك كثيرون من شعوب العالم الغربى ، يرفضون تصديق الشهادات التى أدلى بها أولئك الذين خبروا بأنفسهم معسكرات السخرة والمجتمعات « الحرة » فى الاتحاد السوفييتى والدول الموالية له .

والحقيقة أنه من الصعب على الإنسان العادى أن يقدر الظروف التى تمر بالآخرين ، ولذا ، فالغرض من هذا الفصل هو أن نضع القارىء فى مكان الشخص العادى فيما وراء الستار الحديدى . . . فلنتصور جدلا ، أن الشيوعيين قد استولوا على زمام السلطة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فما هى النتائج الحقيقية المترتبة على هذا ؟ . . . وما هو تأثيرها على الأفراد — أنا وأنت ومدرس الجامعة ، وميكانيكى السيارات ، ومهندس السكك الحديدية ، والبقال ، والفلاح ، وعامل المصنع ؟ ؟

هذه هى القصة التى لم نبالغ فيها ، لأنها حدثت هكذا فى رومانيا وبلغاريا والمجر وبولندا ، وبقية دول الستار الحديدى .

اليوم استولى الحزب الشيوعى الأمريكى على مقاليد الأمور فى الولايات المتحدة وسيطر على الحكومة ، والجيش ، وسلاح الطيران والبحرية . . . وفى الحال استبدل كل ضباط هذه الأسلحة الثلاث بضباط موالين للسوفييت . . .

وبدء فى إجراء حركة تطهير بالمحاكم . . . فعين المحامون الشيوعيون فى المناصب القضائية . . . وأعلنت الأحكام العرفية وأستدعيت عدة فرق من القوات السوفيتية وقوات الدول الشيوعية الأخرى لتساعد على استتاب النظام وقمع ما قد يحدث من اضطرابات وثورات . . .

وأصدرت الحكومة مراسيم تنظيم الإجراءات القانونية فى مختلف نواحى الحياة . . . وأوقفت الدستور ، كما أمرت بتطبيق قوانين العمل والجنايات السوفييتية بعد إدخال تعديلات طفيفة عليها أو دون تعديل على الإطلاق . . .

وقد تكون أنت فلاحاً . . . لقد استطعت أن تحتفظ بمزرعتك خلال الأزمات الاقتصادية والزراعية العنيفة — كما نجحت أخيراً فى التخلص من ديونك . . . وقد عملت فى السنوات القليلة الماضية على شراء بعض الآلات الزراعية سواء بمفردك أو بالتعاون مع جيرانك المزارعين ... وبالرغم من الظروف

القاسية التى مرت عليك ، فإن نجاحك الحالى يسبب لك المتاعب — لأنك قد أصبحت بسببه من طبقة الرأسماليين أى عنصراً خطيراً مناهضاً للمجتمع . . . لقد رفضت أن تسلم ممتلكاتك طواعية إلى المزرعة الجماعية التى تصر الحكومة على إنشائها ، كما أنك لا ترغب فى شراء البذور من الحكومة بأسعار باهظة ثم بيع محصولاتك إلى الحكومة بأسعار لا تكاد تصل إلى ربع أسعار السوق الحرة ، فضلا عن أنك لن تقبل بسهولة أن تزاد الضرائب المفروضة عليك بمقدار ٤٠ ٪ وعلى هذا ، فمن الواجب توقيع العقاب عليك . . .

سيلقى القبض عليك فى إحدى الليالى — فى الساعة الثانية أو الثالثة أو الخامسة صباحاً — وتوضع فى سيارة نقل ثم تنقل إلى محطات البضاعة حيث تكدس أنت وكثير من المزارعين الآخرين فى عربات الماشية بقطارات مسافرة إلى ألاسكا . . . وفى ألاسكا سيرغمك البوليس السرى على العمل فى مناجم الذهب لمدة تتراوح بين عشر ساعات وست عشرة ساعة يومياً دون ما رعاية طبية على الإطلاق .

ستسكن فى ثكنات ليس بها وسائل تدفئة ولا أغطية . . . وستنقطع صلتك بعائلتك تماماً . . . ولن تحاكم أو يسمح لك بالدفاع عن نفسك . . . وستعلم بالطبع المدة المحكوم بها عليك ، ولكنك معرض إذا انقضت مدة العقوبة ، وكنت

لا زلت حياً ، إلى إعادة الحكم عليك بمدة أخرى تبعاً لأوامر البوليس السرى الذى قبض عليك ، ونفاك ، وينتفع بعملك فى مناجم الذهب . . .

أو لعلك ميكانيكى تعمل فى إصلاح سيارات النقل ، ولكن منذ استولى الشيوعيون على السلطة ، قل إنتاج سيارات النقل بغية زيادة إنتاج الدبابات والطائرات الحربية . . . وعلى هذا ، فإن سيارات النقل الموجودة قد أصبحت قديمة جداً تحتاج إلى مزيد من الإصلاح . . . إنك تفعل كل ما بوسعك مستخدماً المواد الموجودة لديك ، ولكنك لا تستطيع أن تصنع معجزة فتحيل سيارة النقل المستهلكة إلى أخرى جديدة . . .

لقد تم إصلاح السيارة التى أرسلت إليك لإصلاحها ، ولو أنك تتساءل ما إذا كانت المواد التى زودت بها على درجة من الجودة بحيث تتحمل ضغط الاستعمال . . . ولكن هذه السيارة التى أصلحتها تفسد فى الطريق بين شيكاجو ونيويورك ، فتتأخر الشحنة التى تحملها وبالتالى تتأخر الباخرة التى تنتظر وصول هذه الشحنة . . . . وهكذا تحدد مصيرك ، فيقبض عليك بتهمة عرقلة التقدم الاقتصادى للدولة ، فأنت من العناصر المناهضة للثورة . . . إنك مذنب حتى ولو لم تكن تقصد تعطيل هذه السيارة . . . والآن سيأتى دور البوليس السرى السوفييتى الذى سيزورك فى منتصف الليل ، لينتزعك من عائلتك ويجبرك

على الاشتراك مع فريق آخرين من العمال المسخرين فى بناء محطة للتجارب الذرية فى صحراء نيو مكسيكو ، حيث تعمل فى الشمس المحرقة دون أية وقاية . . . ولن تستطيع بالطبع أن تقوم بكل الأعمال الموكولة إليك ، فتحرم من الطعام ، وتمرض وتتمنى الموت لأنه الوسيلة الوحيدة لنجاتك من هذا العذاب ، وستتحقق أمنيتك إن عاجلا أو آجلا ! ! وتتذكر وأنت تلفظ أنفاسك الأخيرة أنك كنت عضواً صالحاً أميناً فى الاتحاد الدولى للميكانيكيين وفى النقابة الأمريكية لعمل السيارات ، ولكن هاتان المنظمتان عاجزتان تماماً عن تقديم أى عون لك . . فقد نُحِّى الذين انتخبتهم واستبدلوا بوكلاء للحكومة ، فأنكروك واتهموك بالتآمر على الدولة . . . أنك ترحب بالموت الذى يحسدك عليه بقية زملائك المسخرين . . .

وقد تكون عاملا فى مصنع للنسيج ، وتعودت أن تذهب إلى المصنع فى الأوتوبيس أو فى سيارتك الخاصة التى لا زلت تحتفظ بها وإن كانت قد بليت . . . وقد تفسد منك سيارتك فى الطريق وتصل متأخراً عشرين دقيقة ، فتقرع بشدة ويضرب بك المثل أمام زملائك العمال . . . ومنذ ذلك الحين ، وأنت تخرج من منزلك مبكراً ساعة كاملة عما تعودت ، غير أن قطاراً طويلا للبضاعة يعطلك فى الطريق ، أو يفوتك الأتوبيس ، فتصل متأخراً للمرة الثانية ، فتوبخ علانية مرة أخرى ويبدأ الحظ

السيئ يسير فى ركابك . . . وفى صباح أحد الأيام شعرت بوعكة لا تمكنك من الذهاب إلى محل عملك ، ولكن ما إن يأتى الطبيب للكشف عليك حتى تكون درجة حرارتك قد انخفضت عن الحد الذى يسمح لك بالانقطاع عن العمل . . . وهكذا تقودك كل هذه الأحداث المتعاقبة إلى إدراج اسمك فى المرحلة الأولى لأعمال السخرة ، فيخفض أجرك بمقدار الربع . . . ولكن الحظ السيء لا زال يتبعك فتتعطل الآلة التى تعمل عليها. وليس من الغريب أو النادر أن تتعطل إحدى الآلات فى مصنع ولكن هذه الآلة التى تعطلت هى التى تعمل عليها أنت بالذات ، وقد أصبحت فى المرحلة الأولى لأعمال السخرة مضافاً إليها استياء رؤسائك . . . أن مديرى المصنع لا يعترفون بأن الآلة قد تعطلت قضاء وقدراً ، فيحيلون الأمر إلى البوليس السرى الذى يعتقلك للتحقيق . . . من هم شركاؤك فى المؤامرة ؟ من الذى يشرف على أعمال التخريب التى تقوم بها . . .؟ . . . وكلما احتججت ببرائتك كلما زادوا يقيناً بالعكس . . . وأخيراً تنهار مقاومتك فتعترف على أول خمسة أشخاص تتذكرهم . . . لقد اعترفت ولكنك سترسل إلى السجن لتقضى فيه عاماً أو عامين حتى ينظر فى قضيتك ، ويحكم عليك بالنفى وأعمال السخرة لمدة سبع سنوات ، لأنك عدو للدولة ! . . .

ولعلك تكون مدرساً عملت فى مهنتك خمسة عشر عاماً

حصلت خلالها على ثناء رؤسائك على مؤهلاتك الفنية ، غير أنك لست قائداً سياسياً ، ولا تعرف الكثير عن ماركس ولينين وإنجلز وستالين ، إنك لم تقم بدراسة واسعة لمؤلفات هؤلاء الأنبياء . . . « إن القدرة والكفاءة التربوية لا تفيدنا إلا فى القليل . . . إذ يجب على مدرسينا أن يكونوا ، أولا وقبل كل شىء ، قادة سياسيين ! ! . . .

وعلى هذا الأساس ، تفقد وظيفتك وتوضع تحت المراقبة .

أو لعلك كنت عالماً اشتهرت بالنزاهة والكفاءة العلمية ، ولكن هذا لن يشفع لك لأنه من مقاييس الرأسمالية . . . أن الأبحاث العلمية التى تقوم بها تعد أبحاثاً رجعية لأن اللجنة المركزية للحزب الشيوعى لا ترضى عنها . . .

أما إذا كنت قاضياً ديمقراطياً ، فأنت بورجوازى من خدم المحاكم الرأسمالية ، ولذا فأعمال السخرة فى انتظارك . . . أما إذا كنت راهباً أو قسيساً ، فأنت ترتكب جريمة تخدير الشعب وقد يسمح لك بأداء رسالتك ولكن فى أضيق الحدود ، فلا تستطيع زيارة المرضى والبؤساء أو المعتقلين أو تدرس مبادئ الدين للأطفال . . . حاول أن تفعل هذا ، فستجد نفسك فى اليوم التالى فى أحد المعسكرات للسخرة .

هل كنت اشتراكياً أو ديمقراطياً أو جمهورياً ؟ . . . إن عضويتك فى هذه الجماعات « الفاشية » قد جعلت منك عدواً

للثورة ، وبدا فستمضى بقية عمرك فى معسكرات السخرة . . .

نعم . . . مهما كان العمل الذى تؤديه . . . سواء أكنت رجل بوليس أو كاتباً فى محكمة أو محصل ضرائب ، فقد كنت فى خدمة أعداء الطبقة العاملة وخدمة الرأسماليين الاحتكاريين من رجال وول ستريت ودعاة الحرب . . . وعلى هذا ، فسيحكم عليك فى أغلب الأحوال بالاعتقال فى معسكرات السخرة . . .

إننا لم نبالغ فهذا هو الذى حصل فى كل مكان من الاتحاد السوفييتى ، وبولندا ، وجمهوريات البلطيق لاتفيا ولتوانيا وأستونيا ، ورومانيا ، والمجر ، وألمانيا الشرقية ، وبلغاريا ، وتشيكوسلوفاكيا. إن هذه الحقائق ليست محببة ولكنها هى الواقع ! . . .

الفصل التاسع

هل من سبيل إلى التخلص من هذه الأغلال ؟ ؟

ترى ، ما الذى يمكن عمله ؟ ؟ . . . هل حكم على الحياة الإنسانية فى كل مرحلة من مراحلها أن تصيبها لعنة نوع أو آخر من أنواع العبودية ؟؟ إننا اليوم نواجه نظاماً للعبودية لم يسبق له مثيل فى التاريخ . . . نظام يسخر الناس للعمل فى ظروف وحشية باسم الحرية والديمقراطية . . . نظام يعد أفظع أنواع العبودية فى التاريخ ، ولكنه مع ذلك يقوم برغم مدنية النصف الثانى من القرن العشرين . . .

إن نظام الرق فى مصر القديمة لا يعد شيئاً بجانب نظام السخرة السوفييتى . . . فقد كان من الممكن فى مصر القديمة أن يثور العبيد على الإقطاع وأن يقوموا بمظاهرات منظمة كما فعل اليهود أيام موسى وخرجوا حاملين كل ممتلكاتهم من مصر . .

وتختلف نظم العبودية فى الإمبراطورتين الرومانية والإغريقية وفى جنوب الولايات المتحدة قبل حرب الاستقلال ، اختلافاً كبيراً عن العبودية فى الإتحاد السوفييتى والدول التى تدور فى

فلكه ، فى النظم القديمة كان الإقطاعى يهتم بعبيده ، فيعطيهم ويرعاهم لأنهم كانوا مصدراً رئيسياً من مصادر ثروته . . . ولكن هذه الرعاية ليست موجودة على الإطلاق فى مجتمعات العبيد الشيوعية . . .

كما أن أعنف الوسائل الاستعمارية الوحشية التى استخدمها الرجل الأبيض فى أفريقيا وأمريكا وآسيا ، وشمال أمريكا ، لا تعد شيئاً مذكوراً بالقياس إلى الوسائل الاستعمارية التى يستخدمها الاتحاد السوفييتى فى الدول الشيوعية التى تدور فى فلكه .

ولعل الشىء الوحيد الذى يمتاز به نظام السخرة السوفييتى هو أنه لا فرق على الإطلاق بين الأجناس والألوان . . . كما أن معسكرات السخرة فى الدول الشيوعية « ديمقراطية » بمعنى أنها لا تضع درجات أو مراحل للعبودية ، فالجميع يتلقون نفس المعاملة الوحشية ويخضعون لنفس الظروف والأحوال التى تقشعر من ذكرها الإنسانية .

وقد يشير البعض إلى التاريخ القديم لبعض الدول قائلين أن ما يحدث الآن فى الاتحاد السوفييتى ليس إلا تطوراً طبيعياً لا بد من حدوثه فى دولة لم تبدأ فى النمو إلا أخيراً ... فقد كانت فى إنجلترا مثلا سجون لمن عجزوا عن أداء ديونهم ، كانت نظمها تسمح بتشغيل الأطفال وباستغلال النساء ، وهذا خطأ

وكذب مقصود مبين .

لقد قام الاتحاد السوفييتى على أساس البرنامج الماركسى .. وهذا البرنامج بالذات قد وضع على أساس نقد إنجلترا الرأسمالية أيام كانت تستغل النساء والأطفال أسوأ استغلال فى المصانع ، أثناء أكثر مراحل الثورة الصناعية مدعاة للخجل . . .

إن قادة الحركة الشيوعية يعلمون هذه الحقيقة تمام العلم ، ومع ذلك فقد أدخلوا إلى بلادهم هذا النظام الجديد للعبودية ، يشرف على تنفيذه أقسى نظام عرف للبوليس السرى الذى يزيد عدده بزيادة عدد ضحاياه . . . والمؤلم أن كل هذا يحدث باسم الحرية والإخاء والمساواة . . . باسم أعظم المبادىء التى يحيا من أجلها الإنسان . . .

ترى ما الذى يمكن عمله لوقف هذا الخطر الداهم على الأحرار فى كل مكان ، دون إثارة حرب مدمرة لا يعرف مداها إلا الله ؟ وما الذى يمكن عمله لتحرير هؤلاء الذين استعبدوا وقد ولدوا أحراراً ؟ . . ما هى الوسيلة لإحداث تغيير فى نظم هذه البلاد ؟ . .

إن الحلول المقترحة أضعف كثيراً من الحقائق المروعة التى نواجهها ، ومع هذا ، فها هو بعض ما يمكننا عمله :

— يجب أن تصر شعوب العالم ، عن طريق الأمم المتحدة ، على إجراء تحقيق دقيق بشأن هذا الموضوع ، فإذا رفض الاتحاد

السوفييتى والدول الشيوعية السماح بإجراء تحقيق فيها عن الظروف التى تسودها . وهذا هو ما سيحدث محققاً بحجة السيادة الدولية وما إلى ذلك من التعابير الرنانة التى يستخدمها الشيوعيون، يجب على الأمم المتحدة أن تستمع القصة من أفواه الذين مروا بجحيم معسكرات السخرة السوفييتية ، وشاء لهم حسن طالعهم أن يخرجوا منها أحياء ويهربوا إلى الغرب . . . ويجب أن تعرض كل هذه القصص الواقعية على أنظار جميع دول العالم وشعوبه . . .

— ويجب أن تعرض الصحافة الحرة فى جميع أنحاء العالم، على قرائها نتائج مثل هذه التحقيقات . . . هذه النتائج التى يجب أن يكون معروفاً أنها هى الأساس الفعلى لبرنامج كل الأحزاب الشيوعية فى جميع أنحاء العالم .

— يجب فضح حقيقة الشيوعية على الملأ . . .

— يجب أن تدرس نقابات العمال الحرة ، الظروف التى تعيش فى ظلها النقابات المماثلة فى « الجنة » الشيوعية .

— يجب على كل شعوب العالم الحر أن تؤيد الجهود التى تبذلها مختلف الجماعات والمنظمات لتفضح نظام السخرة . . .

لقد حان الوقت لقيام حركة دولية تستهدف تحرير العبيد، ويجب على الشعوب الحرة فى العالم أن تطالب بالإفراج عن هؤلاء الملايين من المسخرين ، مستخدمة كل وسائل الاتصال من الإذاعة إلى الصحافة . . .

يجب أن يرتفع صوت العالم الحر فى صيحة مدوية تصل إلى آذان وقلوب وعقول أولئك الذين يقاسون الأهوال فى دول العبيد . . . يجب أن تمنحهم هذه الصيحة الأمل والشجاعة والوسائل التى تمكنهم من التخلص من أغلالهم .

إننى أعتقد اعتقاداً جازماً أن فى إمكاننا أن نفعل الكثير ، لا بالوسائل المادية — كمقاطعة كل العلاقات التجارية بدول العبيد — بل وأيضاً باستخدام الطاقات الروحانية والأدبية التى لا زال العالم الحر يملكها . . .

حقيقة أن هذه الطاقات فى دول العالم الحر معبأة فى كفاح المظالم التى لا زالت توجد فى هذه الدول ، لكن هذه المظالم دون شك لا تعد شيئاً مذكوراً على الإطلاق بجانب الرق فى الدول الشيوعية ، فليس معنى أن لنا أخطاء صغيرة أن نسكت على الأخطاء الكبيرة التى ترتكب باسم الإنسانية والحرية .

إن صوت العالم الحر سيزداد قوة وأثراً لو أننا حررنا أنفسنا من نقائصنا . . . من الكراهية ، والتحزب والاستغلال والفرقة .

إننا كلما عملنـــا لتحرير عبيد القرن العشرين ، ازداد وعينا لنقائص نظمنا الديمقراطية الحالية ، فنعمل على إصلاحها حتى نزداد قوة للعمل من أجل حرية الآخرين ، الذين لم يعد لديهم ما يفقدوه إلا إغلالهم ! ! . . .

١٩٥٣ / ٤٠١٠

[redacted]
هيرلينغ ،ألبرت كونراد
امبراطورية العبيد السوفيتية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01018416